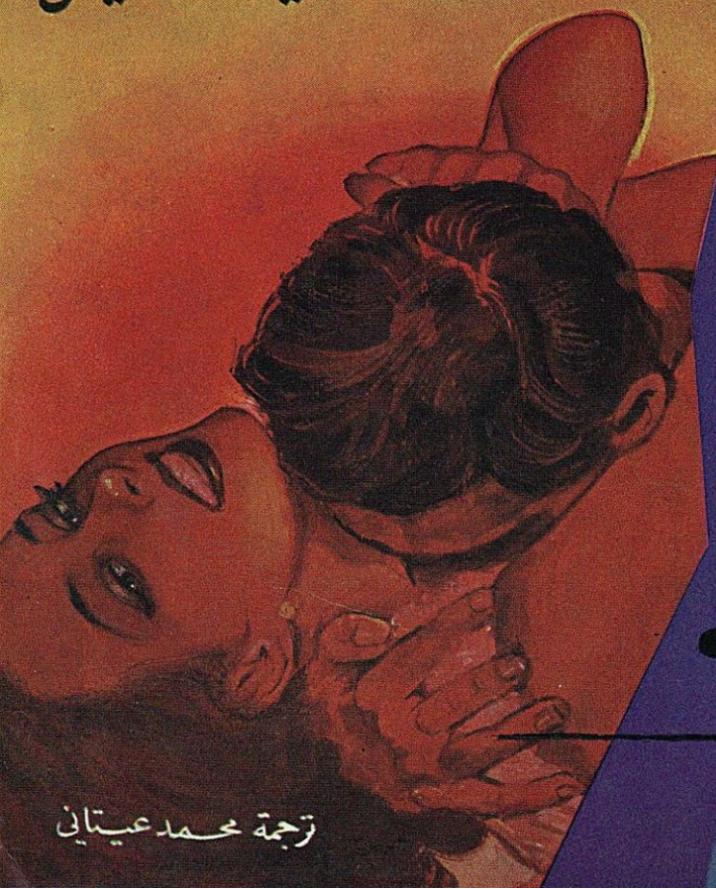


النشاط الحزبي

وَصِرَاع الطبقات

رايموت رايش



ترجمة محمد عيتاني

دار الآداب

رايموت رايش

النِّسَاطُ الْجَنَسِيُّ وَصِرَاحُ الطَّبَقَاتِ

اعادة الاعتبار الى التسامح الجنسي

ترجمة محمد عيناوي

منشورات دار الآداب - بيروت

الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة

١٩٨٦

مقدمة

هذا الكتاب العلمي يقدم خدمة جليلة إلى القراء العرب ، وإلى جميع أبناء الأمة العربية الذين يبحثون عن إسهام في حلول صحيحة لمشاكلهم ، على أسس منهجية سليمة ، وبصرف النظر عن المحرمات القيدية التي لم يعد لها من مكان في هذا العصر .

ولكن قبل الحديث عن نوع الخدمة الذي سيقدر لهذا الكتاب الجليل تكديماً للقراء العرب ، ولجمل قضايا المجتمع العربي ، يجب أن نعرف القاريء إلى عناصر هذا الكتاب ، ومنهجه ، وبعض معطياته الأساسية .

فكتاب «النشاط الجنسي وصراع الطبقات» بدرس ، على أساس علمي وإحصائي ، نظري وتجريبي ، مسائل الحياة الجنسية ومشاكلها في مجتمعين أساسيين من المجتمعات الرأسمالية المتطورة ، تجملت ، كما يبدو ، فيها المعطيات للدراسة هذه القضايا : وهما مجتمع جمهورية ألمانيا الاتحادية ، والولايات المتحدة الأمريكية .



بعد المرحلة الفاشية في ألمانيا ، لم يتضمن عملياً أي برنامج للحركة الاشتراكية أو للمعارضة القائمة في أقصى اليسار ، مطالب سياسية تتصل بميدان العلاقات الجنسية والحياة الجنسية عامة . فنقابات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني

مثلاً (وهو الحزب الحاكم حالياً في ألمانيا الغربية) لم تفهم قضية انعتاق المرأة إلا على مستوى استيعاب اجتماعي وحقوقى يساوي وضع المرأة بالوضع الراهن للرجل، كما أن هذه النقابات كثيراً ما كانت - وما تزال - تتوقف في حلولها عند التسويات. ومعروف أن التسويات، في قضايا شديدة الحساسية، كمسائل الحياة الجنسية، والموقف من قضايا المرأة، ذات أخطار وبيسة لاسيما في مجتمعات وضع أكثر ما فيها من أجهزة الاعلام الجماهيرية، كما يوضح المؤلف في سياق كتابه، في خدمة الاحتكارات الاستثنائية. وهكذا فالتسوية ستكون على حساب شطر من المجتمع، هو النساء، ما زال، حتى في بلدين من أكثر البلدان الرأسمالية تطوراً يعاني قسوة التمييز وصعوبات العيش، مما يزيد من عاهات المهتمين المذكورين ومشاكلها التي تتعرض الطبقات الشعبية الدنيا، على الأخص، لاشطر الأعظم من أخطارها.

إن مطالب سياسية، مثل إلغاء القوانين التي تحظر عمليات الاجهاض، وتحرم الجنسية المثلية (اللواط والسحاق) ليست في آخر تحليل سوى مناورات تتخبط في قلب هذه المشاكل والقضايا، وليست حلولاً جذرية لها. وعلى كل حال، فإن هذه المطالب السياسية - الجنسية، تظل، في ألمانيا الاتحادية مثلاً، محصورة داخل حلقات ضيقة، «انسانيه النزعة»، وهي لم تؤد، في أفضل حالاتها، إلا إلى أعمال قصيرة الأمد، وإلى عرائض قدمت إلى البرلمان الألماني الغربي. كما أنه لم تقم، بعد زوال الفاشيه من ألمانيا، حركة مماثلة في شمولها وقوتها حركة السيكسبول (السياسة الجنسية)، مثل التي نهضت خلال فترة ما قبل النازية، داخل وإلى جانب المنظمات العمالية.



وهذا الكتاب «النشاط الجنسي وصراع الطبقات» لمؤلفه رايموت رايش، مع كونه النتيجة الملموسة لأحدث المناقشات النظرية، والممارك السياسية الجارية

اليوم في ميدان الدراسة النظرية والتجريبية للحياة الجنسية وكل ما يتصل بها من قضايا اجتماعية وطبقية وانسانية ، وفي ميدان السياسة والتحرر الاجتماعي ، إنما يقتصر في معالجاته الأساسية على التغير الوظيفي الخطير الذي يحدث حالياً في أرقى البلدان الرأسمالية المتطورة : التطور - ليس نحو الأفضل - لأوضاع الحياة والعلاقات الجنسية تحت نير الاستتار الرأسمالي الاحتكاري ، والشروط الاقتصادية والنفسية ، الضروري توفرها مسبقاً ، لنضال ضد القمع الحقيقي الذي تعانيه الطبقات الشعبية في أوضاعها الاقتصادية والمعاشية ، وبالتالي ، الجنسية .

ويضع مؤلف الكتاب يده على العلل الرئيسية والمعاهدات الأساسية التي تطبع مشاكل المجتمعات الرأسمالية المذكورة ، في ميدان الجنس والصراع الطبقي ، وهي : إدماج كل الحياة الجنسية لجميع فئات الأمة داخل النظام الاحتكاري القائم ، ومسخ الحياة الجنسية وجعلها مجرد سلعة ، واعطاؤها وظيفة غرض استهلاكي ، وحرمان الجسد البشري - معجزة الطبيعة الرائعة - من مزاياه الجنسية والوجدانية ، واضفاء طابع جنسي ووجداني ظاهري على العلاقات البشرية ، وكذلك على علاقات البشر بانتاجهم ، وكبح الرغبات والفرائز الجنسية وصرفها في الوقت نفسه نحو نزعة عدوانية موجهة - وهو شيء شديد الخطورة على شعوب أخرى ، فضلاً عن الشعب نفسه ، صاحب العلاقة - إن جميع طرائق التكييف التضليلي المزيف لفئات المجتمع المختلفة ، ولا سيما الفئات الوسطى والبورجوازية الصغيرة ، وفئات العمال والفلاحين ، أي ما يشكل السواد الأعظم من كادحي البلدان الرأسمالية المتطورة ، إن جميع هذه الظواهر ليست سوى الشكل الراهن للاستتار الرأسمالي ، متسترة بالعديد من الأقنعة الموهمة ببراعة . ولذلك ، كما يخلص المؤلف إلى القول ، فما من « استراتيجيات جزئية » ولا استراتيجيات جنسية على وجه التخصيص ، تستطيع أن تواجهها على قدم المساواة وبمحفوظ متساوية في الصراع ، هذا

الاستثمار الاحتكاري . لذلك فقد قاد رايموت رايش تفكيره المنطقي، على أساس المعطيات العلمية التي منهجها في بحثه بصورة مقنعة ومتكاملة ، إلى وضع مسألة « الاستراتيجية الجنسية » في موضعها الحقيقي ، حين أكد أن هذه الاستراتيجية لن تجد مكانها إلا في المجال المتلاحم من النضال السياسي المضاد للرأسمالية ، دفاعياً وهجومياً ، وهي استراتيجية لا يمكن إضافتها ، بما يشبه الإلحاق أو الإلصاق ، بل ينبغي أن تنصهر بصورة عضوية في هذا النضال .



والآن : هل ثمة نواح سلبية في الكتاب ؟

لقد بلغ من أمانة الكاتب للمنهج العلمي التقدمي أن قام في تذييلاته الختامية لطبعة الكتاب الانكليزية بانتقاد ذاتي لكتابه ، منهجاً واستنتاجات، ولخصها في أنه كان لديه منحرف ، وجده على شيء من المبالغة ، نحو المنهج الفرويدي على حساب المادية التاريخية . وقد صحح المؤلف هذا الانحرف في تذييلاته الواردة في آخر الكتاب .. وكذلك انتقد وضعه آمالاً مفرطة بعض الشيء في آفاق الحركات الطلابية لثورة الرفض الجنسية الاجتماعية . ولا حاجة لإيراد انتقادات المؤلف في هذا المجال لأنه فصلها بصدق وأمانة علمية في خاتمة كتابه .

لقد اعتمد المؤلف ، في وصوله إلى هذه النتائج ، وعرضه هذه المعطيات ، على منهجين قد يبدوان للبعض متناقضين ، غاية التناقض ، أو على الأقل غير متجانسين : المنهج الماركسي ، والطريقة الفرويدية (علم التحليل النفسي) مع استكمال إنجازاتها - ولا سيما بالنسبة للفرويدية وشرائحها ومطورها - للتمكن من معالجة قضايا شديدة الحرارة والمعاصرة .

وفي هذا الصدد ينبغي القول إن الباحثين الماركسيين ، قد أعادوا النظر خلال الأعوام الأخيرة ، في جملة ما أعادوه من مقولات ومفاهيم جدتها الفقرات السلبية من المرحلة الستالينية ، والتبعية الفكرية غير الانتقادية للماركسي الأحزاب

الشيوعية خارج الاتحاد السوفياتي . هذه المفاهيم والمقولات تتعلق بـ : الماركسية
 وعلم الاجتماع - الماركسية وعلم الحياة - الماركسية وعلم النفس - الماركسية
 والتحليل النفسي ، موضوع حديثنا ، أقول إن الباحثين الماركسيين ، لا سيما في
 الاتحاد السوفياتي وفرنسا ، قد أعادوا اليوم تقييم أبحاث فرويد ، وفقاً للمنهج
 العلمي الأساسي ، منهج المادة الديالكتيكية . فاكتشفوا على الأخص أن الأبحاث
 العيادية لسيجموند فرويد ، والعديد من إضافات تلامذته - أدلر ، فينيشيل ،
 أنا فرويد ، ولا سيما قراءة ميشال لا كان الجديدة لفرويد - ، وهي قراءة
 تصحيحية في الأساس - تندرج ، بل يجب أن تندرج في المعطيات العلمية للنظرة
 العلمية - أي الماركسية - عن العالم . وأنه لا يصح اعتبار الأبحاث البافلوفية -
 وهي فيزيولوجية في أساسها وإن كانت عبقرية الآفاق - سوى أحد الأسس
 لتأسيس علم نفس علمي متكامل . صحيح أن التوفيق لم يحالف بعض
 التفسيرات الاجتماعية التي بناها فرويد على استخلاصاته الطبية العيادية (مثلاً :
 تأكيداً بأن الانفعال اللاواعي le ça والليبدو الجنسي يؤديان تلقائياً إلى
 الحروب ، متناسياً مجموعة من التطورات والمصالح الطبقيّة والوسائط والأبنية
 التي يخضع لها الانفعال اللاواعي ليصير إلى تلك النتيجة الاجتماعية الخطيرة
 التي هي : الحرب) لكن مساهمات فرويد في الكشف عن قوى العقل الباطن
 تظل ذات أهمية خطيرة بالنسبة للعلم في مجموعه . ومن فضائل كتاب رايموت
 رايش هذا أنه حاول أن يملأ ثغرات العلم الفرويدية بالنظرات الماركسية
 المعروضة بشكل انتقادي خلاق . وعلى كل حال ، فإن نظرية الشخصية
 الإنسانية ، نظراً لحضوعها عبر تاريخها ، وفي الوقت الحاضر على الأخص لعدد
 لا يحصى من الحفّات ، والهزات ، وإعادة النظر ، والتفسيرات المختلفة ،
 تظل نظرية متطورة ، آخذة في التكون والنمو والتكامل . وكل ما هناك يشير
 إلى أنها تتجه في هذا السبيل التكاملي اتجاهاً إيجابياً ، أي أنها تفتني باستمرار
 بمعطيات جديدة . والدليل ، هو هذا البحث الميداني المحدد لرايموت رايش ،
 فهو إضافة علمية جليّة إلى المنهج العلمي الشامل : أي الماركسية المفتتحة بجميع
 إضافات العلوم الإنسانية الأخرى ، ولا سيما الانتروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ،

وعلم النفس ، وعلم التحليل النفسي . صحيح أن هناك فوارق جذرية ، ومن مجموعات معينة من المجتمعات ومجموعات أخرى ، (المجتمعات الآسيوية ، النامية - والمجتمعات الأوروبية المتطورة ، والمجتمعات البدائية ، أواسط افريقيا - وأوقيانيا الخ البدائية) لكن المؤلف أراد من بحثه أن يعالج قضية رئيسية في المجتمع الأوروبي الأمريكي المتطور أولاً ، وهي المشاكل المبررة للحياة الجنسية وعلاقتها العضوية بمختلف تصرفات الفئات الاجتماعية ومواقفها ؛ لكن رايوت رايش وضع يده على قانون أساسي ، عام فيما أعتقد ، له صفة الشمولية ، يمكن أن نلتمسه ، ونفيد من تطبيقه في سائر المجتمعات النامية ، بما فيها مجتمعا العربي ، وهذا القانون هو : « قانون التكيف الرأسمالي التضليلي لمظاهر وممارسات العلاقات والحياة الجنسية لخدمة المجتمع الرأسمالي ، مجتمع الاستثمار والاضطهاد للجماهير المنتجين » .



والآن ، ما هي الخدمة الأساسية الجليلة التي يقدمها هذا الكتاب للجماهير القراء العرب ، من باحثين مختصين وعامة القراء ؟ إنها ، في رأبي ، خدمة متعددة الوجوه : منهجية ، وفكرية ، وإعلامية ، واجتماعية وسياسية .

ولكن قبل إيضاح هذه الخدمة ، ينبغي أن نلقي نظرة سوسولوجية سريعة على مجتمعا العربي ، لنرى أين تقع هذه الدراسة من قضاياها .

فمن الواضح أن شعبنا العربي ، يعيش ، في ميدان هذه القضية (الجنسية الاجتماعية) أوضاعاً شديدة التفاوت ، من حيث التخلف المرير في بعض أقطاره ، في أبلية عشائرية قبلية بل وبدائية ، والتطور العاصف الذي لا يتخلو من ارتباك وحيرة مسألتين Problématiques في أقطاره الثورية المتطورة ، التي دخلت في السياق العريض للثورة العربية . وكذلك ، فإن بعض الأقطار العربية - مثل لبنان وتونس والمغرب - التي ما زالت مضطرة ، بفعل ظروف تاريخية

وسياسية معينة ، إلى نسخ « النموذج الغربي للحضارة » ، إنما تعيش المآسي التضليلية الاستثمارية التي تحدث عنها رايوت رايش ، بكل تناقضاتها وتمقيداتها ، مضافاً إليها سهولة فتك هذه المآسي في أرجاء بلد كلبنان ، أو تونس أو المغرب ، نظراً لأن بنياتها الأساسية - ولا سيما في الريف - هي بنيات متخلفة اجتماعياً واقتصادياً وإنسانياً في الأساس . وهذه البنى لا تحتل ضغط الممارسات التكوينية الاستثمارية الجديدة التي تعجز عن احتمالها المجتمعات الغربية المتطورة دائماً . أضف إلى ذلك كله ، أن المجتمعات العربية ، التي تمر جميعها على كل حال وبدرجات متفاوتة من القوة والزخم ، في ثورة اجتماعية سياسية عارمة ، تمر أيضاً بمراحل تحويلية ، وهي بحاجة إلى المزيد من معرفة حقائق وقائمهها الاجتماعية ، على أساس علمي ، نظري وميداني ، لتحديد مشاكلها وقيادة تطوراتها .

وهذا الكتاب يقدم ، في هذا الصدد ، كما سبق القول ، إلى الباحثين العرب المختصين وإلى عامة القراء العرب ، خدمة - بل خدمات - متعددة الوجوه :

(١) منهجية ، لأن مؤلفه ، مع حشده عدداً كبيراً من المعطيات والمعلومات ، ويكفي أنه امتطى فرسين مجليين ، لم يسبق لهما أن التقيا مثل هذا اللقاء الهام والطريف - الماركسية ، والفرويدية - قد قاد بحمه بأسلوب علمي استقرائي واستنباطي ، لا تقريرى ولا دوغمائي ، بصرف النظر عن كل فكرة مسبقة ، للوصول إلى نتائجه . وقد قام بذلك بصورة تركيبية شمولية ، في حين نرى أن أكثر أبحاث التحليل النفسي العربية ، التي تصدر عن باحثينا المختصين وتنتشرها مجلاتنا ودور النشر عندما ، تظل تجزئية فضلاً عن فقدان أكثرها البعد الاجتماعي . هذا إذا لم تكن مترجمة بكثير من التصرف الكيفي أحياناً أو منتحلة .

(٢) فكرية . لأن المؤلف يتبن مدى خدمة المنهج الماركسي الخلاق لقضايا لم يسبق له أن عكف عليها بصورة تخصصية (باستثناء أعمال هنري فالون H. Wallon الفرنسي حول تأسيس علم نفس الطفل ، فيما أعلم) .

٣) إعلامية . إذ أن القارئ العربي سوف يطلع في سياق هذا البحث الجاد على مقدار لا يمحى من المعلومات والممارسات الغربية والطريقة والعملية ، وذات القيمة المنهجية على كل حال ، من ناحية اختيارها وكيفية استخدام المؤلف لها .

٤) اجتماعية . إذ سوف تطرح أمام كل باحث عربي جدي ضرورة التمييز عن سواعد البحث ، لمسح الخريطة الاجتماعية - الجنسية العربية ، الحاضرة ، ورصد تحركاتها ، ومعرفة ما يدور في ميادينها ، وفي ذلك فائدة ليس للعلم الاجتماعي العربي وحده ، بل وللنضال العربي من أجل التحرر والتقدم والحضارة .

٥) سياسية . وبناء على ما سبق كله . ذلك لأن القيادات السياسية والجهاهير الثورية ، يفيدها جداً أن تؤسس حركاتها على حقائق حية ، مهما كانت مريرة ، أو جسورة ، ولا يفيد تلك القيادات ولا الجهاهير ، إطلاقاً ، الاكتفاء ببعض الصيغ الجامدة ، ولو كان ذلك في ميدان يعتبره البعض جزئياً - أو محرماً ، أو غير لائق الخوض فيه - وهو بحث حقيقة أوضاع الحياة والممارسات الجنسية في مختلف أقطار الوطن العربي .

وهكذا يمكن اعتبار هذا الكتاب لرايموت رايش نموذجاً وقدوة لكل بحث عربي جدي عن حقائق مجتمعنا وخفايا قضاياها .

محمد عيتاني

ماذا يعني بحثنا في صراع الطبقات والجنس ؟

بعد الحقبة الفاشية في ألمانيا، لم نجد مطلقاً، من ناحية عملية تطبيقية، أية مطالب سياسية ذات صلة بميدان الحياة الجنسية، ماثلة في برنامج للحركة الاشتراكية أو في برنامج للمعارضة القائمة على أساس أقصى اليسار. إن النقابات، والحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، شأن جميع المؤسسات الجماعية المتعددة الأطراف، لم تفهم مطلب تحرير المرأة إلا على مستوى تشبيه اجتماعي وحقوقى للوضع القائم للرجل، متوقفة في أكثر الأحيان عند حلول هي عبارة عن تساويات. والمطالب السياسية، مثل مطالب إلغاء القوانين الخاصة بالإجهاض، وباللواطة وبالسحاق (أشتهاء الجنس المائل *homosexualité*)، أي بصورة أساسية المطالب ذات نزعة المساواة بمعنى الكلمة البورجوازي والتي أثارَت في عهد جمهورية ويمار حركات مطلبية جماهيرية بصدده هذه الموضوعات، لم يجر تطويرها في ظل الجمهورية الثانية إلا داخل حلقات ضيقة ذات نزعة إنسانية، «إصلاحية»، ولم تؤد، في أفضل الحالات، إلا إلى أعمال قصيرة الأجل أو إلى عرائض قدمت إلى البرلمان. ولم تقم بعد زوال الفاشية، حركة مماثلة لحركة «السيكس بول *Sexpol*» (مختصر لمباراة السياسة الجنسية) التي شهدناها في فترة ما قبل الفاشية، داخل المنظمات العمالية أو إلى جانبها ويعود هذا إلى السبعين التاليين: من جهة، إلى التغيرات

المعقدة التي قلبت الحركة العمالية والحركة الاشتراكية ، رأساً على عقب ، في مجملها بعد أن سحقها الفاشية أول مرة ، ثم سحقها أثناء فترة الرأسمالية في الجمهورية الاتحادية الألمانية ؛ كما يعود ذلك ، من جهة أخرى ، إلى تفسير الوظيفة المناطة بالحياة الجنسية في نظام السيطرة الرأسمالي ، الذي حل بعد الفاشية .

إن هذا الكتاب ، مع كونه النتيجة الملموسة لأحدث المناقشات النظرية والصراعات السياسية العملية الجارية اليوم في الجمهورية الاتحادية الألمانية ، على صعيد الحياة الجنسية ، والنضال السياسي والتحرر الاجتماعي ، على حد سواء ، إلا أنه يقتصر تقريباً على معالجة تغير هذه الوظيفة : وظيفة الجنس تحت نير الحضارة الرأسمالية الاحتكارية . وليس ذلك لأنني أريد بصفتي جامعياً طيباً ، أن أضع غمّامتين^(١) حول عيني . فإن نظام سيطرة الإنسان في النظام الرأسمالي اليوم ، قد عرف كيف يستحوذ مجدداً على اكتشافات « الثورة الجنسية » ، إلى حد أن ثقة ساذجة بالقوة الجنسية القادرة على تحرير ذاتها بذاتها في ظل هذه الانظمة لم تعد ممكنة ، ولم يتم والحق يقال في الجمهورية الاتحادية الألمانية سوى حركتين في مصكر المعارضة التابع لأقصى اليسار ، صاغتا وأعلنتا جهاراً مشاكل الجنس ، وربطتا مطالب التحرر الاجتماعي بالمطالب الراهنة لتثوير الحياة الجنسية . هاتان الحركتان هما « الكومونة رقم واحد » ، في برلين الغربية ، و « مركز عمل طلاب الكليات المستقلين والاشتراكيين » . وحق الآن أخفقت هاتان الحركتان في جهودهما الملموسة لأجل تثوير السلوك الجنسي للمجتمع والحياة الجنسية لدى مناضليها ، كما أنها أخفقتا في أن تجعلا من ضرورة هذه الثورة الهدف الرئيسي لمثلتها السياسية التنويرية . وتكن أسباب هذا الإخفاق من جهة ، في التناقض ، العسير الحل ، تناقض الطباع الجنسية التي « سبق أن تكونت » لدى أعضاء هاتين الحركتين ، ومن جهة أخرى

(١) الغمامة هي الكمامة التي توضع حول عيني الجواد لحصر نظره الى أمام (المترجم) .

في المفهوم النظري المتناقض هو ذاته ، مفهوم الجنس ، كما يتجلى في النضال ضد السلطة وضد الرأسمالية . لذلك سوف نعالج باديء بدء ، في هذا الكتاب القضايا السياسية الراهنة ، وبصورة رئيسية من الوجهة التالية : القمع الجنسي في النظام الرأسمالي الاحتكاري ، والشروط المسبقة ، الاقتصادية والنفسية ، للنضال ضد هذا القمع . والوجه الآخر للقضية ، أي المسائل التنظيمية والتوجيهات العملية التطبيقية لأجل التحرر الجنسي ، لن نعالجه إلا جزئياً ، وأحياناً سنضرب صفحاً عن معالجته ، اطلاقاً .

لقد أدرك ويلهم رايش ، خلال الأعوام الأخيرة التي سبقت قيام الدكتاتورية الفاشية . أن مفاهيم الدعاية والتحرير السياسي لدى الحزب الاشتراكي الديمقراطي والحزب الشيوعي الألماني ، لم يكن بمقدورها كبح صعود الفاشية . كان هذان الحزبان يفقدان أكثر فأكثر ، الصلة النضالية مع أعضائهما ، وبالأحرى مع « الجماهير » ؛ ولم يكن في وسع هذين الحزبين الدفاع عن مصالحهما إذ أنهما لم يكونا يفهمان هذه المصالح . وتحجر الحزبان وانحلا إلى جهازين متزايدتي القدرة ومتزايدتي التسلط ^(١) . واستخلص رايش من بحثه نتيجة صحيحة جزئياً . لقد قام بتأسيس حركة « السياسة والاقتصاد الجنسي » ، أو سيكسبول Sexpol التي أرادت ان تكون جماعة تشكل جزءاً لا يتجزأ من الحركة العمالية الشيوعية . وكان الاشتراك في هذه الحركة يتراوح بين طائفة من جماعات الفتيان ، ومراكز الاستشارة الطبية ، وبين جماعات من الاساتذة والأطباء ، كانوا ينظمون مراكز للعمل ، ودروساً مسائية ، وحملات للتربية الجنسية الخ . وقبل عام ١٩٣٣ نبذ الحزب الشيوعي الألماني هذه الجماعة ؛ وفي ذلك الحين ، أقصي رايش عن الحزب الشيوعي وكذلك عن « الجمعية العمالية للتحليل النفسي » ، وخلال نشاطات

(١) قام ويلهم رايش بتعليل هذه التجربة باسم مستعار ، في كتاب بعنوان :
« Was ist Klassenbewusstsein » ، فيرلاغ فور سيكسوال بوليتيك - كوبنهاغن -

السيكسبول وتظاهراتها ومطبوعاتها السياسية ، الموجهة مباشرة إلى الشغيلة ، كان يجري التركيز دائماً على مظهرين أساسيين من بؤس البروليتاريا ، وهما نقطتنا انطلاقاً لتكوين الوعي الطبقي : مشكلة السكن ، ومشكلة منع الحمل .

هاكم ، مثلاً ، ما كتبه رايش في كراس موجه إلى الشبيبة العمالية بعنوان « كفاح الشبيبة الجنسي » ، قال : « يقال لكم إنه لا ينبغي وضع الكيس الانكليزي الوافي في جيب صدرتكم ، إذ أن الحرارة تتلف هذا الكيس ؛ وانه اذا ما اتلفت هذه الأداة الواقية من الحمل ، ولم ينتبه صاحبها للعلاقة إلى ذلك إلا بعد الاتصال فعلى الفتاة أن تنظف مهبلها فوراً بمحلول مركب من ملعقة من الخل مذوبة في لتر ماء . وسوف يرد العمال الفتيان ، بحق ، على هذه النصيحة بأن الظروف التي يحرون فيها العلاقات الجنسية لا تتيح لهم استعمال مثل هذه الطريقة . ونحجب نحن من جهتنا على ذلك أن هذا سبب آخر لعدم الاهتمام فقط بإمكانات القيام بعلاقات جنسية ، بل المهم محاولة فهم النظام الاجتماعي المسؤول عما تعانیه الشبيبة من صعوبات ، (١) .

إن خوض حملة للتربية الجنسية ، بأشكال مباشرة على هذا النحو ، قد أصبح اليوم أكثر صعوبة ، بل وحتى مستحيلاً ، ذلك لأن تكاثر إمكانات المتع المزيفة ، قد أضعف حدة النزاع المعاش ذاتياً ، هذا النزاع الذي عدل ولطف من حدته النظام الرأسمالي ، بصور مختلفة . فضلاً عن الأكياس الواقية من الحمل ، الرخيصة الثمن ، والسيارات التي يتنزّه فيها الفتيان والفتيات ويمارسون فيها علاقات جنسية ، فحتى واقع أن وسائل منع الحمل ، التي تؤخذ بالفهم (الحبوب) ما تزال امتيازاً في بعض البلدان الرأسمالية المتقدمة ، لم يعد يكفي في دعم مجموعة من الحجج لأجل النضال الطبقي . وذلك ، أولاً ، بسبب أن الفئات الاجتماعية الأسوأ حالاً ، في البلدان الرأسمالية اليوم ، يصعب عليها الحصول على حبوب

(١) ويلهم رايش « Der sexuelle Kampf der Jugend, Verlag für sexual politik, Berlin, 1932, p 22

منع الحمل ، كما أن هذه الفئات تُترك على صعيد الطب الاجتماعي ، على جهلها ، وتبذل الجهود لإبقائها غارقة في أوهامها وأفكارها المسبقة . وتصلب وديمومة هذه الأوهام والأفكار المسبقة يعودان قبل كل شيء ، إلى الطرائق البيروقراطية والإقطاعية التي تبقي هذه المجتمعات فيها جميع مؤسسات الصحة العامة . وإثر ذلك ينعكس موقف هذه الطبقات الدنيا تجاه المؤسسات في القلق ، القائم على أساس واقعي ، والمعزز عصابياً ، الذي يواجه به أفراد تلك الطبقات أية معالجة طبية ؛ ولا يستطيع تخفيف هذا القلق إلا حملة طبية - اجتماعية تهدف إلى نشر الديمقراطية في هذا الصدد (وليس لأشراض صحية عرقية) ولا يمكن التغلب على هذا القلق بتربية جنسية أولية ، إذ أن هذه التربية ، في الظروف الحاضرة ، تفقد كل فعالية لها منذ أن تصطدم بموقف نفسي دفاعي ضد حرية العلاقة الجنسية . إن حبوب منع الحمل تباع بحرية في البلدان الرأسمالية الأكثر تطوراً ، في الولايات المتحدة مثلاً ، في الصيدليات بل والحوانيت العادية . ومن الرجعية مكافحة هذه الوسيلة المستحدثة لمنع الحمل : إلا أنها في الواقع المباشر ، تجرد مطلب التحرر الجنسي من شرط أساسي من أهدافه الثورية ؛ نعني به : المطالبة بوضع أفضل للشروط التقنية والاجتماعية للممارسة الجنسية . وهذا المطلب ، بصدد هذه النقطة بالذات ، قد امتصته منظومة المتع الجنسية الجزئية . وبين هذا المثال ، بوضوح ، إلى أي مدى 'حدث' ، في تلك الأثناء ، من الكفاح من أجل حرية أكبر على هذا المستوى - التي هي وحدها ، في مرتبتها الأولى ، تكون في متناول التحرير السياسي - كما أنه يبني في أي ميدان مزدوج وضع هذا الكفاح حالياً . وإنه لا يصعب على فتى بارع الحيلة ، من الفئات المتوسطة ، أن يعثر على طبيب يصف له وسائل لمنع الحمل ، نظراً لأن العوامل المتنفذة في البيئة الجنسية التي يستمد منها ذلك الشاب معاييرهِ الجنسية الخاصة ، كعجلة Twen مثلاً ، تقوم بدعاية صريحة جهاراً لوسائل منع الحمل وأسهل الطرق للحصول عليها .

فلنبعث ، عن كذب أكثر ، مسألة الانتقال من الكيس الواقى من الحمل

الرديء النوعية ، والغالي الثمن بالنسبة للشبيبة العالية ، إلى حبة منع الحمل ، وهي ذات سعر ملائم جداً للجميع مبدئياً ، ومن السهل الحصول عليها ، والتي تضمن سلامة تامة ، والتي لم تبق إثراً في بعض البلدان المتخلفة على صعيد «التمدن» رمزاً لامتيياز اجتماعي . إن « الأوس » Auss (أي مركز نشاط تلامذة الكليات ، المستقلين والاشتراكيين) ، خلال المرحلة الأولى من تأسيسها وتكوين الجماعات المحلية التابعة له ، قد ركز شطراً كبيراً من دعايته السياسية في المدارس وبين الجمهور على حرية الحصول على حبوب منع الحمل لجميع الفتيان الذين بلغوا سن الحلم (النضج الجنسي) . وقد نتج عن ذلك ، بالضرورة الآلية المزروجة التالية : (١) ما إن تمت صياغة أسس ومبادئ أولية لبرنامج سياسي وتنظيمي مشترك لتلامذة التعليم الثانوي ومتدرجي التعليم المهني ، حتى عاجل الانهيار تلك المبادئ والأسس الأولية . وقد صاغ تلامذة الكليات مطالبهم بحيث سرعان ما وعى متدرجو التعليم المهني المسافة الاجتماعية التي تفصلهم عن أوائل التلامذة ؛ وقد تعززت عملية الفوارق هذه بالحسد الجنسي الكامن لدى العمال الفتيان إزاء التلامذة المخطوظين ، ذوي الامتيازات . (٢) إن التلامذة أنفسهم ، بصفتهم فئة ذات أعمار طرية معينة ، كانوا يخضعون لرقابة جنسية من جانب المؤسسات الاجتماعية التي تقيهم تحت سيطرتها ، أشد صرامة مما تخضع له أية فئة أخرى من ذوي الأعمار المختلفة ؛ لكن هؤلاء التلامذة يمثلون في الوقت نفسه ، خبرة وثقافة باطنيتين مضررتين ؛ فبسبب تكوينهم الذهني والفكري ، واستعداداتهم الانفعالية الخاصة ، وتحريمهم من ضغوط الانتاج ، قدر لهم أن يميزوا بصورة أفضل أيضاً ، ما يتعرضون له ، هم أنفسهم ، من قمع جنسي . إن الأهداف السياسية لحملة « الأوس » Auss ، للتربية الجنسية ، التي جرت في الكليات والمدن ، لم تؤثر على هذا الفريق من التلامذة إلا مدة بضعة أسابيع ، ومع أنه يمكن ربط هذا الموقف بآلية الكبت العامة التي تخضع لها كذلك النشاط الجنسي للتلامذة ، إلا أنه يبرز بصورة أجلى أيضاً أن الخلفية الجنسية للمجتمع وممارسة الفرد الجنسية ، لا يمكن أن يكون في أساس بداية وعي

سياسي والتزام من شأنها أن يقودا هذا الشخص إلى مواقف طبقية محددة وحاسمة أكثر فأكثر ، إلا إذا كانت حملة التحرر الجنسي هذه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعملية إيضاح وتدوير ، وبتفكير وعمل سياسيين في ميادين اجتماعية أخرى . وبعد نجاحات الاجتماعات المكرسة للحياة والنشاط الجنسيين ، هذه الاجتماعات التي كانت تجتذب جمهوراً تنقص به قاعات مختلف الكليات ، كانت الاخفاقات الأولى التي أصيبت بها حركة الـ A.u.s.s . تعود إلى مبالغتها في تقدير الدينامية السياسية التي استثارها زناد التفجير الذي هو المسألة (علم مجموعة المسائل) السياسية - الجنسية ، هذا الزناد التفجيري الذي يحتفظ مبدئياً بوظيفته في ذاته .

كان باستطاعة ويلهلم رايش أن يربط كل مطلب خاص لأجل التحرر الجنسي انطلاقاً من سياقه القومي في النظام الرأسمالي ، بمطلب سياسي ، كان يهاجم بصورة صريحة في ميدان صراع الطبقات ، جذور النظام الاجتماعية . ذلك لأن كل تظاهرة جنسية كانت في ذلك العهد ، تُقمع صراحة أو يُحجّل دونها بشروط يسهل إيرادها حسيّاً ، (أزمة السكن ، غلاء ثمن وسائل منع الحمل) . إن الوظائف الاقتصادية والوظيفية (الفيزيولوجية) والطوباوية التي عزاهها رايش إلى النشاط الجنسي ، الذي يقود في نظره الإنسان ، نحو تحرره يمكن أن تبدو ، من وجوه عدة ، ذات مفهوم آلي يصعب تحمله ، كما أن بعض استنتاجاته واضحة الخطأ ؛ وتخطياً لهذا النقد ، ينبغي لنا أن نسجل أنه أصبح اليوم ، من الصعب ، وتاريخياً من المستحيل ، أن نربط ما بين حرية جنسية أكبر كماً ، بمطالب جذرية ثورية . وبالتالي ، فسيكون أصعب بكثير جداً تحديد الفرق النوعي ، الكيفي *la différence qualitative* بين هامش من حرية جنسية أكبر ، والحرية الجنسية الحقيقية .

لدى تحليل المنازعات الطبقية قبل الحقبة الفاشية كان يمكن ان يتميز المرء ، دون اشكال ، ثلاث طبقات اجتماعية : البروليتاريا ، والبورجوازية الصغيرة ،

والطبقة الحاكمة . وبمقدار تقدّم انتشار الطابع الاحتكاري للأسمال ، أصبح يمكن موضوعياً ونهائياً اعتبار البورجوازية الصغيرة ، في شطرها الأكبر ، في عداد البروليتاريا أيضاً . ورغم كل شيء ، فهذا القسم من البورجوازية الصغيرة كان يضطلع موضوعياً ، على الصعيد الأيديولوجي ، بدور موظف عند الطبقة الحاكمة ، كان يحس بأنه من معدنها ، أو على الأقل كان يجهد لأجل ذلك ، وكان يعمل لصالح هذه الطبقة ، سواء عملياً ، على المستوى الاقتصادي ، بصفته « رئيساً صغيراً » قائماً بين الطبقة المسيطرة والطبقة المقهورة ، أم على المستوى الأيديولوجي ، بصفه ذلك الشطر من البورجوازية الصغيرة خادماً لمصالح السيطرة الاجتماعيّة - الاقتصادية : صغار التجار ، والاساتذة ، والموظفين ، والمستخدمين . ورداً على هذه الظاهرة ، صاغت المنظمات العمالية استراتيجيتها السياسية للصراع الطبقي . وقد ركزت جهودها على البروليتاريا « الحقيقية » ، وبصورة رئيسية ، على نواتها ، البروليتاريا الصناعية ، وكان عمل تلك المنظمات التحريضي والدعائي السياسي مركزاً بصورة رئيسية على موضوعة التناقض التناحري antagoniste بين الطبقة المسيطرة والبروليتاريا . ولدى قيام المنظمات العمالية بذلك ، فقد أهملت إهمالاً تاماً ، ودون انباه ، سواء في صياغتها نظريتها أم في ممارستها نضالها ، الشطر « الهاميد ، المتزاح » بالنسبة للطبقة الحاكمة : ذلك الشطر هو البورجوازية الصغيرة . وقد لزمّت المنظمات العمالية ، في نظريتها ، الصمت بصدد البورجوازية الصغيرة هذه ، أو أنها أدجمت ، دون وعي ، في الطبقة الحاكمة ، وذلك بالضبط لأن البورجوازية الصغيرة كانت تنتعّب وتفكر وتتكلم على غرار الطبقة الحاكمة ، وتلك المنظمات العمالية لم تأخذ في الحسبان ، في نشاطها النضالي ، النشاط التحريضي والدعائي داخل البورجوازية الصغيرة ، أو أنها أجلت ذلك النشاط إلى «مرحلة لاحقة » يمكن أن لا تحمل إلا بعد أن تكون «البروليتاريا » قد قامت بالثورة .

لقد شكلت البورجوازية الصغيرة الألمانية الحزبان الرئيسي ، النفساني

والسياسي ، للقاعدة الجماهيرية للفاشية . كانت ذلك يعود ، في شطر منه على الأقل ، إلى عجز الحركة العمالية عن التقاط العناصر المعادية للرأسمالية ، لدى البورجوازية الصغيرة ، ومنحها توجيهاً ثورياً . في عام ١٩٣٠ ، كتب أرنست بلوخ في كتابه «تراث زماننا» يقول : « إن الماركسيين المتبدلين يهلون البدائي والطوباوي ، أما القوميون ، من جهتهم ، فيتعاملون معها ويتصرفون بهما ، وسيأتي آخرون يتصرفون بهما أيضاً » . وكان ا. بلوخ يأخذ على الشيوعيين أنهم « تخلوا عن البورجوازية الصغيرة للرجعية ، دون كفاح » . وبعد الفاشية ، ظهر مجدداً الارتباك السياسي القديم في صفوف الحركة العمالية : كان ثمة تساؤل عن الذي ينتسب فعلياً إلى البورجوازية الصغيرة ؛ وأي شيء مشترك يجمعها بالبروليتاريا ، وهل يجب مكافحة البورجوازية الصغيرة كما يحري الكفاح ضد الطبقة الحاكمة ، بما أن الأولى تمثل موضوعياً مصالح هذه الطبقة ، الخ؟ وخلال فترة إعادة وترميم الرأسمالية الألمانية ، مع ظهور الجمهورية الاتحادية الألمانية ، قامت الطبقة العاملة بحل هذه المسألة ، بالنيابة عن جميع الفئات والطبقات الاجتماعية ، وذلك على النحو التالي : لن تعود ثمة طبقات إطلاقاً ، ومن باب أولى ، لن يبقى أي فرق بين البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا ، نظراً لأن هاتين الفئتين « اندجتا في طبقة وسطى واسعة موحدة » . وتطابق هذا « الفرمان » الأيديولوجي عمليات تمثل ومفاهيم اجتماعية متعددة : وهكذا نجد ، في النظرية السياسية والسوسيولوجية ، الفئات الاجتماعية التي ينبغي تعريفها بصورة قاطعة ، ففي الأيديولوجية الحكومية ، الشعب هو « الشطر الحر » من ألمانيا . وفي النقابات ، والحزب الاشتراكي - الديمقراطي نجد « معطي العمل ، (بدلاً من أرباب العمل) وأخذني العمل (بدلاً من « العمال الأجراء ») وفي ال Kpd والحزب الشيوعي ، نجد قبلية l'a priori الشغيلة ذوي النزعة السلمية ، والمعادين للاحتكارات ، يجابهون خواجات بون الذين يلتفتون حول شركات أبس وفليك . هذه العمليات تجد لها أساساً موضوعياً في انتقال الحواجز بين الطبقات وفي طمس وإخفاء التناقضات الطبقيّة . ولدى النظر إلى

الأمر شكلياً ، فإنه لا فرق تقريباً بين الاقرار بعملية تطور وتوسع الفئات الوسطى (كما يقول هيلمس ، مثلاً^(٣)) أو مثلما يقول أغلب الاشتراكيين الانتقائين ، وبين أن يجري الحديث عن « الطبقة العاملة الجديدة » تليحاً بذلك إلى « الشغيل (اليدوي ، والذهني أو الشغيل « ذي الياقة البيضاء ») « المقطوع عن متوجه » و « المدعو إلى بيع وقته » (اندره غورز^(٤)) أو أيضاً كما يفعل بعض ذوي الجمود العقائدي حيث تجري المائلة بين العمال والمستخدمين والطبقة العاملة (مع تركهم لهذا المفهوم تعريفه التاريخي المتناقض) وذلك فقط على أساس « علاقات الانتاج المشتركة فيما بينهم » (هـ ستاينر^(٥)) . إن مختلف تميزات وتصنيفات مفهوم الطبقة ان تصبح تأكيدات ذات أساس وطيد إلا حينما تستطيع أن توضح لأي غرض أنشئت فعلاً ، وإلا بعد فهم ما تعانیه هذه الطبقة المعهورة ، وماذا تخلق ، وماذا تفهم ، وماذا يفوتها : وما إذا كانت تناضل ، وضد من تناضل لمحاولة إزالة آلامها ، وامتلاك انتاجها هي ذاتها ، ولكي تفهم ما ليس مفترضاً فيها أن تفهمه . إن الردود على هذه الأسئلة هي وحدها التي تستطيع أن تعطي محتوى واقعياً لمفهوم الطبقة . ولا شك في أن كورت ستاينهوس على حين يكتب قائلاً في مقدمة كتابه : « إن وجود عدو طبقي مشترك يوجد وحدة مصلحة ، وهذه الوحدة توجد بصرف النظر عما إذا كان معترفاً بها بصورة عامة أم لا^(٦) » . لكن هذه القضية النظرية تبقى حقيقة منعزلة وبجردة ، إذ لم تكن الهوية الموضوعية مرفقة بتضامن بين

H· G Helms, Die idelogie der anonymen Gescllschaft, Kohn (٣)
1956, p 53 s.

(٤) اندره غورز - الاستراتيجية العالمية ، والاستعمار الجديد ، منشورات

١٩٦٤ ص ٦٩ .

(٥) هيلموت ستاينر - in modernen - Soziale strukturveränderungen —
Kapitalismus, Berlin 1967, p 339

(٦) كورت ستاينهوس، Zur theorie des internationalen Klassenkampfes,
Proleme sozialistische politik, tome 5, Franfort 1067, p 8.

الأشخاص ، على نفس الدرجة من الموضوعية ، لكن هذا التضامن لن يبرز إلا من صراع الطبقات .

كان جيل الحركة العمالية السابق يستطيع أن يصوغ في نضاله كل يوم شعار « انزعوا ملكية نازعي الملكية ! » وليس من قبيل المصادفة أنه ما من طبقة من طبقات البلدان الرأسمالية المتقدمة ، ولا جماعة اجتماعية تمثل السكان الأجرام في الجمهورية الاتحادية الألمانية تضع اليوم هذا المطلب . وحتى في إيطاليا ذاتها ، هذا البلد الذي كثيراً ما يحجى الاستشهاد به على اعتبار أن الحركة العمالية القديمة فيه قد نجحت بالبقاء على قيد الحياة هناك ، فإن المثقفين والشبيبة هم قبل سوام الذين يتظاهرون ضد الحرب في فيتنام . والحال ، فإن هؤلاء ، حسب منشأهم الاجتماعي ، لا يمكن تصنيفهم تحت مفهوم الطبقة العاملة التقليدية . والحال ، فإن مثقفي وطلبة وقتيان جميع البلدان ، الذين يعملون اليوم ، إلى حد ما ، باسم الطبقة المقهوره ، والتي لم تتحقق هويتها في الممارسة العملية ، لا يستطيعون بسبب وضعهم الخاص ، أن ينادوا بشعار « انزعوا ملكية نازعي الملكية ! » إلا في شكل « انزعوا ملكية سبرنجر » ، أي مع الاحتفاظ بمسافة فكرية . لا وإلا يكونون مضطرين حينئذ لصياغة ذلك الشعار بصورة أكثر عمومية ، كما في قرار الاتحاد الاشتراكي للطلبة الالمان S. D. S : حطموا حكم التلاعبين بالتجارة ومزوري الانتخابات (٧) !

والواقع أن الانتقال من النضال ضد الاستثمار الاقتصادي المباشر إلى النضال ضد التلاعب بالرأي العام ، هو التعبير عن تغيير موضوعي في بنية السيطرة الرأسمالية . وهذا لا يعني أن التلاعب بالرأي العام قد حل محل الاستثمار .

إلا أن تزييف الحاجات ، وكذلك تقديم عمليات تلبية وهمية ، في الاستهلاك ،

(٧) قرار المؤتمر الثاني والمشرين لمندوبي الاتحاد الاشتراكي للطلبة الالمان (SDS) فرانكفورت : أيلول ١٩٦٧ ، صدر في New Kritik العدد ٩٤ - ص ٣٤

والاتصال ، والحياة الجنسية ، تثبت أن الاستثمار لم يعد يتجسد فقط بمثابة اعتصار جسدي فيزيائي مباشر ، وأنه لم يعد يعمل وحده : بل بالعكس ، فإنه يلزمه جهاز جبار من الحاجات الممكن تزييفها والتلاعب بها والممكن تكييفها مجدداً ومجدداً بحيث يخضع الفرد لأغراض اجتماعية محالية . إن تَبَنُّنَ la structuration الاستثمار نفسه قد تغير . كانت العلاقة الكلاسيكية هي التالية : التقليل إلى أدنى حد من الحاجات الأولية (الغذاء ، الملابس ، الحياة الجنسية) ومن الحاجات الثانوية (متع أوقات الفراغ ، الرياضة ، الخ) وتجاه ذلك إرادة في دفع الاستثمار إلى حده الأقصى (أجر منخفض ، إطالة يوم العمل ، زيادة وقيرات العمل ، تشغيل النساء والأولاد ، قليل من الأفضليات الاجتماعية ، أو عدم إعطاء هذه الأفضليات أصلاً) . أما اليوم فالعلاقة هي التالية : بواسطة المناورة ، زيادة الحاجات الملائمة للنظام ، إلغاء التمييز بين الحاجات الأولية والحاجات الثانوية ، وعن ذلك الطريق نفسه ، دفع الاستثمار إلى حده الأقصى (٨)

قبل الفاشية ، كانت البروليتاريا (وبصورة رئيسية البروليتاريا الصناعية) ، وذلك بسبب موقعها في عملية الانتاج ، تبدو أنها متهيئة للاعتراف ذاتياً ، بالنسبة لمجمل المجتمع ، باستثمار المجتمع الرأسمالي ، وأن تعي ذلك وتنتشر حولها ذلك الوعي موضوعياً في الصراع الطبقي ، وإلغاء ذلك الاستثمار بالثورة ، باسم مجمل المجتمع ؛ ولكن ينبغي حالياً ، في عملية التطور الراهنة ، وتبعاً لتعدد الاستثمار على نحو أكبر ، وطمس الحدود ما بين الطبقات ، فإنه ينبغي استخدام عنصر جديد . هذا العنصر عليه أن يسمح بالإجابة على السؤال التالي : من هي الطبقة المناضلة ؟ وحتى أولئك الذين يفخرون ، عادة ، برغبتهم في

(٨) راجع أ. غورز - المرجع المذكور - ص ٦٨ « طبقاً لتوقع ماركس ، فقد وجد الرأسمال الاحتكاري نفسه أمام مشكلة تكييف الأشخاص للأشياء الواجب تصريفها ، وليس تضيق العرض على الطلب ، بل الطلب على العرض ».

الاحتفاظ بمفهوم الطبقة العاملة، حتى أولئك يجيبون بالضرورة وبالأحرى بصورة ملتبسة غامضة أكثر منها ملهوسة جلية . إن ستاينهوس يمطي في خاتمة كتابه الجواب التالي : « تجري في هذه اللحظة في جميع البلدان الرأسمالية عملية تسييس للفئات الاجتماعية التي تضم على الأخص المثقفين والفتيان وهي عملية تسييس تنتج بصورة رئيسية عن تفهمهم ، المباشر إلى هذا الحد أو ذاك ، لبربرية الثورة المضادة الاستعمارية » (٩) هذا التقدير صحيح بالتأكيد ؛ بيد أن هذه الفئات الاجتماعية المسيسة على هذا النحو لا تشكل طبقة . ولا يتعلق الأمر بالمطالبة بأن تكون نواة الطبقة المناضلة دائماً داخل البروليتاريا الصناعية . ولن يكون هذا المطلب دوغمائياً (متحجراً عقائدياً) ومجرداً وحسب ، بل سيكون خاطئاً في صياغته الحصرية ، إذا ما أخذ في الحسبان تجربة الثورتين الصينية والكوبية ، وملاحظة النضال الثوري الفيتنامي . إن المثقفين والفتيان المعارضين هم اليوم ، موضوعياً ، طليعة الطبقة المقهورة ، وذلك بمقدار ما هم يعملون باسم هذه الطبقة . لكن هذه الطليعة تعارض بمجمل هذه الطبقة المسيطر عليها (المسودة بالتزيف والمناورة والتكليف) . وعلى تلك الطليعة أن تناضل اليوم ضد وعي طبقي مشوه ، أي التخلف النفساني والذهني لهذه الطبقة في مجملها .

وحسب نظرية لينين ، فإن الطليعة والجمهور متضامنان بالنسبة لمصالحهما الطبقيّة المشتركة ؛ لكنهما تميزان نسبياً في كيفية الدفاع عن هذه المصالح . هذا التمييز النسبي يتجه ، بصورة لا مرد لها ، ليصبح تميزاً مطلقاً . إن التطور التاريخي من الاستثمار المباشر ، إلى الاستثمار المكيف والمناور والمغلف ، يستلزم أن لا تعود سيطرة « المستثمر » ظاهرة للعيان بصورة مباشرة ، وشخصية ، وأنه لم يعد في الإمكان فهمها بالمعنى الموروث عن السيطرة الاقطاعية . إن السيطرة اليوم تتجسد حسيّاً بصورة غير شخصية بالمرّة ، وذلك في بربرية

(٩) ستاينهوس ، المرجع المذكور ، ص ١٠١

الوضع الذي يتيح أن يُقتل من أعلى متن طائرة ، دون تمييز ، جماعات كاملة من السكان ، دون أن تكون ثمة أدنى صلة مع العدو . كذلك تتجسد تلك السيطرة ، على نحو غير شخصي أيضاً في التلبينات الوممية للحاجات والمتع ، الظاهرية والواقعية ، الممنوحة للطبقة المقهورة ، إن الجماعات - المثقفين بصورة رئيسية - الذين يناهضون اليوم الشكل الراهن للاستثمار ، يناهضون كذلك منظومة التلبينات المزيفة للمتغ والحاجات ، مناهضتهم للحريات المزيفة ، التي لا تميّز الطبقة المسودة ، الممنوحة لها هذه الأمور ، طابعها الوممي . إن أوّل رد فعل للطبقة المقهورة ، على عمليات الاحتجاج ، هو رفض لحركة المعارضة ، السياسية ، حتى حين تبدأ هذه في أن تدرك حسيّاً وواقعياً النزاع الاقتصادي (١٠) .

أن تكون معزولة عن كل الطبقة المسيطر عليها ، هو اليوم عنصر تكويني لكل حركة رفض جذرية . ولذلك السبب ذاته فإن لكل نجاحات هذه الحركات طابعاً مزدوجاً . وإذا كان يمكن أن تعود هذه العزلة إلى ضعف البرنامج السياسي لـ « طليعة » ، فهي لا تعود ، بأي حال من الأحوال ، إلى الأخطاء التكتيكية وحدها . لا شك في أن هذه الأخطاء كثيرة جداً ، ويحري إيرادها وسردها ، عادة في الوقت نفسه مع كلام المتراضين ، غير المفهوم ، وطريقة لباسهم ، وسلوكهم الاستفزازي . بيد أن هذه التظاهرات هي في الوقت نفسه شرط

(١٠) عند بلوغ اضراب صناعة المطاط في مقاطعة هيس ذروته ، في أواخر خريف ١٩٦٧ ، دعت نقابات الكيماويات والتمدين إل تظاهرة في ساحة دار بلدية فرانكفورت . وكانت اليانطات التي أعدها أعضاء النقابات ، والتي كان يمكن التعرف إليها من حروفها المطبوعة بواسطة القوالب الجماهزة ، كانت هذه اليانطات تقتصر على مطالب بزيادة الأجور . وإحدى اليانطات النادرة التي كان قد أعدها عمال ، بصورة عفوية ، كانت تحمل العبارة التالية : « هدوء وكرامة - عاش نضال العمال ا » (ملاحظة من المترجمين الفرنسيين : ها كم الترجمة الحرفية للشعار الألماني : نحن متمدنون ، ولسنا قطيعاً من المتوحشين ، وليس في نضالنا ما يسبب الحجل !) كان ذلك ، ولا شك ، يتعلق بالغيان الطلابي في ذلك العهد ، الذي يخص الإصلاحات الجامعية ، وعلى الأخص ، جهود طلبة فرانكفورت (ASTA . GAG . S D S) للتضامن مع العمال المضربين .

ضروري لتَشكُّل وتَمَفُّصُ جماعات من الحركة المضادة للسلطة (« طليعة » ، ذلك لأن هؤلاء ، بكلامهم « غير المفهوم » ، وهندامهم « المنفر » ، وحياتهم « المضطربة » ، يناقضون ، بادية بدء ، التكيف البليد ، والترتيف ، والقمع السائدة في المجتمع الاضطهادي ؛ وعبر حركة التمرد هذه فقط يستطيعون إدراك ظاهرة الاستثار والنضال ضد شروطه .

وفي الوقت نفسه فإن هذه الفئات الاجتماعية من الفتيانَ والمثقفين لا تستطيع أن تنكر انتماءها إلى الفئات الوسطى ، التي هي بورجوازية صغيرة قبل كل شيء . صحيح أن الإيديولوجية التقليدية ، التي بدونها ما كان للفئات الوسطى أن تشكل أبداً وحدة البورجوازية الصغيرة ، أخذت تتفتت أكثر فأكثر خلال السنوات الأخيرة ، وهي لم يبق منها سوى بقايا حطام غير متلاحمة . إلا أن بقايا الحطام هذه ، مع كونها غير متلاحمة ، فهي ذات تأثير . فهي تقمع كيفية تعبير هذه الجماعات عن مطالبها ، ونجد فيها مجدداً رواسب ومخلفات الشروط العميقة ، التي تكافحها هذه الجماعات ، على وجه التحديد . ونجد بين هذه الرواسب بصورة أساسية التظاهرات « ضد » ، أي النفي البعث للسلوك البورجوازي الصغير ، ولنمط « ميثمة البورجوازية الصغيرة » ، ومنتجاتها الثقافية ؛ وهي نفي مجرد إلى حد أن القصد التحرري فيه يغدو غامضاً ، لا يستبين . إن عمليات النفي هذه ، السلبية ولكن المجردة تميز عدداً كبيراً من الآراء التي تريد نفسها ثورية ، لكنها في الواقع لا تدمر سوى على المستوى النظري - وبصورة سيئة على كل حال - ما تريد تدميره . فهي تبرز مثلاً في مطلب رفع الحظر عن الزنا والحيانة الزوجية ، ومطلب تبادل الشركاء والشريكات في العملية الجنسية داخل الجماعة ، على غرار مطالب جماعة « أنشلاغ » (البرنامج المؤقت) الميونخية القديمة ، أو فرض إلغاء الإخلاص والحب البورجوازيين ، هذا الإلغاء الذي جربته « كومونة برلين رقم واحد » ، وتجسد في حياة الواقع العملي باخفاق تام ، إن الشطر من الطبقة المسيطر عليها ، المنبثق بصورة رئيسية من البروليتاريا ،

ينبذ ، بدافع الطبع والجبلة ، هذه الأشكال من التخطي الذاتي للتكليف
الرأسمالي والتزيف والتميع ، والسيطرة الطبقيّة ، - ويشير أفراد ذلك
الشرط بامتياز إلى « القذارة » و « الفوضى » والشعور الطويلة ، والممارسات
الجنسية المشبوهة لـ « مشاغين اليساريين » - . والحال ، فإن عملية التنبذ
هذه ، مع أنها قد اتخذت صورة غيرت وطمست معالمها الأولى ، إنما تم عن
بقية من تمرد الطبقات الدنيا ضد سلوك أولاد الذوات المدللين المتأثنين . وقد
أبرز ب. بروكner هذه السمة : « رغم أن القمع الجنسي لا يتوقف مطلقاً عند
باب الجامعة ، فإن وجوهاً معينة من وضع عمال الصناعة تنعكس بصورة واضحة
جداً في الحالة الموضوعية للمساعدة والمعلمين - المساعدين ، من حيث أنهم
مفصولون عن وسائل إنتاجهم ، التي يتصرف بها أرباب المعاهد ، من جهتهم ،
بكل استقلال وحرية ؛ وبديهي تماماً ، أن الطلبة والمساعدين ما يزالون يعيشون
عيشة أبناء كبار البورجوازيين . وحق لو كانوا يعانون - أي الطلبة والمساعدون -
صعوبات مالية ، فإنهم يتمتعون بامتيازات هامة ، ^(١١) . هذا المعطى يفعل
بصفته عاملاً إضافياً ، محدداً موضوعياً - إذن لا يمكن التغلب عليه ، حالياً -
لعزلة جماعات الرفض . وإنما في كيفية احتجاجهم ضد كل شكل من أشكال
السيطرة اللاعقلانية ، تقوم هذه الجماعات بإثبات امتيازات السيطرة أمام أعين
جميع أولئك الذين من أجلهم ومعهم تريد تلك الجماعات إلغاء هذه السيطرة إن
تعبير « الجماهير الكادحة » ، الذي يأخذ على الطلبة أن لديهم (الوقت لاجتماع
الضجيج) ، يلخص الهيجان والغضب الشديد العاجز لدى الطبقة المسيطر عليها ،
والتي تناضل من الجانب السيء - أي ضد شطر من طبقتها هي ذاتها - بدلاً من
النضال ضد الطبقة التي يضطر الشعب كله من أجلها لتنفيذ أشد الأعمال مشقة
وأكثرها تفاعمة .

(١١) بيتر بروكner In Agnoli - Brückner, Die transformation der Demokratie, Berlin, 1967, p, 128 .

وليس فقط تزايد كمي لعدد جماعات الراضين هو الذي سوف يستطيع أن يتغلب على هذه العزلة (وربما على أساس المخطط التبسيطي الساذج بعض الشيء والذي ينادي : « الفتيان يصبحون هيبين أكثر فأكثر ، إلى أن يأتي يوم يصبحون فيه من الكثرة بحيث يلحقون ضرراً جدياً بالنظام ، ذلك لأنهم لا يستهلكون) ، ولا حتى المطلب الراهن ، والوطيد الأسس أكثر من أي وقت مضى ، وهو المطالب بوحدة الشفيلة - والطلبة ، أو بشيء مماثل . هذا الانفصال بين الشفيلة والطلبة ، هو ، بالضبط ، إحدى نتائج مجتمع التكيف والتزييف والتميع (الشكل العصري للاستثمار) . ومن هنا ، عدم فعالية جميع الاستراتيجيات السياسية التي تهدف إلى إثارة اهتمام الطلبة بقضايا العمال ووضعهم - وذلك ما يفعله منذ أعوام الطلبة المسيون - أو كسب أو إيقاظ اهتمام الشفيل بدوافع الرفض الطلابي - وذلك ما يفعله نفس هؤلاء الطلبة المسيون ، منذ بعض الحين ، دون نجاح كبير . إن وجهي هذا المطلب لا يمكنها الاستغناء عن عنصر مجرد وخلقي الدافع ، هو في الواقع عنصر مكون لكل شكل من أشكال التحريك والتحرير ، وكل برنامج عمل ، بما في ذلك من يسمون أنفسهم بـ « التقليديين » ، سواء أكانوا شيوعيين (K P D) ، أم تروتسكيين ، أم اشتراكيين يساريين من طراز « المعارضة الاشتراكية » (١٢) .

يمكن أن نلخص ، بصورة تبسيطية ، حظوظ انتصار نضال الطبقة المسيطر عليها ، بكاملها ، على النحو التالي :

(١٢) راجع مقالات رايموت رايش وبيتر غانغ في صحيفة النقد الجديد New Kritik العدد ٤١ - والمراجع التالية « Sozialistische Politik » in loc - cit numeros 42 - 43 et Heide Bendit in loc. cit no. 45 ;

Information der Soziclistsche

وكذلك راجع

oposition, Francfort numeros 1, 2, 3.

إن حظوظ بقاء النظام الأمبريالي العالمي على قيد الحياة يجب أن تتلف وقتهار - وذلك باستخدام العنف الذي يولده هذا النظام نفسه ، وبالآزمات الاقتصادية غير المنازع في وجودها ، والتي تنتج عن هذا النظام - وذلك بصورة أسرع مما يستطيع هذا النظام تعويض هذا التلف والانهيار بتحصين ، في آن واحد ، لاستيعاب الفرد في هذا النظام وإدماجه التكييفي المزيف والمُصمِع . لقد حاول كورت شتاينهوس أن يصوغ ، بصورة تجريبية « النتائج الاجتماعية - الاقتصادية لتصعيد عالمي للعنف ، وانمكساته في مجمل الدول الأمبريالية . وفي رأي شتاينهوس ، « أن هذه النتائج الاجتماعية - الاقتصادية لا تظهر الآن إلا تحت مظهر « كمون الآزمات الملازمة للنظام الاجتماعي الرأسمالي ، (١٣) . إن كل « إتلاف وانهار ، يجري تعطيله وتجميده حتى اليوم بنظام التكييف وتزييف الوعي ، والتمسيع . ولا يمكن بعد أن نقيم بدقة انمكاس مضاعفة البربرية الاستعمارية الجديدة ، هذه البربرية التي لا يمكن تصديقها ، لفرط فظاعتها ، التي تتجسد في أفظع حروب الإبادة ، انمكاسها على الشروط الاجتماعية - النفسية داخل الأمم الأمبريالية . إن نجاحات الإرهاب المتعاطمة تنهض اليوم ضد التسييس والتحذير الشاملين للشبيبة والمثقفين . ولا شك إطلاقاً في أن الإرهاب المستور المتضمن في الطلبات المشددة لشراء المواد الدعائية البورجوازية الرأسمالية سوف تحمل محله طرائق إرهاب مكشوفة أكثر . لكن هذه الطرائق لن تُدرك جيداً بصفحتها طرائق إرهابية ، لا سيما وأن الدعاية نفسها هي التي تمهد لها الطريق .

ولن يجري وضع الخطى التي ستتيح لجماعات الرفض ، المنعزلة ، بالضرورة اليوم ، أن تظطلع واقعياً بدورها الطليعي داخل الطبقة المسيطر عليها ، لا على هامشها ، ولا عوضاً عنها ، إلا حين ستنقض الآزمات الاقتصادية فعلياً وبسرعة

(١٣) شتاينهوس ؛ المرجع المذكور - ص ١٠١ وما يليها .

على نظام التكيف والتكيف والتميع الرأسمالي . ومن جهة أخرى ، فإن المظاهر السرية لنخبة حركة الرافض الراهنة ، ستفقد في تلك اللحظة ، مبرر وجودها ، وذلك بالضبط لأن هذه الحركة المعادية للرأسمالية الأكثر تطوراً ، ستكون تحت الرقابة الفعلية لمجمل الطبقة المسيطر عليها ، وذلك لأن هذه الطبقة ستعمل داخل الحركة الراقصة ، وجنباً إلى جنب معها ، ولن يعود الأمر ، كما هو اليوم ، ضدها .

إدماج كل ميدان الحياة الجنسية في النظام الرأسمالي المسيطر ، وحصر النشاط الجنسي في جعله مجرد سلعة ، وإعطائه وظيفة شيء ، غرض استهلاكي ، وتجريد الجسد من صفاته الشهوانية الوجدانية ، إعطاء صفة جنسية ، ظاهرية ، للعلاقات الانسانية ، وكذلك لعلاقات الناس بإننتاجهم ، كبح الدوافع والفراغ الجنسية وحرفها في الوقت نفسه نحو عدوانية موجهة - إن جميع هذه الوجوه للتكيف الرأسمالي للجنس هي ، جميعاً ، أشكال مجسدة مادياً للاستثمار الاقتصادي الراهن . إن جميع هذه المظاهر ، المترابطة بعضها ببعض ترابطاً وثيقاً ، ليست سوى أحد مظاهر الشكل الراهن للاستثمار . لذلك ، فما من « استراتيجية جزئية » ، ولا « استراتيجية جنسية صراحة » ، بمقدورها مجابهة هذا الاستثمار على قدم المساواة . هذه « الاستراتيجية الجنسية » ، لن تجد مكانها إلا في المجمل المتلاحم للنضال السياسي المعادي للرأسمالية ، هذا النضال الدفاعي والهجومى ، الذي لا يمكن إضافتها إليه بصورة مصطنعة ، ولكن ينبغي لها أن تنصهر فيه .

تغير وظيفة القمع الجنسي في النظام الرأسمالي

يبدو أحياناً ، بفضل الدراسات الاتنولوجية الواسعة جداً بصدده هذا الموضوع ، أننا نعرف بصورة أفضل التنظيم الجنسي للحضارات البدائية السكونية ، أكثر من معرفتنا تنظيمنا الجنسي الراهن . ومؤكد أنه يروى لنا عددٌ لامتناهٍ من الحكايات والقصص ، والحوادث ، والنوادر الماجنة على الأخص منذ عهد المركنتيلية ، ونظام الحكم المطلق . ولكن هذه المادة - وذلك واقع ذو مدلول بالنسبة للسكان المخصص لوظيفة الحياة الجنسية في النظام الرأسمالي - لا تعتبر مستحسنة ، ولا جديرة بدراسات تاريخية جدية . وهكذا فإن المؤلفات المخصصة لهذا الموضوع قدر لها أن تكون بالضرورة ، ملأى بالهجون والخلاعة ، امتلاءها بالغموض ، على نحو ما كان يرى موضوعها . وحتى المؤلفات الحديثة ، التي وضعت مؤخراً ، التي تقدم لنا على أنها أعمال أساسية ، تشهد هي أيضاً بتغافل عن الموضوع الذي تعالجه . أما المؤرخون الذين نظروا إلى عملهم نظرة جدية ^(١) لم يكن لديهم طرق أخرى للخيار سوى أن يتيهوا دون تمييز في مختلف

(١) لا يتعلق الأمر بمئات القصص حول العلاقات الجنسية ، من طراز كتاب (Quelle der Erotik) - « مصادر المثنق الجنسي » ذي الموضوع شبه المعروم ، وبسبب ذلك فالكتاب تجاري ناضج ، وقد لقي رواجاً لا بأس به .

أنواع القصص والحوادث الانتقائية^(١) ، أو التثبيت بتصاميم هيكلية تصعب الإفادة منها أو استخدامها ، لكنها على الأقل غير موحدة النمط آلياً وقبلياً (سبقاً للتجربة) . إن كتاب المادية التاريخية الكلاسيكيين ، باستثناء طريقتهم ومؤلفه أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة ، يعطوننا قليلاً من الإيضاحات في هذا الميدان . إن الاتباع الجامدين عقائدياً ، الذين ينسبون أنفسهم إلى الماركسية - اللينينية ، لم يرغبوا حتى الآن أن يعطونا المزيد ، في الموضوع المشار إليه . بل إنهم جهدوا ليستبعدوا من صفوفهم كل « مجدد »^(٢) وإغفال ذكر هؤلاء في كتبهم - أي كتب الأتباع الجامدين عقائدياً - التاريخية وفي مباحثهم في علم وفن التاريخ^(٣) L'historiographie .

إن تكيف التنظيم الاجتماعي ، الطبائعي والنفساني للفرد ، هذا التكيف الذي يخضع له هذا الشخص خضوع عبودية ، قد أوضح بجلاء حتى الآن بأكثر ما يكون من الحدة والعمق بواسطة علم يستمد نتائجه ، على حد سواء من

(١) راجع موروس Ro Ro Morus, Eine weltgeschichte der sexualitat, Ro Ro 777 - 779 Hambourg, 1966.

(٢) لقد قدم التبرير التالي لاستبعاد ويلهلم رايش من « الحزب الشيوعي الألماني » : انك تنطلق من الاستهلاك ، أما نحن ، فعلى العكس فنطلق من الانتاج ، وبالتالي ، فانت لست ماركسياً : وعلى كل حال ، فإن بيك هو الذي تلفظ بهذه الفظاعة عام ١٩٣٢ أثناء نقاش مع ممثلين لـ « سيكسبول » . انظر رايش ، was ist klassenbewusstsein ص ٥٨ - وقبل ذلك ببضع سنوات ، لقي نفس المصير تقريباً العالم والرئيس الشيوعي أوتر روهل .

(٣) إن حركة الـ « سيكسبول » لم تذكر في المؤلف التاريخي الجامع :

Geschichte der deutschen Arbeiterbevvegung,

هذا المؤلف الذي أصدره معهد الدراسات الماركسية اللينينية لدى اللجنة المركزية لحزب SED (ملاحظة من المترجم : SED هو الحزب الشيوعي في الجمهورية الديمقراطية الألمانية) - ومع ذلك فلم يتخذ هذا الموقف نفسه من جميع ذوي النزعة الانحرافية اليسارية .

تكوين الجسم البشري ، ومن قدرات وحدود جهازه النفسي ، وتحليل المؤسسات الثقافية التي يلتقي بها الإنسان . هذا العلم ، هو التحليل النفسي *Psychanalyse* . إن مقولات هذا العلم هي بذاتها ، مقولات اجتماعية ^(١) لكنها باديء بدء ، مرتبطة بالسياق أو الإطار *Conteste* الذي استمدت منه . هذا السياق أو الاطار هو ، عند فرويد ، الحضارة البورجوازية ؛ وهو لا يماثل بين هذه الحضارة وشكل التنظيم الرأسمالي ، الذي تطورت هذه الحضارة في ظل سيطرته ، قدر ما يضع هذه الحضارة مكانه ، عوضاً عنه . لكن هذا لا يعني أن تأثير التحليل النفسي يكف حيث يتعلق الأمر بتحديد أشكال الانتاج الاجتماعية بصفتها أساساً لحضارة ، في علاقاتها مع الوجوه النفسية والاجتماعية - النفسية الفردية والجماعية للسلوك البشري . بل بالعكس ، فإنه توجد ، أولاً ، طائفة كبيرة من مكتسبات الحضارة ، التي بوسعها تماماً أن تكون لها قاعدة اقتصادية ووظيفة اقتصادية اليوم - مثلاً كالحرم شبه المقدس *le tabou* المحاط به الزنا وممارسة العلاقات الجنسية خارج سرير الزوجية ، وطقس الزواج الأحادي *monogamie* ، وامتيازات الرجل الاجتماعية - لكن هذه المكتسبات الحضارية تقاوم بعناد حلول أشكال أخرى ، بل متناقضة ، للتنظيم الاجتماعي - الاقتصادي ؛ إلى حد ينتهي معه الأمر إلى اعتبارها بمثابة مكتسبات للحضارة ، تحدد بدورها ، خلال زمن طويل إلى حد ما ، أشكال التنظيم الاجتماعي المختلفة . ثانياً ، يمكن تعيين بعض مكتسبات الحضارة هذه مثل الكسب الناشئ نتيجة لعلم تكون الإنسان . وتطورها وعلم التوليد *phylogénétique* ودراسة تكون اللغة لدى الأطفال ، وهو علم نشأ في زمن متأخر تاريخياً وله علاقة وثيقة بالقدرة على التجريد ، والتفكير المنطقي والنشاط والفعل التفكيريين - هذه المكتسبات التي يمكن اعتبارها شرطاً

(١) راجع مربرت ماركو *Das verhalten der psychoanalyse kultur* und Gesellschaft, ١٩٦٥ - ص ٨٥ وما يليها .

مسبقاً لكل شكل عالٍ من التنظيم البشري ، ولكيفية دخول الناس في علاقات اقتصادية بعضهم مع بعض . ثالثاً ، يمكن أن نذكر ، بين أحدث مكتسبات الحضارة ، وعلى وجه التحديد مكتسبات الحضارة البورجوازية - مثلاً الاستقلال الذاتي ، المسؤولية ، الحب والاخلاص - هذه المكتسبات التي تكون ، في شكل أعلى ، من التنظيم الاجتماعي ، مثلاً ، في حضارة اشتراكية ، لا هافلة ، زائدة عن الحاجة ، ولا ينبغي إلغاؤها بصورة منهجية ودأب ، بل سوف تتطلب مجرد تحريرها من ضيق الوجود البورجوازي ، وفكها من إفسار الاغلال الاقتصادية للبادئ الرأسمالية ، التي لا تمنح تلك المكتسبات إلا لأقلية ذات امتيازات ، وكذلك بأشكال ضامرة هزيلة ، نوعياً .

إن مهمة التحليل النفسي الراهنة تبدأ بالضبط في الموضع الذي يحدده له اليوم أغلب العلماء البورجوازيين المختصين في هذا العلم والسياسيين الماركسيين^(١) وكأنا باتفاق مشترك ، حيث يحدودن إمكاناته - أي علم التحليل النفسي - المعرفية أو الإدراكية ses possibilités cognitives . أي حيث يبدأ تعيين العلاقة المثلثة الزوايا لشكل التنظيم الاجتماعي - الاقتصادي ، للتعبير والتوطيد الخاصين بحضارة معينة لهذا الشكل من التنظيم ، والكيفية الفردية بالتفاعل إزاء ذلك ، والرد عليه ، إما بالاندماج فيه ، وإما بتحويلها . وسوف نعالج في هذا الكتاب وجهاً واحداً من هذه العلاقة المثلثة الزوايا: المظاهر والتجليات

(١) يقدم لنا روبرت ستييجيروالد في هذا الصدد مثلاً نموذجاً ، بصورة خاصة على الجهل ، لدى نشر نقد موجه إلى هيربرت ماركوز ، نشر في مجلة Marxistische Blattern العدد ٦ - ١٩٦٧ ، ص ٣٣ وما يليها . وقد جاء في النقد المذكور : « ليست المسألة أن نجعل من الحب الجنسي والحضارة موضوعاً لنقاشنا . ومع ذلك ينبغي أن نقول كلمة صغيرة في هذا الصدد : ان نظريات فرويد ، نقطة انطلاق ماركوز ، هي ذات قاعدة تاريخية مزيفة ، وحضتها الأبحاث المتعلقة بما قبل التاريخ . والواقع ان هذه الأبحاث قد أكدت وجود أوضاع اجتماعية ، على مثال الأوضاع التي قام ماركس وانجلز بتعليلها ، ولكن لا وجود لحرفات فرويد التاريخية المزيفة » .

الفردية والاجتماعية للفريزة الجنسية : ما هو إسهام النشاط الجنسي في تكوين الفرد في مجتمعا ، وكيف يتفاعل الأفراد ، بدورهم ، مع التنظيم الاجتماعي وبأية كيفية يردون عليه ، وما هي الاندفاعات وإمكانات المتعة ، التي يجري كتبها أو التخلي عنها ، وبأية كيفية ، بدورها ، تنعكس هذه التخليات والتكيفات على التنظيم الاجتماعي .

التحليل النفسي ينطلق من مبدأ أن الفريزة الجنسية توجد منذ أول الطفولة الباكرة ، وتشارك بنشاط في التجليات الأولى لنشاط الولد ، كما تشارك في القدرات الأولى تماماً ، التي يملكها الطفل للتفاعل مع محيطه المباشر ، وضبط جسده ، وتحقيق التكوينات المسبقة لما سوف يسمى فيما بعد الوعي بـ « الأنا » وتجلياته واكتساباته . هذا المبدأ أثبت صحته منذ ذلك الحين ، وبعد ذلك ، تجريبياً ، وإن كان لم يجر حتى الآن بصورة كلية ، تعميق المسألة على الصعيدين العيادي Clinique ، والنفساني (المتعلق بعلم النفس) . ولا تجري ، في الطفولة الباكرة ، لا السيطرة على مظاهر الفريزة الجنسية ، ولا حتى الاحساس بها من جانب الطفل ، بصفتها توتراً جنسياً أو لذة جنسية . ويكون للفريزة الجنسية لدى الطفل في هذه السن وجود مستقل عن الطفل نفس استقلال مظاهر نشاطه الجسدية أو الانفعالية الأخرى . إن قدرة السيطرة على الفريزة الجنسية تكتسب ، تماماً مثلما يكتسب ضبط النشاط العضلي sphincter (القدرة على التنبق ما بين نشاطات العضلات ، وبخاصة ضبط الجهاز العضلي الحلقي musculature annulaire) : وابتداء من سن معينة ، فقط ، يغدو الطفل قادراً ، بيولوجياً ، على ممارسة هذه الضوابط الرقابية (مثلاً حركات الذراعين والساقين) ، إلا أن البناء الفوقي la superstructure - لدى الاندراج في حياة المجتمع - حيث يجري تنشيط هذه القدرات ونقلها ، يمنحها ، أي البناء الفوقي ، في الوقت نفسه ، شكلاً نوعياً خاصاً بالحضارة المعنية التي يعيش ضمنها الفرد المعني . إن القدرة على ضبط الوظائف المرشحة للاستبعاد

والإغناء يمكن أن توضح لنا المقصود بذلك القول ، فابتداء من سن معينة - يمكن أن تختلف تبعاً للحالات - يصبح الطفل قادراً ، بيولوجياً ، على ضبط مجموعة عضلاته الحلقية . وبالتالي ، فابتداء من هذه السن ، فقط ، يمكن أن يرسخ في عقل الطفل ووجدانه ونفسه ، بصورة منطقية جيدة ، احترام إرشادات الترتيب ، والنظام ، والنظافة ، والدقة والانتظام *la ponctualité* ، وحاجز الاشتمزاز ، وكلها عناصر حضارة معينة . ولكن أية من هذه يجري إبرازها بصورة خاصة ، أو يجري إهمالها كلياً (مثلاً ، حاجز الاشتمزاز) كيف يجري ترسيخها لدى الطفل ، - أبصورة قسرية ، جداً ، أم قليلاً ، أم غير قسرية بالمرّة - هذا كله يتوقف على الشروط الاجتماعية - الاقتصادية ، والمفهوم الذي لدى هذه الحضارة عن ذاتها . وإذا أخذنا في الحساب ، لدى تفحص هذه الظاهرة ، واقع أن المنطقة الشرجية هي منطقة مولدة للإثارة الجنسية بصورة مميزة ، ومصدر للذة الجنسية ، وان هذه الظاهرة هي أيضاً جنسية ، تبرز بوضوح نقطتان لأجل دراسة القضايا في هذا الفصل من كتابنا :

(١) انه لا يمكن توجيهه ولا ضبط الفرائز الجنسية ، بصورة اعتباطية ، تحكيمية ، بل ان كل توجيه وكل عملية ضبط انما ينتجان عن قاعدة بيولوجية ، ويطيعان قوانين ، رغم أنها غير بيولوجية ، إلا أنها لا تستطيع أن تنتهك ، دون عقاب ، هذه القاعدة . وإذا كانت الغريزة الجنسية ، تماماً شأن الحاجة الى الغذاء هي غريزة جنسية فطرية ، أصيلة ، فانه لا يمكن إلغاء النشاط الجنسي إلغاء تاماً ، كما أنه لا يمكن إلغاء الجوع . الغريزة الجنسية ، شأن الجوع ، يمكن أن تخففي كلياً ، خلال وقت معين . - بعد الشبع - كما يمكن ، من جهة اخرى ، للغريزة الجنسية ، خلافاً للجوع : (أ) ان تضطر لتأجيل التلبية والإرضاء المباشرين لهذه الغريزة الجنسية طول زمن غير محدد . (ب) « تلبية الغريزة الجنسية وإرضائها » عن طريق الأنماط الخاصة بحضارة معينة ، لا يجري إدراكها بصورة حسية ، خارجياً ، بصفقتها وسائل لاشباع الفرائز الجنسية . إن

عملية التطور القائمة في أساس هذه الآلية ، والتي تحول الغريزة الجنسية عن هدفها الأول ، تتجدد في عمليتين مختلفتين : عملية كبت ، وعملية تسام أو إعلاء sublimation (وسنوضح هاتين العمليتين في صفحات تالية) .

(٢) وبموجب هذه الصفات - المرتكزة على معطيات بيولوجية - تظلم الغريزة الجنسية بنقل قابلية تكيف الفرد مع المجتمع المحيط به ، وحمل مكتسبات هذا الفرد ، إلى صعيد التمدن . وتقتوى الغريزة الجنسية فعلياً هذه الوظيفة في كل المجتمعات البشرية المعروفة . وانما بممارسة الغريزة الجنسية هذه الوظيفة ، تتطور بصورة ثابتة ، طويلة الأمد .

لقد اكتشف التحليل النفسي أن الفرد يحتاز ، خلال نموه وتطوره الجسديين في طفولته عدة مراحل ، خاضعة لسيطرة مناطق مولدة للشهوة الجنسية ، محددة بالضبط ، وهذه المناطق تطيع وظائف معينة من اللذة - والازعاج (الكدر ، اللالذة) . ونستعمل هنا تعبير « اكتشاف » لأن هذه المراحل ليست فقط صياغات خاصة بعلم التحليل النفسي ، يمكن عند الاقتضاء استخدامها سوسيوولوجياً (في ميدان علم الاجتماع sociologiquement) - وهذا ما يحدث على كل حال - بل أيضاً لأن الطفل يحتازها واقعياً . هذه المراحل هي ، التالية ، على التوالي : المرحلة الغموية ، فالشرجية ، فالقضيبيية (نسبة إلى القضيب ، عضو الذكر) ، وهذه المرحلة الأخيرة ، تجتد نهايتها ، في الحضارات الأبوية patriarcales المتعدنة ، تجتد نهايتها في مركب أوديب ، هذا المركب الذي إذا جرى حله بصورة صحيحة ، يؤدي إلى فتره من كمون الشهوة الجنسية ، طويلة إلى هذا الحد أو ذاك ، يتقيد بها الفلام بصورة تامة ، إلى هذا الحد أو ذاك ، يخفف خلالها رأي فتره الكمون تلك - السلوك الجنسي الصريح ويكبح زخمه مؤقتاً ، وأخيراً تعقب هذه الفتره فتره النضج الجنسي - الثاني - .

إن خاصية المرحلة الفموية هي واقع أن الطفل يقيم علاقات لذة مع أول شخص من محيطه ، أي مع أمه . واللذة النوعية لهذه العلاقة تؤمنها الأحاسيس الفموية (كل ما يكون الغم) من امتصاص ثدي الأم أو بديل عنه (اصبع الطفل ذاته ، أو « المتصاصة ») . والشخص ، عند هذه المرحلة ، ليس سوى « وحدة من اللذة » تابعة كلياً ؛ وهو لم يميز بعد « الأنا » عن العالم الخارجي (الأم) أو عن « هذا » (الآخر : le ça) ولعله يدرك حسياً ثدي أمه بصفته جزءاً منه هو ذاته - أي الطفل - (وحدة الـ « أنا » و « الانفعال اللاواعي ») وسيتم تجاوز هذه المرحلة بغياب ثدي الأم ، بالفطام ، الذي يرغب الطفل على الانفصال عن أمه ، والاقرار بها كشخص من العالم الخارجي ، متميز عنه . وهذا الانفصال ، سواء أتم عاجلاً أم متأخراً بعض الشيء ، يعيشه الطفل دائماً بصفته فقداناً للذة جنسية ، وبمثابة شيء مؤلم مُعذِّب ، وبصفته همماً مزعماً ؛ لكل الطفل ، في هذه الفترة ، يكتسب قدرة لاغنى عنها لكل تربية لاحقة ، ولكن نشاط اجتماعي : التمييز بين الـ « أنا » و « اللاأنا » ، أي بين « الأنا » والعالم الخارجي . وفي المرحلة الشرجية ، يحصل الطفل على أحاسيس اللذة بواسطة المنطقة العضلية التي تضبط آلية إفراغ الامعاء . وفي هذه المرحلة ، فإن توظيف أشياء من العالم الخارجي ، على أساس الشهوة الجنسية الشبقة ، يبلغ درجة بحيث ينبغي الإقرار معها بأن الشخص الذي يقوم بعمليات التوظيف هذه قد توصل إلى درجة عالية من تكون الأنا .

ويفعل الطفل شيئاً ما ليروق في عيني أمه (إخراج برازه بانتظام) . وهذه المرحلة تفضي إلى المرحلة القضيبية ؛ وتكون أعضاء الولد الجنسية في هذه الفترة قد نمت إلى حد لا بأس به ، ويفقدوا باستطاعة الولد أن يضبط بنفسه وبصورة كافية نشاطاته لكي يتمكن من الحصول يدوياً على أحاسيس جنسية ، تؤدي مبدئياً أيضاً إلى الانتماز (بلوغ ذروة اللذة الجنسية : orgasme) . وخلال هذه الفترة ، يكون الولد قد توصل إلى مرحلة من الاجتماعية يستطيع معها

أن يدرك حسيًا ، بينه وبين محيطه المباشر ، علاقات غَرَضية ، تساوي في وجوه عدة ، العلاقات الغرضية التي يدركها حسيًا الشخص الراشد ، كالرغبة ، مثلاً ، في جعل الشخص المحبوب يحمل منه بطفل . وهذه الرغبة تتساوى فيها البنات والفلان ، على حد سواء ، وهي تبرز بانتظام ، طبعاً دون التقيد بمقياس الراشدين القائم على الفصل بين الجنسين . بل بالعكس ، فإن الأم ، في رؤيات الولد الاستهيامية (أي الأحلام الغريبة والهلوسة الخ) تكون ذات قضيب كالذكور . وتلك الرغبة محظورة وغير مقبولة ، تقريباً في جميع الحضارات المعروفة ، وستكون هذه الرغبة خاصة بتحريم مظهر الزنا . وهذا التحريم يتم التقيد به ، في الوقائع والأعمال ، خلال الحالة الأوديبية ، مؤكد ليس في جميع الحضارات البدائية ، ولكن بالمقابل ، في جميع الحضارات البورجوازية وأشكالها السابقة .

وطبقاً لهذه الحالة ، وفي ذروة المرحلة القضيبية ، يفرض الأهل حظر النشاطات الجنسية لفترة معينة (تأجيل النشاطات الجنسية ، فترة الكمون) وداخل الوسط العائلي (حظر الزنا) . وفي الحضارات التي يقال إنها تعيش مركب أوديب ، لا يجري ذلك الحظر دون تهديد بالعقاب : التهديد بالخصي (بالنسبة للفلان) . ولن يكفي هذا التهديد ، وحده ، في تحقيق السلوك المرغوب فيه ، إذا لم يكن مدعوماً بنوع من البرهان أو التحويل بحيث يستوعب الولد والبنت الصغيرة أيضاً ، الآن ، فكرة تؤكد له أن المرأة (الأخت ، أو الأم ، أو رفيقة اللعب) قد خصيت فعلاً (نالت عقابها) في نظره . وفي رأي فرويد ، إن المركب ، بكامله يضمحل بصورة طبيعية لدى الشخص الذي سيوصف فيما بعد بأنه طبيعي ومتكيف تماماً مع مبدأ الواقع ، في عدم قدرة الولد بيولوجياً على القيام بالعمل الجنسي . ولأجل بداية صحيحة لفترة الكُمون ، ينبغي ، إلى جانب التخلي عن الأهل بصفتهم أغراضاً جنسية مباشرة ، وكبت الرغبات الجنسية التي يوجهها الولد - والبنت - نحو أعضائها التناسلية ذاتيها ، ينبغي استخدام بعض المنجزات الهامة ، التي تكون مراحل ما قبل النضوج

الجنسي قد أنشأت شروطها المسبقة (المرحلة الضموية ، فالشرجية فالفضيية) .
هذه المنجزات ، وقدراتها المطابقة ستكون دائماً منطلق نقاشنا في الفصول
التالية . وبينها ، يجب أن نذكر ، قبل كل شيء ، المنجزات الثلاث التالية :

(١) لا يمكن الاكتفاء بكل بساطة بكبت عقدة أوديب . بل ينبغي أن
تكبت فقط الحركات الموجهة نحو الأبوين ؛ بل إن مجمل العقدة يجب أن يلاقي
أكثر من الكبت ، يجب تدميره ، إزالته تماماً (حسب تعبير فرويد نفسه
Zerstören, aufheben) . وعلى كل حال فإن فرويد لم يعمق هذا
التمييز (٨) ، علماً بأنه بالغ الأهمية إلى أقصى حد . إن الكبت يريد أن يعني أن
العقدة لن يجري التغلب عليها تدريجياً ، بل سوف تُنسى رسمياً ، فقط ؛
وهي لن تزول ، بل ستواصل حياتها التحتية ، مهيمنة فيما بعد على الرجل
بصورة مولدة للعرض ، لكنها تسيطر عليه وهو ما يزال ولدأ وذلك باضطرابات
عصابية لفترة الكون (الاستثناء الاضطرابي - ممارسة العادة السرية - أو
تكويناته الردفعية : حك الجسم ، قرص الأظافر بالأسنان ، الإصابة بمجالات
سلس البول) . إن تدمير العقدة معناه أن الولد يتخلى ويتغلب على الدوران
النموذجي في فلك والديه ، والتبعية الدائمة لهما ، تلك التبعية التي تحكمها
أحاسيس المتعة والقلق ، ويجب أن يجد الولد نفسه حراً بإقامة علاقة مستقلة
ذاتياً ذات قيمة أكبر (سواء أكانت تتصل باللذة أم بيقظة الوعي) .

(٢) إن توظيف أغراض الأبوين خلال المراحل السابقة للنشاط الجنسي يجب
أن يتخلى عنها لصالح المماثلة مع أحد الأبوين - في الحالات الطبيعية - الذي
هو من نفس جنس الولد (البنات - الأم . الولد - الأب) . وهذه المماثلة هي

(٨) راجع Sigmund Freud, Der utergang des ôdipuskomplexes

(« انهيار عقدة أوديب » - المؤلفات الكاملة ، الجزء ١٣ ص ٣٩٩ - باللغة الالمانية .

أحد الشروط الأساسية ، الذي يتيح الاضطلاع فيما بعد بالدور الجنسي و - في المجتمعات حتى أيامنا الحاضرة - بالأدوار الاجتماعية الأخرى المنهومة تبعاً للدور الجنسي .

٣ - هذه المماثلة هي في الوقت نفسه الشرط الضروري ، الذي يتيح للجهاز النفسي فصل مرتبة نفسية مستقلة إلى حد ما ، ونصب أنا - مثالي وبديهي تماماً . إن المماثلة تعني أيضاً : إقامة سلطة الأبوين والأهل والمؤسسات - الخلقية ، والثقافية ، والاجتماعية - التي تمثل الأبوين ، في الشخص . وبديهي أنه لأجل التوصل إلى مرتبة الضبط والرقابة ، هذه ، ذات الاستقلال الذاتي إلى حد ما ، ولكي يمكن أن يكون ثمة تكون للا أنا - المثالي ، فإن وظائف الأنا الأولية يجب أن تُطور بصورة كافية ، إن تكون الأنا المثالي ، الجدير بهذا الاسم ، لا يقتصر على جعل الفرد قادراً على كبت رغبات شخصية - فلو ظلت هذه هي القدرة الوحيدة لهذه المرتبة ، فتكون في أغلب الحالات ، صفة 'ممرضة' (١) لأنا مثالي ضعيف ، أي في الوقت نفسه متصلب ، متعجر ، فاقد المرونة ، غير قادر على التكيف . بل إن الأنا - الأعلى يكتب ، من جهة أخرى ، القدرة على استبعاد الرغبات الفريزية الجنسية الملحة ، الضاغطة ، والتصرف بصورة مستقلة عن المنظومة المباشرة للعقوبات - المكافآت لمراجع الضبط والمراقبة الطفولية (الأبوين ، الأهل) . هذه القدرة هي مكتسب خاص بالحضارة ، التي لا يمكن تسميتها قمية فقط ، وذلك لأنها لا تظهر ، في أغلب الحالات ، إلا في الشكل الخاص حيث الأنا - المثالي اقتصر على إحلال نفسه محل منظومة عقوبات - مكافآت الأبوين ، بدلاً من بناء منظومته الخاصة لضبط حقائق الواقع ومراقبتها .

(١) ممرضة : أي مولدة للرض ، راجع « المنهل » (المترجم) .

إنّ للجهود المبذولة للتغلب على عقدة أوديب الدولوات التالية :

إنها ، في جميع الحضارات المعروفة ذات التنظيم الاقتصادي والاجتماعي المتعين ، تسجل الانتقال من التبعية الطفولية إلى التكون - الناجح إلى هذا الحد أو ذاك - لشخص مستقل ذاتياً . وتشكل جزءاً من هذا الاستقلال الذاتي ، قبل كل شيء ، القدرة على تنظيم تكوّن النشاط الجنسي ، بصورة صحيحة ، الذي يستأنف مسيرته بعد النضوج الجنسي ليتخذ موقفه نهائياً . « بصورة صحيحة » ، تبعاً للتنظيم الجنسي . يعني ، في هذا الصدد ، أن الفرائز الجنسية الجزئية غير المنسقة ، وغير القابلة للضبط والرقابة . (هكذا تسمى مظاهر وتجليات الفريزة الجنسية خلال المراحل الماقبل النشاطية - الجنسية ، من وجهة نظر الممارسة الجنسية) هي تابعة لأولية primat الحياة الجنسية . وتلك الفرائز الجنسية المذكورة لا يمكن ، بأي حال من الأحوال ، الخلط بينها (إن هذه النتيجة المهرزة بعد بلوغ النضوج الجنسي ، تعني كتباً غير مطابق للفرائز الجنسية الجزئية أثناء أو قبل المرحلة الأوديبيّة ، ويرافقها عادة اضطرابات عُصائية) ؛ ولكن لا ينبغي لها ، أيضاً ، أن تسود لادتها (هذا الشكل من السيطرة الطفولية غير المتغلب عليه ، من أشكال الفرائز الجنسية الجزئية يمكن أن يوصف بأنه شكل منحرف) . وعلى الصعيد الثقافي ، وفي أنماط المجتمع النوعية ، تطابق هذا النشاط الجنسي سلسلة كبيرة من الصفات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتنظيم الجنسي . ونجد بينها ، بصورة خاصة ، المزايا الاجتماعية : الاخلاص ، والحب ، والاستقلال ، ثمّ مماثلاتها المنطقية - الإدراكية : التفكير ، وحرية الاختيار ، وأخيراً ما يتلازم وهذه المزايا والمماثلات من ملازمات اجتماعية - اقتصادية : الانضباط الذاتي ، والقدرة الإبداعية ، والاقرار بالعلاقات الاجتماعية التي تتجاوز الأفراد . هذه القدرات تعود بصورة أساسية إلى الطابع النشاطي الجنسي الما بعد الأوديبي ؛ ولن نعود في هذا الكتاب إلى استخلاصها بصورة منهجية من إطارها الأصلي المنشأ : الجنسي والاجتماعي . وسنذكر مثالين ،

مأخوذين من الحضارات المسماة بدائية ، ذات تنظيم اقتصادي سكوني stationnaire ، يميلاننا ندرك أن هذه القدرات مرتبطة بمستويات محددة من تطور الانتاج وتجديد الانتاج الماديين ، التي لا تستطيع بدونها الظهور ، وأنها من جهة أخرى ، لا غنى لهما عنها .

١ - تذكر مرغريت مايد ، من جملة ما تذكر ، وضع ثلاث قبائل في غينيا الجديدة (١) ، كانت كل منها تتميز بوضوح تام عن الأخرى في نمو بعض سمات الطباع . فإحدى هذه القبائل لا تعرف الروح العدوانية ، مطلقاً : ومع ذلك ، فإذا اضطرت هذه الروح العدوانية للظهور لدى أحد أفراد هذه القبيلة ، فإنها تلاقى تسامحاً من جانب القبيلة دون أية عدوانية مقابلة (تسامح قوي جداً إزاء حالات الشذوذ) . والقبيلتان الأخريان ، شديداً العدوانية إلى أقصى حد ، في سلوكها الافرادي والاجتماعي ، وأفراد هاتين القبيلتين هم ، على كل حال ، صيادو رؤوس . هذه القبائل الثلاث (التي تعيش في مناطق مختلفة جغرافياً ، لكنها متجاورة مع ذلك) يمكن تصنيفها اقتصادياً في فئة « الاقتصادات السكونية » ؛ فهذه القبائل لا تعرف أية طريقة ، مهما كانت بدائية ، من طرائق تكديس الخيرات أو الرساميل ، وإن كانت تملك عملة للتبادل (الأهداف) ، إذن فقد اكتسبت تلك القبائل على صعيد التمدن ، القدرة على التجريد الادراكي (حساب تحويل السلع إلى عملة) وهذه القدرة هي خاصية اقتصاد نقدي *économie monétaire* . ومؤكد أن لدى كل من هذه القبائل الثلاث قوانين متميزة ، مختلفة بعضها عن بعض ، لكنها تتساوى في أمر هذا التعقيد ، لإرغام أفرادها جميعاً على التقيد بحظر الزنا . لكنها لا تعرف مطلقاً ظاهرة

(١) مرغريت مايد « العادات والتقاليد والحياة الجنسية في أوقيانيا » مجموعة « أرض البشر » - منشورات بلون - ١٩٦٩ - (ترجمه عن الانكليزية إلى الفرنسية جورج شيفاسو) .

مماثلة لمقدمة أوديب ، التي تضمن إقامة عملية التراتب اللاحقة للنشاط الجنسي التناسلي . وقليل جداً ما يبدو أنه يظهر لديهم ما يطابق عندنا الانتقال من المرحلة الشرجية إلى المرحلة القضيبية . إن التحول الذي يحدث في المرحلة الشرجية ، وبخاصة في المجتمعات البورجوازية ، ذو اتصال مباشر بما سوف يسمى ، فيما بعد ، عند الفرد ، بالقدرة على الترتيب والنظام ، والدقة المنتظمة (في افراغ أمعائه) ، وفي الوقت نفسه ، القدرة على نبذ ما هو مُتَقَرَّرٌ وغير محتشم . (مثلاً الجامعة أثناء عملية الاستمنا ، أي ممارسة العادة السرية) . هذه العلاقة تقوم بصورة رئيسية على قمع اللذة الشرجية ، التي لا تعود للظهور مجدداً ، إثر ذلك ، إلاّ بالأشكال المذكورة آنفاً : الترتيب ، الانتظام ، الخ ، وتلك العلاقة تبقى قائمة ، وتعطى نماذج هامة بل مهمة للضبط والترتيب والانتظام ، وانتاج الحياة البشرية وتجديد انتاجها ، مثلاً . وبما لا شك فيه مطلقاً أنّ أفراد القبائل المذكورة يحتازون خلال طفولتهم مرحلة تُسَمَّـد الأحاسيس الجنسية خلالها من المنطقة الشرجية . لكن هذه المرحلة لا تشكل هنا البداية التي تتيح تحقيق مكتسبات الحضارة التي تميز مجتمعا ، والتي تجعل من تلك المرحلة الأولى ما اتفق على تسميته « المرحلة الشرجية » .

لكن مجتمعات هذه القبائل الثلاث المذكورة ، هي ذاتها ، يبدو أنها بقيت ، في مجملها ، بصورة ما ، في مرحلة ما قبل الشرجية ، أي في المرحلة الفموية ، وفي الحالتين ، بقيت تعيش في ممارسة أكلة لحوم البشر cannibalisme ؛ وأفراد هذه القبائل يأكلون فوراً ما يجذونه من غذاء ، وهم غير قادرين على ادخار الثروة والاحتفاظ بها ، من المنتوجات والخيرات ، في الشكل الأكثر بدائية ، كما أنهم غير قادرين على تحقيق أي شكل من أشكال التكديس الأولي . هذه الملاحظة يمكن أن تفسح المجال لاستنتاجين - متعارضين - : فإما أنه سيكون على هذه الحضارات ، حتى نهايتها الطبيعية أو المفروضة من قبل الحكم الاستعماري ، أن تجدد انتاج ذاتها في دائرة اقتصادية مغلقة ، غير تطويرية ، ذلك

لأن هذه « المجتمعات » لم تحقق أبداً، على مستوى حضارتها ، ما تحققه أفرادياً، أي المرحلة الشرجية ، ولأنها لم تقم قط وظائف تحديد اللذة وتساميها، المطابقة لتلك المرحلة . وإما أنه كان في وسع تلك المجتمعات أن تتغلب عن تكوين طابع شرطي قمي، لأنها لم تكن تعرف سوى نظام اقتصادي متوقف، سكوني. ولكن ينبغي التنبيه إلى أننا إذا اتبعنا هذه السلسلة أو تلك ، من الترابطات ، فإن هذين الاستنتاجين ، في شكلهما الوحيد العلة ، خاطئان ، دون أي شك . هنا يبرز نمط تطور إرضاء الشهوة البشرية إلى تحولات خارقة ، « ما فوق طبيعية » أو عَرَضية ، عشوائية - وسيكون من الخطأ تماماً الاعتقاد بأن هذه المجتمعات تعيش بحرية على الصعيد الجنسي ، ذلك لأن القيود والتضييق خلال المراحل الطفولية للتنظيم الجنسي لا تمكن مقارنتها ، من أية وجهة كانت ، بقيود حضارتنا ، في الصدق نفسه . مؤكداً أن تلك المجتمعات القبليّة تتبنى سلسلة من التصرفات والممارسات الجنسية ، التي كانت في المجتمعات الرأسمالية ، خاضعة للتحريم المشدد جداً ، خلال زمان طويل ، والتي كانت مرتبطة ، في المجتمعات السابقة لها بطقوس ساترة ، صارمة إلى هذا الحد أو ذاك (مثلاً ، فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية ما قبل الزوجية ، أو خارج السرير الزوجي) . لكن هذا السلوك مرتبط بقواعد خاصة بمجالات الزواج الخارجي *exogamie* الشديد التعميد (وهي قواعد القصد منها تعزيز حظر الزنا) وأفراد القبيلة يخضعون كلياً لهذه القواعد ، بحيث لا يمكن الكلام في هذا الصدق عن حريات جنسية ، وأقل من ذلك أيضاً عن استقلال ذاتي في اختيار شريك الحياة . ويمكن القول ، باختصار : إن العلاقة الجنسية التناسلية تمارس ، حتى بتقنيات مختلفة ومتنوعة ، تؤدي ولا شك ، بانتظام ، إلى الانتعاش (بلوغ ذروة المتعة الجنسية) ، لكنها - أي العلاقة الجنسية كما تمارس في تلك المجتمعات - لا تدرج ، من وجهة نظر بنية الأنا ، في سياق نشاط جنسي تناسلي عضوي ، كما تعرفه مجتمعاتنا، (نشاط ما بعد الأوديبي) بل ترتبط تلك العلاقة بصورة عامة بالناذج الطفولية .

٢ - هذا المثال الأول يثبت انه توجد علاقة واضحة تماماً ، بديهية ، بين مرحلة التطور الاقتصادي لمجتمع ما ، والتقنيات التي يستعملها لأجل فرض المتطلبات المتعلقة بالطباع الفردية والاجتماعية المطابقة لمستوى الحضارة الذي تم الوصول إليه . وهذا المثال يجعل بديهية هذه النتيجة : إن المراحل المعينة بيولوجياً للتطور الجنسي للطفولة المبكرة يمكن أن تقدم قاعدة مختلفة - بل وحتى متعارضة - لأنماط المجتمعة (دخول الشخص في المجتمعية) socialisation^(١) . وهذا لا يناقض التأكيد التمهيدي الذي سبق تقديمه ، والقائل إن المجتمعة لا يمكن أن تتم كيفما كان ، وإنما فقط تبعاً لقوانين معينة ؛ بالعكس ، فهذا يدعم ذلك التأكيد .

إن الدوغون، وهم قبيلة من قبائل افريقيا الغربية، جرت دراستها مؤخراً، قد قدموا لنا نتيجة أخرى للمجتمعة ، خالية من عقدة أوديب تمكن مقارنتها بالعقدة التي في مجتمعاتنا ، ولأول وهلة يبدو أن أفراد هذه القبيلة الراشدين ، يكتسبون في مجتمعتهم الشروط المسبقة لقدرات متنوعة متميزة، مولدة لحضارة، كذلك الشروط التي تجتمع في مقولة الاعلاء أو التصعيد أو التسامي بالنسبة لشخص من المصور اليونانية والرومانية القديمة، والمجتمع البورجوازي (عمليات تحويل الفرائز الجنسية إلى نشاطات اجتماعية ، خلافاً لكبتها) . لكن هذه القدرة « التصرف عن طريق تصعيد أو إعلاء معين » - وظاهر أن ذلك لا يمضي بعد إلى أبعد من ذلك - يجري ترسيخها لدى الأشخاص، وذلك بالضبط، باستبعاد الشروط المسبقة التي يستند إليها الشخص المتمدن لأجل التسامي بإندفاعاته الجنسية الزاخة المباشرة ، وتوجيهها نحو أشياء العالم الخارجي . ولا يمكن أن نمزو « أنا » فردياً للدوغون ، كما هي الحال بالنسبة لمجتمعات بدائية أخرى . فما سبب ذلك ؟

(١) راجع قاموس « المنهل » (المترجم)

« إن الشخص من الدوغون لا يرتبط بشخص واحد، بل العكس، فهو يوزع نشاطاته الجنسية على عدة أشخاص ، وسلوك الأم هو منشأ هذا الموقف ، فهي ترضع الطفل حتى عامه الرابع ، والارضاء المطلق لرغبات الطفل هو في المرتبة الأولى ، عند الدوغون . ولا يعرف الولد إذناً ولا حظراً ، وهكذا فهو لا يحس بقلق الفراق ، أو الانفصال ، وتجارب طفولته المبكرة خالية من العدوان ، إن الفرق في كيفية معاناة عقدة أوديب هام جداً . إنسا ، في حضاراتنا ، نستبطن (نألف إلفة داخلية حميمة) أشياء ثابتة ، وأشخاصاً منفردين . أما الفتى الدوغوني فله طرق متعددة لاجتناب العلاقات مع أنثى واحدة . هذه العلاقات مرهوبة ، عند الدوغون ، بمقدار ما نخاف نحن ، في مجتمعاتنا ، من الأخطار المباشرة الناتجة عن النشاطات الجنسية الإباحية . وينزع الدوغون إلى قمع الميل لإقامة علاقة جنسية دائمة مع شخص واحد ، وبدلاً من ذلك ، نراه ينزعون إلى التصرف والرد ، بتسام معين . إن « أنا » يتكون على هذا النحو هو أكثر مرونة وأكبر قدرة على التطيع . وهو يتكيف بصورة أسهل مع مختلف متطلبات النشاط الجنسي ، لكنه مستقل عن موقف شركائه في ذلك النشاط . والشكل الرئيسي للدفاع هو الانزعاج والتكدر من الارتباط ؛ إن « أنا » الدوغون يعمل بصفته « أنا » جماعة (١) .

(١) تقرير عن المؤتمر العالمي الثالث والعشرين لعلم التحليل النفسي ، نشر في

Kölnner Zeitschrift für Soziologie und Soz ps No 4 ' 1963

p 778 .

انظر أيضاً باران ومورجنتايلر في كتابها

Die Weissein denken zuviel - psychoanalytische Untersuchungen bei den Dogon in westafrika , Zürich, 1963 .

هذه الدراسة هي مثال فذ ، ووحيد تقريباً ، يبين كيف يمكن تطبيق نظرية وتقنية =

لدى القراءة الأولى ، يبدو هذا الوصف وكأنه طوباوية شيوعية . إلا أن الدوغون ليسوا تابعين لهذا الوضع « الطوباوي » . لقد انصرفوا إلى ممارسة هذا الوضع الماقبل التاريخي وذلك في تبعية تامة لعلاقة الانتاج ، التي يندرجون فيها منذ ولادتهم ، وهم عاجزون تماماً ، من تلقاء ذواتهم ، حتى عن مجرد ملاحظة أو إدراك وضعهم ذلك ، ومقاومته أو تغييره . مؤكداً أن الجمعة تحدث حتى سن متقدمة مع أدنى حد من التضييق على النشاطات والفرائز الجنسية . وبالتالي ، فإن أفراد قبيلة الدوغون مجردون من العدوانية . لكنهم ، في الوقت نفسه ، عاجزون عن إقامة علاقات جنسية مع شخص بمفرده . وهذه الظاهرة الأخيرة ، أي عدم إقامة اتصال جنسي بأفراد وإنما يجماعات ، يمكن اعتبارها - لدى النظر إليها سطحياً - بمثابة هدف ممتاز لكن الدوغون عاجزون تماماً عن أن يقيموا ، بصورة مستقلة ذاتياً ، علاقات مع أغراض ثابتة . والحال ، فإن هذه القدرة هي الشرط الذي لا غنى عنه لكل تنظيم بشري ذاتي حر . الدوغوني رهن لموقف الشركاء (في العملية الجنسية) ، وهذا ، أيضاً ، ليس معياراً سليماً ، بالضرورة : فالتضامن والاتصال يولدان دائماً على أسس تبعية . لكن الدوغوني ، هو إلى جانب ذلك ، عاجز عن التغلب على التبعية بعلاقات متبادلة . وهذا بدوره ، شرط إضافي مسبق ، لكل نشاط انساني فعال ونشط - تلقائياً ، وهو التعريف الممتاز للتضامن في الصراع الطبقي . ونحن نجد ، باستمرار ، في الدراسة المنهجية لهذا النوع من المجتمعات البدائية ، هذا التداخل الصميم بين النتائج المتمناة أو الجديرة بالرفض - اليوم - لعملية الجمعة . كذلك نلتقي بهذا التداخل في كل دراسة لعملية تطور مجمعة الشخص البورجوازي . وتظهر حينئذ قدرته على الحب ، فقط بصفتها أحد مظاهر

= التحليل النفسي على استكشاف حضارات غير اوروبية ، دون ان تفرض على معطيات البحث مقتضيات التحليل النفسي ذات المحتوى الخاص بالبنية النفسية الاوروبية - الاميركية (عقدة أوديب ، فترة الكمون ، بنية الأنا ، الأنا - المثالي الخ) .

النتيجة، أما المظهر الآخر الذي يتصف بالزوع إلى الافتتان (Verliebtheit) العصابي واخلاص يكمله زواج أحادي monogamic مطيع وكثير ، يجعل الشخص عاجزاً عن إقامة علاقات جنسية زاحمة مع جماعة من الأشخاص ويتجلى انضباطه في شكل طاعة شرعية ، واستقلاله الدائمي تحدده أنانية المنافسة (الخاصة بمجتمعنا ، هذه الأنانية التي تمنح قدرته على التفكير والتأمل ، إلى حد بلوغه مرحلة البكم ، والصمت التام . والمسألة هي معرفة ما إذا كانت جميع الأنماط المتميزة ، للتنظيمات الاجتماعية (المجتمعات) القائمة على أساس البنى الطبيعية الفردية المتميزة والمستقلة ذاتياً ، لا تضطر إلى تحمل نصيب نسي من تصعيد الفرائز والرغبات الجنسية ، والتسامي بها ، بحيث يتضمن ، بالنسبة لموقف إيجابي إزاء تلك الفرائز والرغبات ، طابعاً ضاراً .

الوظيفة القومية للنشاط الجنسي في النظام الرأسمالي منذ نشونه وفي ذروته .

لكي تتمكن الرأسمالية من التطور كنمط انتاج ، اجتماعي ، لم يكن يكفي إبدال الحياكة اليدوية بالحياكة الآلية ، والصناعات الحرفية artisanales بالمصاهر الكبرى وبالأفران العالية ومشاكل البناء الميكانيكي ، كذلك لم يكن يكفي أيضاً أن يتجه الناس من قراهم نحو المدن ، لأجل الانصراف إلى نشاطاتهم في الصناعة . بل كان يلزم ، بالأحرى ، أن تنطلق بعد عصور طوال « زنادات التفجير » التي بدأت بعملية الاستخدام التقني للكون ، وكان ينبغي في الوقت نفسه أن يحتفظ بعملية التطور هذه دون « زنادات تفجير » جديدة ، وكان يلزم كذلك ، في ذات الحين ، أن تتكون طبائع اجتماعية تستطيع أن تقوم بعملية التطور هذه ، وفي آن واحد ، الخضوع لها ، دون قيد ولا شرط .

في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر ، أخذت تقوم ، في

أغلب الدول الأوروبية ، عملية تطور التراكم الرأسمالي الأولي ، أي عملية تطوير اقتصادية ، لم تكن فيها وحدات وأنصبة متزايدة الكبر باستمرار ، من النتاج الاجتماعي الصافي ، والثروات الاجتماعية ، لم تكن تستعمل لأجل الاستهلاك المباشر ، (ولم يكن من المهم ، بادئ بدء ، أن يكون ذلك من قبل ملاكين عقاريين ، أو أشخاص من طبقة النبلاء يملكون مناجم ، أو من قبل مزارعين ، أو من عامة الشعب) بل كانت كل تلك الثروات تستخدم لأجل « التجديد الموسع للإنتاج ، أي أنها كانت تعود لتصب في عملية التطور الاجتماعية بشكل توظيفات جديدة . هذا الجزء من النتاج الاجتماعي الصافي لم يكن يمكن استعماله ، ولا استهلاكه . إن فهم ضرورة التأجيل الحازم للاستهلاك إلى ما بعد ، كان يعني ، منذ البدء ، بالنسبة لأغلب الأفراد ، التخلي عن الاستهلاك ، بكل بساطة . هذا التخلي كان ينبغي أن يتسخ ويتجذر ، على نحو أعمق ، في الطباع الاجتماعية لشعب ما ، لاسيما وأنه لم يكن هناك أي قانون تقليدي لضمان هذا الموقف ، وإن عملية التطور هذه ما كان يمكن أن يفهمها فوراً ومباشرة أولئك الذين كانوا في أسفل السلم من عملية الإنتاج ، والذين دائماً لم يكن لديهم سوى القليل جداً مما يستهلكونه . ولكن لا ينبغي الاعتقاد بأن عملية التطور هذه وسحات الطباع النابعة منها ، لم تمس سوى الفئات الاجتماعية العليا أو الفئات الاجتماعية الدنيا .

إن كل تنوع وتمدد ما ، ظهر فيما بعد بصفته انقلاباً تقنياً واسع النطاق جداً ، وعظيم القدرة ، لم يكن تحقيقه إلا بواسطة قسر معين ، لم يكن ، بادئ بدء ، يقيد بأغلاله مختلف المنتجين ، بالعمل الاجباري والمجاعة . وكان يبدو أن أشكال القسر الخارجي ذات صفة عرضية جداً ، وإنما تقوم بالمصادفة البحتة ، بالنسبة لعملية تكون الرأسمال : لكن هذه الأشكال كانت موجودة دائماً ، على كل حال . ولكي تحمي عملية التطور هذه بصورة فعالة ، وبصورة خاصة ، من الصدمات المتزايدة باستمرار بفعل الأزمات الاقتصادية ، كان ينبغي

ارفاق القسر الخارجي بقسر داخلي ، صميمي ، على قدر كاف من القوة والقدرة ، لكي تحمي حتى آثار ذكريات الأوضاع السابقة حيث كان إرضاء الحاجات والمتعة أكبر ، نسبياً (ونقصد بذلك وحدة الانتاج والاستهلاك في انمط الاقتصاد الكونية) ولا يعني ذلك أنه لم توجد أشكال قسر داخلية صميمة internes في أنماط الاقتصاد والعصور التاريخية السابقة . لكننا نواجه هنا ، في النظام الرأسمالي لدى نشوئه ، خاصية تاريخية نوعية لهذا القسر الداخلي ، ويمكن أن يوصف هذا القسر في عمله وتأثيره الموضوعيين بواقع أنه يقصر جميع المزايا والصفات والنشاطات الانسانية على إمكان استخدامها في عملية الانتاج ، أي أنها يمكن « تحويلها » كلها إلى علاقتها التبادلية . وذاتياً ، ينبغي أن يطابق هذا القسر المفهوم بأن لا شيء يسير تلقائياً في هذا العالم باستثناء العمل ، وما يرتبط به من كد وبؤس - وأجر - . ويحمل من جميع النشاطات الأخرى إما عملاً (تناول وجبة الطعام ، والزهمة لهضم الغذاء ، أو العلاقات الجنسية) أو أن تلك النشاطات توضع في صلة مباشرة بالعمل ، أي مكافأة على العمل الذي قدمه العامل و إخلاصه طوال اعوام للمؤسسة . وقد نال الاذن أخيراً بالزواج من ابنة رب العمل ، الخ ، أو أن العامل ، بدلاً من أن يشتغل ، يقضي أيامه وهو ينط في الهواء الطلق مع أرملة ، الخ ، الخ .

ويحدد التحليل النفسي ، بمثابة طابع شرعي ، الطابع الفردي الذي يستبطن هذا القسر بأقوى ما يمكن من شدة وعزم ، ويحسده على النحو الأكمل . ويسميه فرويد كذلك ، في مبحث وجيز في علم طبائع نماذج النشاطات الجنسية ، به الطابع القسري ، الاجباري ، وهو يقيمه على النحو التالي : « إن هذا الطابع يتميز بسيطرة الأنا المثالي ، الذي ينفصل عن الأنا ، في حالة توتر شديد . وسيطر على هذا الطابع قلق مغمم بالاحساس بالذنب ، بدلاً من أن يسيطر عليه القلق لفقدان الحب ، وهذا الطابع يتجلى في نوع من التبعية الداخلية بدلاً من تبعية خارجية ، وينمي درجة كبيرة من الاستقلال الذاتي ، وعلى الصعيد

الاجتماعي ينفذ الدعامة الحقيقية، ذات النزعة المحافظة قبل كل شيء، للتمدن^(١).

بعد ذلك ببضع سنوات ، تابع أريخ فروم دراسة هذه الطباع لدى البورجوازيين الصغار ، الميالة إلى الفاشية ، وتوصل إلى الصيغة الوصفية التالية: طباع مازوخية^(٢) تحكمية. وقد بين أريخ فروم أن هذه الطباع قد فقدت عنصر الاستقلال الذاتي أثناء فترة الانكماش الاقتصادي ، وانطلاق عملية التطور الاحتكارية باستمرار ، ذلك العنصر - أي الاستقلال الذاتي - الذي كان يميز طباع البورجوازية الصغيرة ، في البدء ، هي ، والبورجوازية قبل كل شيء ، مبدلة ميولها المحافظة بميول شبه فاشية fascistoïdes .

إن مفهوم الطابع الشرجي يصف ، إذن ، طبعا فرديا ، لكنه في النظام الرأسمالي يحدد طباعا اجتماعية تسيطر جماعيا . والأمراض الظاهرة المطابقة لهذه الطباع هي المصاب الاستحواذي névrose obsessionnelle وجميع الأعراض القسرية بصورة عامة (حالات الاحساس المرهقة بالإكراه والقسر الخ - الاكراه على العد والاحصاء والاغتسال الخ) التي لا تظهر ، بالضرورة ، لدى جميع الأشخاص المالكين لهذه الطباع . وتزول الأعراض منذ اللحظة التي يستبطن فيها النزاع في الطبع^(٣) . ولدى تحليل ظهور الأمراض العصابية الاستحواذية ، نكتشف بصورة عامة ، أنه ، خلال المراحل السابقة لظهور النشاط الجنسي عند الولد ، وبصورة خاصة خلال المرحلة الشرجية ، لم يجر اقناع الطفل بقبول حالات الكتبت الجنسية المطابقة تدرجيا ، ولا بالمعطف الضروري ، إذا صح التعبير ، بصورة غير عضوية . بل بالعكس تماما ، فقد فرضت حالات الكتبت الجنسية هذه منذ البدء بالقسر والاكراه وذلك من

(١) Freud, uber libidinose Typen, tome XIV p 510

(٢) المازوخية : التماس اللذة عن طريق تعذيب النفس - راجع «النهل».

(٣) انظر ويلهلم رايش - Characteranalyse, wien, 1033 p 164 s.

جانب مربين (هم الوالدان) - لديهم هم أنفسهم طباع قسرية . وهكذا لم يبق أمام الولد ذي الطبع الشرجي القبل سوى امكانية كبت غرائزه الجنسية كلياً ، دون أن يكون قد اكتسب القاعدة الضرورية لتكوين « أنا - لذة » ، كانت باستطاعة الولد ، على أساس هذا الأنا - اللذة ، كبت غرائزه الجنسية عن قصد ووعي ، وأن يميز فيما بعد - وذلك شيء حاسم - بين الكبت ، ونبذ الرغبات الجنسية ، وتأجيلها ، وكان باستطاعته أن يتعلم التمييز بين ذلك كله ، والتصرف والرد (١) . ومن العناصر المكونة للطبع الشرجي أن تفرس بصورة متصلة جداً ، وفضة ، ولا هوادة فيها ، العناصر التي تدخل في تكوين الأنا والتي ينبغي لها أن تتطور بتحويل اللذة الشرجية ، أي مختلف الوظائف الضابطة (احترام الترتيب والنظام) التي تركز على السيطرة المضبطة للنشاط المعوي . إن الأهل النظفاء ، ذوي الاستقامة ، والمنهيين من المجتمع ، لم يكونوا يحسون في أي مجال ، أكثر من إحساسهم بالطبع المتصف بالرغبة الجنسية ، لدى ولدهم ، والذي لم يكسب الصفة الاجتماعية بعد ، وإحساسهم بلذاته الشرجية ، والعناد الذي يصر به على التحديق في منتوجات هذه المنطقة من الجسم ، على أنها أشياء محبوبة . إنه يجري تحبيب الولد بهذه اللذائذ بنفس الكيفية التي يجري بها إنشاء العناصر التكوينية لأناه ، أي أنه يجري مسحها وتشويها . ان أنا شخص ذي طبع اكراهي شرجي يتصف بدقته التامة ، ووساوسه ، وعلاقاته المشوهة مع الأغراض الجنسية ، كما يتصف بالتصلب الذي يحكم جميع نشاطاته . لقد عرض الطبع الشرجي هنا على شكل نمط نموذجي ، مثالي ، على نحو ما لا يظهر أبداً في حياة الواقع . وبصورة خاصة ، فإن العلاقة بين المرحلة الشرجية والأعراض الإكراهية (أو الطبع القسري) ليست أبداً علاقة وثيقة على هذا الشكل . لقد أثبتت تشخيصات لحالات خطيرة من الأمراض العصابية الاستحواذية أنه يبدو أن هذه الأمراض ناجمة عن الانتقال من المرحلة الفموية إلى المرحلة

(١) انظر ويلهلم رايش - Der triebhafte character Vienne; 1935, p 59.

الشرجية . ورغم بساطتها الادراكية ، فإن هذا العرض المبسط يبدو أنه في محله .

إن سيطرة الطبع الشرجي والمبديء الاقتصادية التي يقوم على أساسها ، تؤثر تأثيراً عميقاً على تكوين النشاط الجنسي . ويظهر النشاط الجنسي ، في الواقع ، منفصلاً عن العمل ، ومع ذلك فلا يمكن بلوغه إلا بالعمل ، ولهذا النشاط الجنسي طابع المكافأة ، كالوجبة الدسمة أيام الأعياد ، والتمتع بالنوم حتى الضحى يوم الأحد ، والحصول على نقود ، بصورة عامة . وهكذا يخفض مستوى النشاط الجنسي ليصبح حركة من حركات العمل . وشأن العمل تماماً سيكون هذا النشاط الجنسي : منحطاً ، قذراً ، آلياً ، ومقاساً بمقاييس الردو ، هذه الأشياء المضادة لطبيعة اللذة . إن القدرة الجنسية تقاس بطريقتين:

(١) القدرة لدى الرجل - كم « ضربة » يستطيع أن يطلق في وقت معين ، وكم من النساء قد « حاز » حتى الآن . أو عند المرأة : عدد طلبات الزواج التي رفضتها حتى الآن ، تواتر المرات التي يستدير الرجال لينظروا إليها بعد التقائهم بها في الشارع ، أو كيف ينظرون إليها باعجاب عند الالتقاء بها . الجنس يقاس إذن بمقاييس القيم التبادلية (١) .

(١) ان تغير الوظيفة الذي شهده موضوع الحياة الجنسية في الأدب لدى الانتقال من العصر الوسيط الى عصر النهضة يدعم التحديد الاقتصادي لتجسيدات هذا النشاط الجنسي . ففي عصر النهضة فقط ، الذي ، كما نعلم ، كان يمارس تضييقاً أكبر مما كان يفعل العصر الوسيط ، حل الممارسة الجنسية (ولعل ذلك لم يكن فقط بالنسبة للطبقة المسيطرة) ظهرت في الأدب بانتظام تغطي « موضوعات الكمية » لقدرة فعولة الرجال ، وقدرة المرأة على الشهوة والرغبة الجنسية (كم مرة ، وطولاً كم من الوقت ، ومع كم شخص مختلفين جرى الجماع خلال ليلة واحدة) انظر موروس . المرجع المذكور . ص ١٤٥ : « ان عصر النهضة هو من جميع الوجوه ، عصر الانسان . لم تعد فعولة الرجال فيه بحاجة الى ان تثبت نفسها بآثر بطولية ، كما كانت الحال في عهد الفرسان وشعراء التروبادور ، بل أصبحت تكفي قدرته الجنسية ، وفعولته ذاتها . ولعل بروز هذه الصفة هي أبرز خاصية من خصائص أدب النهضة . الغرامي » . وهناك ولاشك مبرر =

٢) ولكن في سياق هذه العلاقات كقيم تبادلية ، يفقد النشاط الجنسي كل قيمة خاصة به ، ويقاس هذا النشاط حينئذ تبعا لوظائفه في النجاب الأولاد .

وكما قلت القدرة على أن يعزى إلى نشاط جنسي ما ، رغبة في النجاب الأولاد ، ازداد اعتبار هذا النشاط بمثابة « فساد وانحراف » . وهكذا فنجد ذلك الحين كانت العلاقة القموية - الأعضاء التناسلية (التماس المتبادل بين الفم والأعضاء التناسلية) تعتبر بمثابة انحراف وتهتك ، رغم أن ممارسي هذه العلاقة لم يكونوا يتعرضون ، قانونياً ، للعقاب . ذلك لأنه ، بقليل من الإرادة الطيبة ، يمكن دائما أن يفسر هذا الانحراف والتهتك على أنه إعداد لممارسة العلاقة الجنسية الطبيعية بين الرجل والمرأة . ونفس حكم الرأي العام كان يصيب عملية الاستمناء (العادة السرية) ، ولكن ممارسة هذه العادة لم تكن ، في أغلب الحالات ، تقابل بالعقاب ، إلا في المدارس ، والمدارس الداخلية ، والسجون الخ ، حيث يحظرها النظام . وفي هذا الصدد أيضاً يمكن أن يجري تفهم ممارسة العادة السرية على أنها قامت في « حالة استمجال ملحة » (ولعدم توفر الفرص لجماع طبيعي) . وأخيراً ، فإن اللواط والسحاق (اشتها المماثل) اللذين يتبعان تماماً عن رغبة النجاب الأولاد يعالجان بمثابة انحراف يعرض مرتكبه للعقوبة بمقدار ما يعتمد عن « النموذج الزوجي » . وهكذا فإن علاقات اللواط والسحاق « بين شخصين مرتبطين بصورة مستمرة » (على شكل زواج) أقل تعرضاً للعقاب من هذه العلاقات حين تكون حرة ^(١) . إن العلاقة الشرجية

= للقولان تغير الوظيفة هذا ذو صلة بالانتقال من مرحلة الاقتصاد الزراعي السكوني الى مرحلة الرأسمالية التجارية والكولونيالية . وبصورة ذات دلالة كبيرة ، وجد أدب النهضة هذا منشأ في مدن ايطاليا واسبانيا التي كانت تمارس التجارة البحرية وتراكم الرأسمال ، ولم ينشأ في المانيا المتخلفة .

(١) انظر هانس جيزه ، « اللواط » مجموعه « المكتبة العلمية » ايار - ١٩٦٨ . ترجمة د. مازيه .

(إيلاج القضيب في أست الشريك) في العلاقات الجنسية بين شخصين من الجنس الواحد ، تعاقب بصورة بارعة جداً (!) وعلى نحو أشد قسوة ، (ذلك لأنه يرى فيها جرم لممارسة شبيهة بالمجامعة) مما تعاقب به ممارسة العلاقة القموية - العضو التناسلي بين شخصين من جنس واحد - ولا شك في أن قسوة العقوبة على الممارسة الأولى تعود إلى أنها تواقعت على الرغبة في « تقليد » العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة ، هذه العلاقات « المنجبة للأولاد » ، وممارسا العلاقة الشاذة يضعان بذلك العلاقة الطبيعية موضع السخرية ، بصورة مزدوجة .

ويبدو أن الحب لا علاقة له بهذا السياق ، ولا بهذا الاطار . إنه يفصل عن النشاط الجنسي ويحول إلى شيء نقي ، صاف ، مقدس لا يمس ، وشيء أثري . وهو يعاد إلى المستوى الخاص به في المنظومة الاجتماعية للتناسل ، التي يحكمها المردود ، والوضع الأفضلي للربح ، والمزاومة : إنه شيء هائل ، خارق ، لا تدركه الأبصار ، وهو ، في الحقيقة لا يحد له مكاناً في هذا المجتمع . وهذا الفصل يؤدي إلى أن يتعارض الحب مع النشاط الجنسي ، ويمرر ، بهذا التناقض ، خفض قيمة ذلك النشاط . هذا الفصل القسري الاجباري بين الحب والنشاط الجنسي ليس ، بأي حال من الأحوال ، مسألة ايديولوجية أو حتى مسألة تفسير . إن البورجوازي التقليدي يقوم ، بدوره ، بعملية الفصل هذه ، في حياته الشخصية : الفصل بين الزوجة والعشيقة ، وبين حفلة الرقص وزيارة الماخور ، بين مجرد الاهتمام والرعاية ، والشبق الشديد والتهتك ^(١) . والبورجوازي

(١) على الصعيد الفردي ، يتوقف البورجوازي عند مدخل المرحلة السلبية لعقدة أوديب ، أو أنه يتراجع عند بلوغه سن الرشد . إنه لم يتم التغلب على الاندفاعات الشهوانية مباشرة ، والموجهة نحو الأبوين ، ونقلها نحو أشخاص آخرين . ان بنيته النفسية المحددة بالثوابت العاطفية الماقبل الأورديبية ، تتأرجح بين الحط من قيمة الشخص المحبوب أو رفعه المبالغ فيه الى عالم المثال الأعلى : والمرأة ، في نظره ، لا يمكن ان تكون الا عامرة او قديسة . - أنظر فرويد ، في مجلته « اسهام في دراسة المنصر الأكثر شيوعاً » ، من عناصر تحوير حياة الحب .

الصغير يقلد البورجوازي ، والبروليتاري ، مع أنه يفتقر إلى الوسائل المادية لأجل ممارسة هذا الفصل عملياً ، لا يستطيع أن يمارسه ببداً مضاد ، مستقل ذاتياً . ويبقى الحب في طابعه الغريب والفريد ، شيئاً طوباوياً على غرار الوعد بالحرية للمجتمع بأمره . ويجري تحويل الحب إلى صورة لن يكون ممكناً أبداً التوفيق بينها وبين الواقع .

إن التربية الجنسية في ذلك العهد تعكس بأمانة المكان الذي يشغله النشاط الجنسي . إن النزعة الظلامية الجنسية ، في الخطاب الرسمية ، هذه النزعة التي لم تمد بحاجة للدعم بأمثلة ، تطابق الخط من قدر الحياة الجنسية في الواقع (١) . والمهم هنا ، هو أن التربية الجنسية الرسمية والتقليدية في ذلك العهد تعمل بوسائل ليست فقط متخلفة بالنسبة لشروط المعارف التقنية والاجتماعية ، بل هي تناقضها أيضاً باستمرار . فمنذ بدء هذا القرن ، كان من شأن أي طبيب ريفي ، أن يدحض بشدة ، في ميادين طبية مقارنة ، تأكيدات كالعلاقة بين الاستمناء (العادة السرية) وأمراض النخاع الشوكي ، أو العلاقات الجنسية أثناء فترة الحيض ، والتهايات الرحم . فإذا ما أخذنا في الحسبان التأثير الظلامي لايدولوجية الرأسمالية لدى نشوئها وفي ذروتها ، فإن مزاعمه ، كتلك التي تعج بقزارة ، بصدد نقص المرأة الطبيعي ، أو نقص الطبع النسائي النموذجي ، يمكن أن تطالب بـ « صدق وتحمر للحقيقة ، أكبر » .

إن الجهود المتميزة بـ « الانتصار العظيم للتقنية والعلم » تحتفظ ، في رأيها ، بصدد الحياة الجنسية ، بمخلفات ورواسب ما قبل رأسمالية ، إن لم نقل سحرية ،

(١) في القسم الأول من كتاب رايش « الثورة الجنسية » (مجموعة ٨-١٨ ، « بلوت » ١٩٦٨ ، ترجمه عن الأنكليزية قسطنطين سينيلنيكوف) نجد مجموعة مكثفة من الأمثلة ، التي يعاد ذكرها اليوم في كتب التربية الجنسية الموجهة للفئات « المتخلفة » من السكان .

منبثقة من الممارسة والايديولوجية الجنسيتين للجهود السابقة . إن طرائق الاجهاض المستتار ، التي ما تزال قيد الاستعمال اليوم ، تقدم مثلاً عما نقول : فهذه الطرائق أشبه بطرائق عمليات مطاردة الساحرات (١) . هذه النفايات ، التي فات أو انها ، استطاعت أن تستمر في الحياة بسهولة ، بمقدار ما كانت السيطرة المستمرة قرونًا قد رفضت « عن قصد » أن تعيد النظر في تفسيرات النشاط الجنسي (هذه التفسيرات المتصفة بالسيطرة الاكثريكية الما قبل الصناعية .) وسنجد مجددًا هذا اللجوء النموذجي إلى ايديولوجية عصور سابقة حين سنغنى بدراسة الرأسمالية في عهدها المتأخر ، حيث يجري تحويل وظيفة النشاط الجنسي ، بواسطة عمليات التكييف والتزييف والتمنيع ، وحيث المهرمات الجنسية الضرورية دائمًا يجري الابقاء عليها بوسائل ايديولوجية جديدة .

إن الشروع في تربية جنسية مضادة للتربية الرسمية ، ومحاولات ممارسة جنسية ، في عصرنا ، تخالف العرف وما اصطلح عليه ، كثيراً ما تعاني من بمائلة غير إرادية لما تكافح هي ضده . أن الحركة الرومنطيقية وحركة الشيبية (Wandervogel) ، والأدب الرومنطقي ، والشرط الرئيسي من الواقعية البورجوازية اتصفت دائمًا بوجه سماه رايش « ضعف الليبدو » ، ضعف الزخم الجنسي (Libidoschwäche) ، إن رغبة هذه النزعات في استئثار حياة جنسية تقدمية كان يضعفها كثيراً مبدأ وأساس الواقع السائد ، بحيث لم تتمكن

(١) في كتاب بول . جيبهارد وزملائه

Pregnancy; Birth and Abortion, New york, 1958, p 194.

نجد تعداداً لا « علاجات » المستعملة في أكثر الأحيان : الشاي ، والمفص او الدباغ (مادة تؤخذ من قشر البلوط أو من ثمر المفص الخ ، ومهاز الجودر ، والزعفران ، وزيت الخروع ، والكينين ، تلك هي الوسائل « الأكثر انسانية » على كل حال . (في بلادنا العربية يستعملون أيضاً عصير البصل ، وهو ذو خطر شديد على حياة المرأة الحامل - المترجم) .

تلك النزعات من الدفاع عن نفسها ضد ميولها الخاصة المعارضة للحياة الجنسية ،
ويخلص ويلهم رايش « تناقض التربية الجنسية الشائعة اليوم » على النحو التالي:
« إنها تتصف بما يلي ، إنها تأتي دائماً متأخرة جداً ، وهي تحيط نفسها بالفموس
والأسرار ، وهي تتردأماً مروراً سريعاً على ما هو جوهرى وأساسى : المتعة ،
اللذة الجنسية . إن أولئك الذين يمرضون أى نوع من أنواع التربية الجنسية هم
أكثر منطقية من وجهة نظرهم الرجعية . وتنبهى مكافحتهم لأنهم خصوم للحقيقة
وللانسجام العلمى ، المنطقى ، لكن مواقفهم ، بصورة ما ، هي أكثر صراحة
من مواقف هؤلاء المصلحين المزعومين الذين يعتقدون أن إرشادهم وتعاليمهم
سوف تغير أى شيء ما ، (١) . وقد تمقد الوضع ، منذ ذلك الحين ، في
وجوه عدة منه . إلا أن رايش قد صاغ ، وليس فقط بالنسبة لمهده ، الحقيقة
الثورية البسيطة : لا إصلاح جنسياً بدون ثورة اجتماعية . يقول رايش : « إن
الأزمة الجنسية [...] هي وجه من الأزمة العامة من النظام الاجتماعى
الاستبدادى . وهي لا يمكن أن تحصل على حل جماعى في هذا الإطار .

إن الوظيفة القمعية للجنس والتربية الجنسية في عهد الرأسمالية لدى نشوتها
وفي ذروتها يمكن تلخيصها كما يلي : لقد كان نظام الانتاج الرأسمالى يتطلب ،
لكي يتمكن من أن يقوم ويتوطد اجتماعياً ، مبدأ قائماً على أساس المردود ، جرى
ترسيخه إلى حد كبير في بنية الشخص النفسية بحيث لم يعد من الضرورى
فرضه باستمرار من الخارج ، بل كان يستطيع أن يعمل عمله بمثابة قسر داخلى ،
حميمى . هذا المبدأ ساد بادية بدء لدى الجماعات التي أقامت نظام الانتاج
الرأسمالى ، والتي حققت التراكم الأولى ، والتي تولت الحكم ، خلال عمليات
التطور هذه . لم يكن ذلك يس بعد الفئات الاجتماعية الخاضعة ، في البدء ،

(١) « الثورة الثقافية » للمؤلف المذكور - ص ١٨٤ - ١٨٥ .

وكذلك فيما بعد ، لأسوأ عملية قمع خارجية ، أي للطبقة المسيطرة . وقد نحتم على الحياة الجنسية ، المهكومة ببدا المرود ، هذا ، أن تخضع لقبود وتضييقات حاسمة . إن عناصر أساسية في تكوين اللذة الجنسية ، وبصورة خاصة مقوماتها ومكوناتها الما قبل العملية الجنسية التناسلية ، قد أخضعت لتحرير مشد ، وجرى إضعاف وتقسيم العناصر الباقية (الشرعية) من اللذة الجنسية . وقد جرى توجيه الباقي من الممارسات الجنسية التناسلية المسموح بها نحو مثال ideal العلاقات الزوجية الأحادية بين الجنسين ، أي (العلاقات الطبيعية) . لكن المكونات الجنسية المقموعة توضع في خدمة عملية الادماج والاستيعاب الاجتماعيين ، وعملية تطور العمل ، وحتى المظاهر والتجليات الجنسية الصريحة هي ذاتها ، حتى ولو كانت قد حصلت على الشرعية من جانب النظام القائم ، ولكن على الأخص إذا لم تكن حاصلة على هذه الشرعية ، هي معرضة لطائفة كبيرة من التهديدات ، والتحريمات ، والمقوبات . وفي هذا المجال أيضاً يجعل منها نشاطات « نافعة اجتماعياً » . هذه التضييقات وعمليات القمع ليست من عمل الرأسمالية وحدها . ومع ذلك فالرأسمالية كانت أول من أنشأ ، على النطاق العالمي ، بعض أشكال القمع الجنسي ، ودفعها إلى حدها الأقصى .

الاستيعاب التكميني والتضليلي في عهد الرأسمالية المتأخرة

« لكن الوضع ينقلب ، لدى دفعه إلى أقصى مداه ، ذلك ما كتبه فريدريك المجلس في تحليله للقوى المنتجة وعلاقات الانتاج في النظام الرأسمالي ، وذلك في كتابه : « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » . ولو كان انفراج القمع الجنسي الصريح ، وازدياد الحرية الجنسية علامة لا « إنقلاب » الوشيك ، إذن لما كان لدينا ما نضيفه إلى دراسة ماركس والمجلس ، سوى التمهد بدراستها دائما وباستمرار .

إن التخصيصات النظرية لـ « إنقلاب » النظام الرأسمالي إلى نظام اشتراكي

تقوم على أساس التحليل القائل بان القوانين الملازمة لنظام الانتاج الرأسمالي تنزع إلى تفجير هذا النظام ذاته. إن اتساع تجديد الانتاج الرأسمالي ودأبته، *l'automatisme* (تلقائية) ادخار الثروات الاجتماعية ، والتحسين والاتقان التقنيين للقوى المنتجة ووسائلها المساعدة ، تُنطَلِقُ عملية استقطاب 'محوّل' تحويلاً تاماً ، إلى درجة الإلغاء *annihile* ، مبادئ الإنتاج ، والمزاخنة ، والاستثمار وفي « النهاية » وقبل الإطاحة بالنظام الرأسمالي ، يوجد عدد متزايد أكثر فأكثر ، من البروليتاريين (أو الجماهير الأجيّة) يواجهون ، أقل فأقل ، رأسمالين مستقلين ؛ ويُستَبعد عدد متزايد باستمرار ، من الأشخاص ، من الثروات الاجتماعية المتزايدة على الدوام ، والثروات ذاتها تُوزَعُ من قِبل وبين عدد يضيق باستمرار من الرأسمالين المستقلين أو عملاء للرأسمال (الوكلاء ، مدراء الأعمال *managers*) . وتبعاً للنظرية الماركسية ، فإنه لن تلتزم سوى صدمة صغيرة نسبياً ، هي الثورة ، لأجل تحطّي قوانين الرأسمالية التي تكون قد تزعزت تزعزعا شديداً . لكن ماركس والمجلس ، في هذا ، قد استصغرا بلا جدال ، في تشخيصاتها العملية التطبيقية ، قدرة الطبقة المسيطرة على حماية قوانين الانتاج وتجديد الانتاج الرأسمالية . وفي نفس زمن تطور الرأسمالية الاحتكارية ، كان الرأسماليون يصوغون مجموعة كبيرة من تقنيات توطيد قدرة وتوسع الاستثمار ، وهي تقنيات بارعة إلى حد أنه ، بعد التحليل الصحيح ولا شك للقوانين الموضوعية لتطور الرأسمالية ، هذا التحليل الذي جرى في القرن التاسع عشر ، لم يكن ، حتى ولو بصورة تقريبية ، تقييم العناصر المحققة لاستقرار الامبريالية .

إن تدابير حماية ووقاية النظام الرأسمالي الاحتكاري يمكن تطبيقها ، في الميدان الاقتصادي ، بوسائل مثل : السياسة المضادة للأزمات الدورية ، وسياسة المداخيل ، ونقص الاستخدام المخطط ، للصانع ، إنشاء وظائف استخدام ، بصورة مصطنعة ، لكي يجري ، عن عمد وبعد درس ، إيقاف عملية نشر

التألية *automatisation* في العديد من قطاعات الاقتصاد ، الخ. ويقوم بمثابة معادل لذلك في الميدان الابدولوجي مجموعة كبيرة متنوعة من التقنيات والسيطرة ، كانت مجهولة في مرحلة رأسمالية المزاحة ، وحق في عهد الرأسمالية الاحتكارية الناشئة . وكانت الفاشية أول من وضع قيد التطبيق ، على نطاق واسع ، مثل هذه المجموعة من الوسائل الجديدة نوعياً ، أو كيفياً ، *qualitativement nouveau* لأجل توطيد السيطرة الرأسمالية . وقامت الفاشية ، من جهة ما قامت به ، بحرف طاقات الفريزة الجنسية لأغراض التدمير واتخذت المقاييس الأكثر ضخامة والأشد هولاً . وبمكس ما يحدث في رأسمالية المزاحة ، فإن اضطراب الرأسمالية المتأخرة *tardif* إلى تحويل شطر كبير من الثروات الاجتماعية لصالح التراكم الموسع للرأسمال (التوظيفات) أو لصالح منتجات أخرى غير مخصصة للاستهلاك (بل المخصصة لقدرة التدمير) لم يعد يرتكز ، مباشرة وفورياً ، على التوصية الدائمة للتخلي عن الاستهلاك . وفي هذا الصدد ، فإن قضيتين من قضايا المقلنة أو الترشيذ *Prolèmes* ، *de rationalisation* للبناء الفوقي تدخلان قيد العمل :

(١) على الأفراد أن يتعلموا الاستهلاك : أن يستهلكوا حين يتطلب النظام ذلك ، وأن يفعلوا ذلك وفق ما يتطلبه النظام. لذلك ينبغي أن يُفقد الطابع القسري الشَّرْجِي التقليدي بعض صرامته وتشدده .

(٢) كلما أصبح هذا النمط من الانتاج والاستهلاك الرأسمالين غير مفهوم ، وغدا يتوجب على الارغام بالانتاج على هذا النحو وليس بصورة مغايرة ، أن يمارس بصورة بارعة وغامضة ، أصبح يتوجب أكثر أن تُتصور للفرد العلاقات بين نمط الانتاج وطراز المعيشة بصفتها « سائرة هكذا تلقائياً ، وبصورة بدئية وطبيعية » .

ويستتبع ذلك ، بصدد الحياة الجنسية ، الجواب التالي - الموجز ، مؤقتاً - :

إن الحريات الجنسية ، الوهمية والحقيقية ، يجب أن تصبح كذلك أكبر ، بحيث يتوصل الأفراد إلى أن يقولوا من تلقاء أنفسهم ؛ انظروا ، منذ عشر سنوات ، كان الأمل بعيداً في أن يتمكن الفتيان والفتيات من أن يرقدوا معاً دون خوف من حالات الحمل ؛ ومنذ ثلاثين عاماً ، لم يكن بوسع أحد أن يعتقد بأن الشبيبة هي مبالغة إلى هذا الحد إلى النشاط الجنسي ، وأن الأزواج والزوجات سوف يصبحون شركاء متساوين ، وأن المرأة ستنال مثل هذه الحرية ، والأخلاق ستصبح بمثل هذه الليبرالية - وباختصار : إن النشاط الجنسي قد « حُرُر » قليلاً وجُنُوداً لخدمة توطيد الحكم . وتَسَبَّحُ للنظام الاجتماعي لتجديد الانتاج بعض عناصر الرغبات الجنسية الظاهرة ، مع توسيع معايير الممارسات الجنسية المسموح بها . طبعاً إن الرغبات الجنسية الكامنة (المكبوتة) تستمر ، رغم ذلك ، في القيام بدورها كخادم مقصورة * valet de pied سواء كانت موافقة أم لا ، في عملية التنبؤ هذه .

قبل الشروع في معالجة تجسّدات ومظاهر التحوير الجهنمي للنشاط الجنسي ينبغي لنا أن نوجز الاستخلاصات من ملاحظات هذا المقطع الوجيه بتفسيرين نظريين حول الصلات القائمة حالياً بين الحياة الجنسية ومجتمع الطبقات (الرأسمالي) .

نهاية الوظيفية المتصلبة (الصيغة للوثار هاسك) : إن هاسك في تحليل دراسي للانتفاضات الطلابية في الولايات المتحدة ، يطرح أسئلة تهتمنا مباشرة : ماهي أسباب نشاط الطلبة الاجتماعي الجديد ؟ لماذا كان طلبة الخمسينات الأميركيون أكثر تكيفاً من طلبة الستينات ، مع أنه لم يحدث تغير كبير خلال

(*) الشخص المكلف بإيصال المتفرجين إلى أماكنهم في مسرح أو دار سينما الخ .
(المترجم)

السنوات الأخيرة ، وأن عدم « أمن وسلامة » وضعهم الاجتماعي وتقلقه (١) ظلا على حالهما ؟ إنه من السهل إقامة صلات بين الجواب الذي يقدمه ، وتفسيرنا لنهاية الفترة التي كانت تسود فيها أخلاقية جنسية ، قمعية كلياً .

يمكن وصف نموذج السلوك الذي صاغه نمط التربية القديم للطبقات الوسطى على النحو التالي : التخلي عن الأشباع المباشر للفريزة الجنسية وعن نيل المتعة مباشرة ، وتأجيل نيل هذه المتعة إلى ميعاد لاحق ، ويحري تطوير قدرة إدراك آفاق المستقبل ومنظوراته ، ونتائج هذه الآفاق ، الممتدة في الزمن ، والمعجز عن فعل شيء من أجل ذاته ، مثلاً قراءة كتاب لأن قراءته تروق ، وليس لأن الشخص ، إذا لم يقرأه ، لن يكون لديه ما يقوله أثناء تبادل الحديث مع آخرين ، الخروج مع شخص ما ، لأننا نحب رفقته ، وليس لأننا نريد أن يرانا الناس معها (أو معه) « ولتسجيل انتصارات » . إن التربية الكلاسيكية التقليدية للطبقات الوسطى تتلخص بالتدريب على « من أجل ... أن » ، أي على ضرورة اعتبار كل نشاط بمثابة نشاط وظيفي : - « ينفع ل... » « صالح ل... » أو « يسهم في ... » و « يساعد على »...ومن وجهة نظر « المجتمع » ، فإن هذه النزعة الوظيفية المتصلبة التي خدمت جميع ضرورات توظيف الأموال ، وتأجيل الاستهلاك ، كانت « ذات وظيفة معينة » . ولكن لدى انعام النظر في الأهمية التي اتخذتها قضايا الاستهلاك بالنسبة لقضايا الانتاج ، مفذ عشرات من السنين ، فقد تغير الوضع ، شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح وضماً آخر تماماً . ولنتذكر الحث على الشراء ديناً « اشترُوا الآن » ، وستدفعون فيما

(١) هذه المصطلحات مأخوذة عن ليبسيت (statusinkonsistenz ، statusunsicherheit) والمعنى المستخدمة فيه شرحه رايش في محاولته « Studentenrevolten in Berlin und Berkeley »

ردلك في مجلة New kritik ، المديدين ٣٨ - ٣٩

بعد ، - وهي صيغة قدر لها أن يفوض بسببها المواطن الطيب من الفئات الوسطى في أشد أنواع اليأس حلقة وسواداً . ولكن حتى من وجهة نظر الفرد ، فإن النزعة الوظيفية المتصلبة ، المقودة بتأجيل المكافأة ، قد أصبحت تطرح مشاكل متزايدة أكثر فأكثر في السنوات الأخيرة ، نظراً لأن سلوكاً تقديماً بهذا النموذج غداً أقل صلاحاً ، باستمرار ، للهدف المقصود (١) .

الطلبة ، في انتفاضتهم ، يحتاجون على هذه « النزعة الوظيفية المتصلبة » التي أصبح يتصف بها نظام التعليم الجامعي ، أكثر منه في أي وقت مضى ، لكن هذه النزعة الوظيفية يزداد غموضها واستحالة فهم الطلبة لها لاسيما وانها غير مكلية كلياً بمجالات قسر وارغام مماثلة في قطاعات المجتمع الأخرى . - ان مكونات ومقومات جنسية بصورة ظاهرة تدخل ، إلى حد كبير ، في انتفاضة الطلبة . ونحن نذكر طبعاً شعارات وحركات أعمالاً من أجل الحب Fuck for peace ، أحبوا بمعنى Love - in ، قبلوا بمعنى Kiss - in ، مارسوا الحب ، لا الحرب Make love - not war . في أشكال الرفض الجديدة هذه ، توجد ، من جهة « فورية - جديدة » ، تدخل في حرب ضد النزعة الوظيفية المتصلبة ، لكن هذه الفورية موسرمة في أغلب الحالات ، بنزعة وظيفية متصلبة أخرى . وهكذا فقد قام الطلبة مرة يطالبون ، وسط تظاهرة جماهيرية واسعة جداً من عمليات العناق والتقبيل وذلك في مدرج المحاضرات بالجامعة ، كما طالبوا بإلغاء النظام التقليدي (المتصلب) الذي يحظر على الفتيان والفتيات أن يتبادلوا العناق والقبلات في مدرج الجامعة ، كما يحظر على الفتيان زيارة الفتيات في المباني المخصصة لهن . والحال ، فقد أصبح مسوحاً ، منذ زمن

(١) لوثار هاسك - Rigider Funkionalisme und new unmittelbarkeit

في مجلة « New kritik » العدد ٤١ ، ص ٤٥ وما يليها .

طويل بتبادل العناق والتقبيل في الشارع ، والسيارات ، وفي دور السينما .

ولعل الطلبة ، بهذا المطلب من أجل توسيع كمي (السماح بالتقبيل) لم يقوموا إلا بانجاز ممارسة جنسية هي قمعية في حد ذاتها . ونحن لا ندرى ماذا يمكن أن يكون هناك من شيء تحريري ، على المستوى الجنسي ، في تبادل العناق والقبلات جهاراً وعلى مرأى من الملائ ، لاسيما إذا ما احتفظ في الوقت نفسه بالقواعد الاجتماعية ، قواعد « من مع من » و « كم مرة » .

الازالة الموجهة للتسامي : (هربرت ماركوز) : لقد سجل فرويد ، في نظريته عن الحضارة ، أن للفرائز الجنسية نزوعاً بذاتها إلى التصرف وفقاً لمبدأ اللذة ، أي أنها تطمح وترغب في تحقيق ذاتها ، وأنه ينبغي لمؤثرات العالم الخارجي أن تحدث أقل ما يمكن من اضطرابات في هذه الفرائز الجنسية . إلا أن ثلاثة أسباب تعارض هذا المبدأ باستمرار ، وتعرقل تحقق الفرائز الجنسية باستمرار : قوة الطبيعة الساحقة ، وهشاشة الجسد البشري ، وعدم اكتمال المؤسسات البشرية (الاجتماعية) . ويقر فرويد بأن هذه الأسباب الثلاثة ، بما فيها الثالث ، لن يمكن إزالتها أبداً ، وأن البشر سوف يظلون مرغبين على الحد من رغباتهم الجنسية . ويعرف الانسان بأشكال مختلفة ، هذا الحد من الفرائز الجنسية ، خلال تطور حضارته .

ولا يستطيع مبدأ اللذة أبداً أن ينمو نمواً مكتملاً ، ان عليه أن يخضع دائماً لقيود وتضييقات قوية ، إلى هذا الحد أو ذاك ، يتمثلها الفرد بصورة ناجحة بمقادير متفاوتة ، (بصورة « سليمة ، صحية » ، أم عصابية) . ويسمى فرويد كل عملية تطور هذا « التمثل » و « التكيف » الإلزامي في إطار الحضارة ، الاعتراف بـ « مبدأ الحقيقة والواقع » .

ولكي يستطيع مبدأ الواقع أن يقيم سيطرته ، فإنه يضطر لاختضاع الفرائز

الجنسية والمدمرة إلى تحويل عميق . ويميز فرويد بين التصعيد sublimation والكبت . وهو يعني بـ «التصعيد» التحويل الدائم للفرائز الجنسية إلى نشاطات ليست جنسية بصورة مباشرة ، بل هي نشاطات (اجتماعية) (1) مركزة على الحب والعشق . إن القدرات الفنية (الخلاقة) تعتبر بمثابة النتيجة - النموذج لعملية تصعيد ناجحة . وهناك ظاهرتان مميزتان لعملية التصعيد (١) أنها لا يمكن أن تنتج إلا في الطفولة المبكرة ، أي في فترة دخول الفريزة الجنسية المراحل الأولى تماماً من تكونها (٢) إن (التصعيد لا يترك أي أثر ممرض pathogène لدى الفرد - بل إنه ، أي التصعيد ، يعتبر بمثابة استيعاب ، أو تمثل (ناجح) للفريزة الجنسية . وبالمقابل ، فإن الكبت يجري تعريفه ، باديء بدء ، بصفته الفصل الاجباري للفريزة الجنسية عن موضوع (غرض ، هدف) نشاطها (الغرض الجنسي) وبصفتها منماً لهذا النشاط . وربما تنظر القوى المحركة للفريزة الجنسية ، على مدى العمر كله ، لكنها تبقى قائمة وحية رغم ذلك ، تحتياً ، باطنياً . وترغم هذه الفرائز الجنسية المكبوتة لأن تتجسد بصورة مغايرة للأشكال المحظورة . إن عودة (المكبوت) للظهور في داء العصاب تحتوي على هذه الأشكال النموذجية من تجسد وظهور الفريزة الجنسية المحظورة والمقطوعة عن نشاطها .

لقد قام هربرت ماركوز في كتابه « الحب والحضارة » بتحليل مفهوم (مبدأ الواقع) وأضاف إليه (مكونات إجتماعية - تاريخية نوعية) (معينة ، خاصة) : مبدأ المردود بصفته وجهاً تاريخياً مسيطراً على مبدأ الواقع ، والقمع المشدد أي : (أنها القيود والتضييقات التي جعلتها السيطرة الاجتماعية ضرورية . ويجب تمييز هذه السيطرة عن القمع الأساسي ، أي عن (تغييرات الفرائز) الجنسية التي هي ضرورية لكي يحافظ الجنس البشري على عيشه في الحضارة (١)) إذن ، فماركوز يجمع ما بين مبدأ المردود الصناعي وما

(١) ماركوز « الحب والحضارة » . مع أن ماركوز يميز مبدأ المردود بصفته =

سماه فرويد « السبب » الثالث ، أي (عدم اكتمال المؤسسات البشرية) ، كما يجمع ما بين مبدأ الواقع بصورة رئيسية مع (السبب) الثاني ؛ أي الجهود التي ينبغي أن يبذلها البشر للتغلب على تفوق الطبيعة . وهذه الجهود تواجه

== الشكل التاريخي لمبدأ الواقع ، أي أنه يقوم بتصحيح للتحليل النفسي بواسطة المادة التاريخية ، فان هذه المقولة تبقى في نظر ماركوز ، لا تاريخية ، في الأساس . وينبغي ، بالأحرى ، تمييز مختلف مباديء الردود الصناعي ، تماماً كما ينبغي ان نميز ، في سياق المجتمعات البدائية ، والعصر القديم الكلاسيكي (أي عصر الأغارقة والرومان) ، والتطور الاجتماعي في أوروبا الغربية ، مختلف الطبائع الاجتماعية السائدة ، وبالتالي ، مختلف الأشكال التاريخية لمبدأ واقع هذه المجتمعات . فالإمبراطورية الرومانية ، مثلاً ، قد صاغت « مبدأ للمردود » يختلف عنه في المجتمع الأغرقي القديم ، واعتمدت قبائل الموندوغومور مبدأ يختلف عن مبدأ الواقع لدى الأرابيش أو اللوغون . ان مبدأ المردود الرأسمالي هو ، من وجهة نظر علم التحليل النفسي ، مبدأ مردود شرطي - مبدأ لم يعد يطرح ، في ما يخص جمود المردود غير الجنسية أو المتزوجة الطابع الجنسي ، السؤال : « مردود لأي هدف » ، بل هو لا يطبق مسألة « الهدف » إلا على التجسيدات ومظاهر النشاط الجنسي الظاهرة ، المكشوفة . وينبغي بصورة عامة ، الاحتفاظ بهذا التمييز ، حتى ولو أن البلدان الاشتراكية ، في أيامنا ، بصدد سياستها وعلم النفس لديها ، تبدو اما أنها تتخذ تماماً نفس موقف أسلافها الرأسماليين ، واما أن البلدان الاشتراكية لم تصبح بعد قادرة على التغلب على مبدأ المردود الرأسمالي . وهذا التمييز يفدو أساسياً ، هناك حيث يجري السعي لتحديد التراكم الرأسمالي أو الاشتراكي في بلدان العالم الثالث ذات المستوى المختلف من حيث التصنيع . وبصورة ما ، فجميع هذه البلدان تسلك سيرة تكون وانسال أوروبا الغربية ، ولكن بوتيرة معجلة ، في أقل من حياة جيل ، لكن عملية اللحاق هذه على أسس اجتماعية - نفسية مختلفة تماماً عن نماذج مردود أوروبا الغربية . وسيقدم ، عاجلاً أو آجلاً ، وصف لخصائص مباديء الواقع النامي المختلفة هذه ، ومباديء المردود الصناعي ، ولكن سوف تتجلى فيها اختلافات أساسية عن مباديء المردود ، السائدة اليوم في العالمين الأول والثاني . والصين والفييتنام تقدمان لنا منذ الان أفضل مثال على ما نقول . ولا شك أن هذا النقص في التمييز هو الذي يعارض بصورة طوباوية وغير تاريخية ما بين مبدأ اللذة من جهة ومبدأ المردود ومن جهة أخرى ، يماثل بين مبدأ اللذة هذا وبين مجموعات من الحرافقات (ميتولوجيات) لا يمكن أن تخدم بمثابة نموذج للتحرر الا في مجتمعات أوروبا الغربية لأن هذه الميتولوجيات من حيث هي نموذج طوباوي للتحرر لم يكن باستطاعتها أن تتطور الاضد مبدأ واقع هذه المجتمعات (انظر كتاب ماركوز « الحب والحضارة »)

الانسان ، كالعامل ، والتقدم في سيطرته على الطبيعة (تقدم القوى المنتجة وأنماط تلبية الحاجات ، والمتعة) .

والحال ، فإن ماركوز يضع هو نفسه ، في كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » حدوداً وتضييقات لهذا المخطط البسيط من التفسير ، وهو يعيدنا إلى محور نقاشنا حول تغير العلاقة بين العمل ، والاستهلاك ، والجنس . يقول ماركوز : « كثيراً ما أُشيرَ إلى أن المجتمع الصناعي المتقدم يمارس درجة من النشاط الجنسي ، أكبر - « يمارس ، بالمعنى الذي تصبح فيه هذه الحرية قيمة بضائية وتجارية وعنصرأ من العادات والتقاليد الاجتماعية . إنه يسمح ، في علاقات العمل ، في عالم العمل ، للجسد بأن يظهر بوضوح خصائصه الجنسية ، دون أن يكف ، رغم ذلك ، عن أن يكون - أي الجسد - أداة للعمل [...] . أن هذه المجموعة *cette socialisation* لا تتناقض مع عملية نزع طابع العشق والحب عن الوسط المحيط ، بل إنها مكملتها . لقد اندرج الجنس في نشاطات دعائية وفي علاقات عمل ؛ فهو يبدو ، إذن ، أنه يفيد من إشباع (موجه) للرغبة والمتعة [...] ، إن إشباع الفريضة الجنسية المسموح بها من قبل المجتمع ، والمتمناة ، هي ذات مجال أكبر بكثير ؛ لكن مبدأ اللذة قد طرأ عليه انقاص ، خلال عملية الإشباع هذه - نظراً لأنه محروم من المطالب التي يستحيل التوفيق بينها وبين المجتمع القائم . واللذة في هذا الشكل تولد الخضوع [...] ومبدأ اللذة يمتص مبدأ الواقع ؛ وتتححر الحياة الجنسية (الأصح القول إنها تكسب ليبرالية) بأشكال بناءة اجتماعياً . وهذا المفهوم يتطلب أن تكون ثمة أشكال قمعية من إزالة التصعيد ، تبرهن بالمقارنة معها الفرائز الجنسية والأغراض المصعدة عن ابتعاد أكبر ، وعن حرية أكثر ، ورفض إزاء المحرمات الاجتماعية . إن مثل هذا التصعيد يبدو أنه يحدث فعلياً في الميدان الجنسي [...] . إن عملية التحرير هذه للحياة الجنسية (وللزعة العدوانية) تجرد

(بصورة ما) الفرائز الجنسية من شطر كبير من المصيبة والكدر، اللذين بوسعها أن يكشفوا للوعي أن العالم القائم لإشباع الشهوة الجنسية هو ذو قدرة وسلطة قمعيتين . صحيح أن الحياة تحوي كثيراً من المصائب وحالات البؤس ، وأن الشعور بالسعادة شيء هش - إنه قشرة رقيقة طلي بها القلق، والكبت والحرمان والقرف . هذه المصائب يمكن استخدامها بسهولة على الصعيد السياسي ؛ فإذا استحال عليها أن تتجسد بصورة واعية ، أمكن لها أن تغدو قدرة غريزية من أجل نمط فاشي للحياة والموت (١) .

أثناء المهرجان الجماهيري الحاشد يوم ١٨ شباط ١٩٦٨ ، والذي تلا المؤتمر الوطني الخاص بفيثنام ، قال رودى دوتشكه إن الفاشية لم تبق لها قاعدة جماهيرية في ألمانيا . بعد ذلك بثلاثة أيام ، نظمت حكومة برلين - الغربية بالاشتراك مع الأحزاب والنقابات تظاهرة كبيرة ، لكي تظهر « وجه برلين الحقيقي » . وقد نزل ٨٠ ألف شخص إلى الشارع ، مطالبين بسحق المعارضة الطلابية ، وتسديد الحساب دون رحمة لـ « باعشي التخريب والشغب » ، وذلك على كل حال ، ما عمدوا إلى تنفيذه عملياً لدى نهاية احتشادهم بقيامهم بمذابح ، وإن محدودة ، ضد معارضتهم . ومع أنه لم تكن ثمة حركة فاشية جماهيرية متلاحمة وظاهرة الملامح ، لا في الجمهورية الاتحادية الألمانية ، ولا في برلين الغربية ، إلا أن تلك الحركة سنأتي « في حينها » . ويمكن أن نحدد اليوم هذه الـ « في حينها » ، أي « في أية لحظة كانت » . اليوم ، وربما خلال بعض الوقت أيضاً ، يجري الحكم على النحو الأكثر فعالية ، اعتماداً على صبر الجماهير السليبي ، ومع المحافظة تماماً على القشرة الرقيقة التي تغلف القلق ، والغصّة ، والكبت ، والحرمان ، والقرف . لكن القلق والروح العدوانية المتراكمين ، سيبلغان في

(١) هيرت ماركوز - « الانسان ذو البعد الواحد » - الطبعة الفرنسية - منشورات Minuit ، ١٩٦٨ ، ترجمة مونيك ويتسغ ، ص ٩٦ إلى ١٠٠ .

يوم من الأيام ، حجماً كبيراً معيناً ، بحيث يتدفقان على المسرح السياسي ؛ ولن تكون حينئذ سوى حركة فاشية « عفوية » انبثقت من القاعدة . أو أن نظام السيطرة يمكن أن يزداد ، لأسباب سياسية واقتصادية ، عدم استقراره بحيث لا يبقى لديه أي اختيار آخر سوى تمزيق تلك القشرة (ذلك كان وضع وعمل حكومة برلين - الغربية بعد ١٨ شباط) ؛ وستكون تلك حينئذ تعبئة فاشية ، من فوق . وبدهي أن تقنيات السيطرة القائمة على التكييف والتزييف وتضليل الجماهير ، هذه التقنيات المستخدمة اليوم هي شرط لا غنى عنه لكي يقوم النظام الرأسمالي بوظيفته دون اللجوء إلى أشكال مكشوفة من الفاشية ؛ لكن هذه التقنيات الجديدة لا تكفي لتبرير التأكيد بأن الفاشية قد تم تخطيطها تاريخياً .

تكييف الحياة الجنسية والتربية الجنسية انعكاس للانقسام الاجتماعي

في نظام سيطرة الرأسمالية المتأخرة زمنياً ، تتشابك المكونات الأولية القمعية والتضليلية ، للحياة الجنسية ، بصورة تظهر فيها تماماً خصائص العصر المميزة . لقد أشرت في القسم الأول من الفصل السابق ، إلى أنه ، لأجل فرض الاستيعاب الجنسي ، يلجأ النظام إلى مجموعة كبيرة متنوعة من طرائق التكييف والترزيف والتضليل والاستيعاب ، يستمد بعضها أصله من عصور تاريخية عابرة . وينبغي الآن أن نقوم بتحليل أهم هذه « الطرائق » .

إن تعبير « طريقة » لا يشمل الحقيقة إلا بصورة غير كاملة وذلك بالمقدار الذي تخضع فيه ، بصورة ما ، ذاتاًفاعلة إلى مكيف تضليلي أعلى ، لا وجود له بصفته كذلك . وبهذا القياس فإن « الطريقة » هي مفهوم عاجز يشير إلى نزعة اجتماعية قوية .

فوارق في الممارسة الجنسية ، تعزز انقسام الجنسين ،

إن وجود فوارق تبعاً للجنس ولناحية الذكورة والانوثة ، في الممارسة

الجنسية والموقف إزاء الحياة الجنسية في مجتمعاتنا، هو واقع معروف. فالفتيان، مثلاً، يمارسون العادة السرية بمرات أكثر مما تمارسها بها انفتيات، ونسبة الفتیان الذين يمارسون هذه العادة هي أكبر؛ وبمكس الفتیات، فالفتیات نادراً جداً ما يستعملن صوراً جنسية مثيرة أو مهيجات مساعدة. والنساء أقل تحدثاً عن الأرداف من الرجال؛ لذلك فإنهن يُرغَمَنُ، في عملية استكشاف الممارسة الجنسية (في عملية الاستمنا - العادة السرية - مثلاً)، أكثر مما يحدث لدى الغلمان، أن يقمن باكتشافاتهن منفردات. ويمارس الرجال، مراراً أكثر، علاقات جنسية قبل أو خارج الزواج، ولهذا السبب ذاته يكون لديهم تنوع أكثر في الشركاء، مما يكون لدى النساء، الخ، الخ^(١). إن هذه الفوارق المدعومة بإحصائيات موثوقة تقودنا إلى مجموعة من الاستنتاجات وثيقة الصلة بالموضوع على الصعيد السوسولوجي (صعيد علم الاجتماع)، لا سيما حين يجري مقارنة تلك الاستنتاجات مع مواد في علم التحليل النفسي وعلم السلالة (الاتنولوجيا) . والاستنتاج الذي يفرض نفسه، بادية بده، هو التالي: إن الرجل، حتى المتعرض للقمع اجتماعياً وجنسياً، كان دائماً في ميدان الحياة

(١) انظر بصورة خاصة نتائج الدراسات التجريبية التالية؛

- 1) Kinsey. Das sexuelle verhalten der Frau, Francfort 1954؛
- 2) Friedeburg, Die wmfra ge in der Intinsphäre, Cahier 4 de Beitrâge zur sexual forschung, stuttgart 1954؛
- 3) Schwarzenauer; in Saller (éd) ; Sexualität heute, Munich 1966.

وهذا التحليل يعتمد على مجموعة الأسئلة التي وضعها فريديرغ . ومن هذه الناحية يمكن اعتباره تحليلاً تكليلاً .

- 4) Schofield, the sexual Behavior of young People, Boston 1965.

الجنسية ، وفي بنية حضارتنا التقليدية ، مالكا لمواقع السيطرة . وقد عكس على المرأة ، وبخاصة على زوجته وبناته ، القمع الاجتماعي والجنسي الذي ألحق به . إن هذه الاستنتاجات وأمثالها ، التي يمكن تنويعها وتفسيرها بصورة لامتناهية ، هي دائما صحيحة بالنسبة لأغلب العلاقات الراهنة بين الجنسين . إلا أنه سيكون ارتداداً إلى الاصلاح الجنسي في عشرينات هذا القرن ، أن نطالب في كفاختنا الجنسي الراهن ، بإلغاء هذه « الشروط التي لا تطاق » ، نظراً لأننا عند هذا المستوى من الحجج سوف نلتقي بمجلتي الماغازين النسائيتين « بريجيت » و « إيلترن » (الأهل) ، فإن لم يكن هذا الالتقاء مع أعدادهما لعام ١٩٦٨ ، فالموكد تماماً أنه سيكون مع أعدادهما لعام ١٩٧٥ . وثمة بضع علائم تتيح أن نتبين أنه يحدث حالياً تغير عميق لصورة المرأة المصنوعة بوسائل تكييف وتضليل الجماهير ، وبصورة خاصة بواسطة المطبوعات المصورة ، هذه الصورة التي تبقى ، حق في الفترة التي أعقبت الفاشية ، وتحت طلاء من نزعة المساواة الآلية ، تبقى ذات مفهوم قمعي مشدد . وقد استطاع ريناتي درونر منذ ست سنوات في دراسته *Zum Frauenbild der illustrierten (المرأة كما تصورهما المطبوعات المصورة)* أن يسجل على السنة نساء كثيرات هذه العبارة النمطية « يجب أن يكون - الرجل الذي أريده - متفوقاً عليّ » (١) . وما عدنا اليوم نعثر على هذه العبارة ترد على هذا النحو المباشر في مجلة *سبريچر « ايلترن »* . إن المساواة بين الجنسين على الصعيد الايديولوجي (الفكري) وتحرر المرأة على صعيد الواقع الاجتماعي قد حققا ، خلال هذه الفترة ، حالات تقدم كبيرة . لكن المشكلة تظهر مجدداً حينما تبقى ، تحت مظهر صراحة رفاقية بين الشريكين ، معايير للذة والمردود متميزة حسب كل جنس منها - إن كان ذكراً أم أنثى - لا يمكن - أولاً يمكن بعد - التخلي عنها ، نجد هذه المعايير المتميزة يجب أن

Renate Dörner « Zum Frauenbild der illustrierten » (١)
in *Das Argument*, no. 22, 1962, p. 43-48.

يكون الرجل والمرأة شريكين حقيقيين فيها ، وأن يقد كل منهما على الآخر ، بصورة متبادلة ، الحب والثقة - في حين أن الرجل يملك دائماً وضعاً اجتماعياً مسيطراً ، لا يستطيع أن يقرر التخلي عنه ، وهو يشرك في هذا الوضع ، ولا شك ، المرأة ، بمقدار أكبر مما تريده التقاليد ، ولكن ، على وجه التحديد ، فقط ، بمقدار أكبر . ويبدو أن العبارة النمطية قد تحولت اليوم ، على الصعيد الإيديولوجي ، إلى الكليشة التالية : « صحيح أننا متساويان ، لكنني ، كمرأة ، أحب أن أكون ملكاً له » . وحتى هذا المفهوم المياري - لدى الفئات الوسطى طبعاً - سيستمر في التطور خلال الأعوام القادمة ، دون أن يقتدي تماماً ، على كل حال ، بطراز المساواة الأميركي - السويدي . إن تحقيق هذه المساواة تفترض مسبقاً وجود طباع اجتماعية من طراز المساواة *egalitaire* والبورجوازي ، متجذراً ومترسخاً بصورة أكثر عمقاً بكثير في الواقع الاجتماعي مما هي الحال في الجمهورية الاتحادية الألمانية ، حيث الطباع الاجتماعية خاضعة لميراث الأشكال الدولية السابقة .

وليس من الضروري في سياق هذا الكتاب تفحص كل تنوعات الفوارق الجنسية التي ما تزال موجودة حتى اليوم ، والتي تعبر ، بأشكال معدلة ، عن الانقسام بين الجنسين . إن هذه الفوارق هي على صلة وثيقة ، أكثر بكثير مما يقر به أكثر المراقبين والمصلحين حياً في ميدان الحياة الجنسية ، بأشكال تجديد انتاج الحيوانات الاقتصادية والاجتماعية الشخصية ، وهذه الأشكال المتمايزة تبعاً للفئات ، والمعبرة عن الانقسامات الاجتماعية .

فوارق في الممارسة الجنسية اليوم ،
تعبر عن انقسام الفئات الاجتماعية .

يتأثر السلوك الجنسي للفرد ، حتى في أدق تفاعلاته ، بالوضع الاقتصادي ،

وبصورة أخص ، بالوسط الذي يعمل فيه ذلك الفرد . بادىء بده ، يجب أن نذكر الارتباطات الايجابية المتبادلة (ظهور في آن واحد مع تواتر كبير نسبياً) بين العادة السرية والفئة العليا من المجتمع ، بين الممارسة المبكرة للعلاقات الجنسية لدى الجنسين والفئات الدنيا ، بين العلاقات الجنسية لأفراد من نفس الجنس (اشتهاه المائل : اللواط ، والسحاق) والفئة الوسطى ^(١) . ثم يجب أن نسجل الواقع ، الذي لا يثير دهشة مفرطة لدينا ، وهو أنه كلما كانت درجة التعليم والمستوى الاقتصادي أعلى ، كانت التقنيات أكثر تنوعاً في العلاقات الجنسية : المداعبات التمهيدية تستمر وقتاً أطول ، وتجري العملية الجنسية في أكثر الأحيان والمرأة والرجل عاريان ، تحت نور مضاء .

إن كينسي هو أول من عرض هذه الفوارق وعلاقاتها الاجتماعية الوثيقة ، وذلك في مؤلفاته ذات القيمة التربوية الكبيرة .

إن ثلاثة أمثلة تجريبية ستكفيها هنا لكي تظهر بوضوح العلاقة المتبادلة بين السلوك الجنسي والوضع الاقتصادي :

(١) في دراسة للسلوك الجنسي لدى الشبيبة البريطانية أبرز ميخائيل شوفيلد ^(٢) الواقع التالي : إن الفتيان الذين ، حتى سن معينة (مثلاً حتى سن السابعة عشرة) يظلون يرتادون المدرسة ، لديهم تجربة جنسية أقل من أترابهم

(١) انظر :

Klaus Dörner « Homosexualität und Mittels-
tandsgesellschaft » in Homosexualität order politik
mit dem S 175 Ko Ro Ro , n 943 , Hamburg
1967, p. 126 ss.

(٢) ميخائيل شوفيلد ، المرجع المذكور ، ص ١٥٤ وما يليها .

المساوين لهم سناً ، والذين اندرجوا ، من جهتهم ، في عالم العمل . ولكن بالإضافة إلى ذلك ، فإن واقع الاضطلاع بعمل جسدي (manual jobs) أو غير جسدي (non manual jobs) ، داخل الفئات التي تعمل ويكون عليها أن تكسب مالا ، يلعب دوراً كبيراً ، ولدى الفتيات ، على الأقل ، والنشاط الجنسي أكبر لدى الفتيات اللواتي ينتسبن إلى الفريق الأخير ، ولذلك دلالة . ويلاحظ أيضاً ، لدى الفتيات اللواتي يكون عليهن أن يعملن ، أن نشاطهن الجنسي يزداد بنسبة ما ينشأ لديهن من عدم رضى عن عملهن . لكن « النشاط الجنسي » أو (التجربة الجنسية) لا تعني مطلقاً أن هذه الفتيات ذوات الممارسة الجنسية الكبيرة ، هن أكثر سعادة من زميلاتهن الراضيات نسبياً عن عملهن ، أو من زميلاتهن اللواتي في مثل أعمارهن ، واللواتي ما زلن يرتدن المدرسة . والوقائع أقرب إلى أن تثبت أن هاتيك الفتيات يبحثن في وقت مبكر أكثر ، عن الاتصالات الجنسية ، ويمارسنها مراراً أكثر ، لأنهن يكرهن عملهن ، أو أن هذا العمل لا يشبع مطامحن ، وحينئذ يلتصقن بشعب هذه المطامح في العلاقة (الجنسية) لكنهن على كل حال لا يجدن ما يبحثن عنه ، ذلك لأن عملهن قد جعلهن كذلك عاجزات عن بلوغ المتعة الجنسية . إن شوفيلدم يحدد ، على وجه التخصيص متوسط حالات بلوغ ذروة المتعة الجنسية لدى العاملات الشابات . ومن بين جميع الفتيات اللواتي يمارسن علاقات جنسية ، واللواتي طرح عليهن هذا السؤال : (هل تلتذ لك ممارسة العلاقات الجنسية ؟) أجاب ٥٢ ٪ منهن فقط بكلمة (كثيراً) . وسيظهر المثال التالي أن النسبة المثوية للفتيات اللواتي أجبن بكلمة (كثيراً) هي أقل بكثير بين الفتيات المنتسبات إلى الفئات الدنيا .

لدى الفتيان ، لا نجد فرقاً مماثلاً بين فئات الشفيلة اليدويين وغير اليدويين . ويميدنا هذا مجدداً إلى قضية عدم تزامن تحرير المرأة ، الاجتماعي والجنسي على حد سواء ، هذه القضية الملازمة للنظام الرأسمالي : مؤكداً أن لدى الفتيان ، في

محملهم مقداراً من « التجربة الجنسية » أكبر ، بمقدار ما يكونون قد غيروا أعمالهم مراراً أكثر (علامة على عمل غير موصوف) ويحتفظون بشطر أكبر ، من مداخيلهم ، لحاجاتهم الخاصة (علامة على استقلالهم عن العائلة) .

ولكن بتعارض مع هذا التكيف الاجتماعي الاقتصادي المتزايد ، للفتيان والفتيات ، تستمر المرأة في معاناة قمع جنسي أكبر ، تقليدياً . إن الاندراج في عالم العمل يستثير عادة ، أيضاً ، تكييفاً للحياة الجنسية مع المعايير الصناعية . إن مضاعفة التجارب الجنسية يعني تلقائياً ازدياد تجربة بلوغ ذروة النشوة الجنسية . والأمر بخلاف ذلك تماماً بالنسبة للمرأة . ولدى التبسيط المفرط يمكن أن نقول : إن المرأة ترد على التحرير الاجتماعي القمعي بتمجيد جماعي لحالة بلوغ ذروة المتعة الجنسية .

(٢) هناك دراسة خاصة وضعها « لي راينوتر » ^(١) عن السلوك الجنسي للطبقة الدنيا ، وهي تقدم لنا معلومات حول العلاقة بين السعادة الجنسية الزوجية والوضع الطبقي . وقد جاءت تحليلات كنسي بالبرهان على أن قدرة المرأة على بلوغ ذروة المتعة الجنسية تزداد بنسبة درجة تزايد تعليمها . ولكن حتى منذ ذلك الحين (كان يفترض أن قدرة المرأة على بلوغ ذروة المتعة الجنسية لا تتوقف ، في الاصل ، على درجة تعليمها ؛ فإذا صح هذا الترابط ، فإنه

(١) لي راينوتر «Some aspects of Lover Class sexual Behavior» in Ira. L. Reiss (éd) the sexual Renaissance in America, No 2, année XXII du journal of social Issues, p 96 - 108.

وهذه النتائج قد دعما ج - ر أودراي وم. هال في دراستها

« Role segregation and social Network in Middle Class, Middle - aged couples (in journal couples) in journal of Mariage and Family, : ٣٩٥ - ٣٩٢ ص ١٩٦٥ - ٢٨ العام

سيكون ، على كل حال ، برهاناً جميلاً جداً على «انسجام الروح والجسد» . لقد اكتشف راينوتر ، باديء بدء ، ان نساء الطبقات الدنيا جداً ورجالها المتزوجين ، يجدون ، على حد سواء ، مقداراً أقل من الاهتمام واللذة (Interest et enjoyment) في العلاقات الجنسية الزوجية ، مما يجده أزواج وزوجات الطبقة العلوية - الدنيا ، وان هؤلاء بدورهم ، يجدون في العلاقات الجنسية الزوجية مقداراً ، من المتعة والاهتمام أقل مما يعرفه أزواج وزوجات الطبقة الوسطى Middle class . (انظر اللائحة رقم واحد)

اللائحة رقم واحد (١)

أزواج	من الفئات الوسطى	الفئات الدنيا-العليا	الفئات الدنيا-الدنيا
اهتمام ولذة عالين	٪ ٧٨	٪ ٧٥	٪ ٤٤
اهتمام ولذة متوسطان	٪ ٢٢	٪ ٢٥	٪ ٤٦
زوجات			
اهتمام ولذة عالين	٪ ٥٠	٪ ٥٣	٪ ٢٠
اهتمام ولذة متوسطان	٪ ٣٦	٪ ١٦	٪ ٢٦
موقف أقرب إلى السلبية			
إزاء الممارسة الجنسية	٪ ١١	٪ ٢٧	٪ ٣٤
يرفض العلاقات الجنسية	٪ ٣	٪ ٤	٪ ٢٠

بحث راينوتر عن أسباب هذه الفوارق واكتشفها في نوع العلاقة بين مختلف الأدوار النسوبة إلى كل من الشريكين تبعاً للفئات الاجتماعية . ذلك لأننا

(١) راينوتر - المرجع المذكور ، ص ٩٨ .

لاحظنا ، لدى قيامنا بتحقيقاتنا ، أن أزواج وزوجات الفئات الوسطى كانوا أكثر ميلاً لأن ينظموا بصورة مشتركة نشاطاتهم المنزلية ، في حين أن أزواج وزوجات الفئات العمالية والدنيا كانوا أكثر ميلاً إلى الفصل بين الدور الاجتماعي لكل منهم ، استناداً إلى انفصال حيواتهم أو سيرهم (Functioning) وانفصال مصالح الرجل والمرأة . وقد استطاع رينوتر أن يصنف معطيات تحليله إلى « انفصال متوسط » (intermedialter) (segregation و « انفصال عال ») (highly segregated) للأدوار الاجتماعية في الحياة الزوجية ، وخلص من ذلك كله إلى الاستنتاج البسيط ، لكن الكبير الأهمية : أنه كلما كان الانفصال أكبر في الأدوار الاجتماعية المنسوبة إلى كل من الزوجين ، كان أكبر أيضاً « الانفصال » في العلاقات الجنسية .

اللائحة رقم ٢ (١)

الأزواج والزوجات ، من الفئات الدنيا ، ذوو الأدوار الاجتماعية الزوجية المنفصلة ، يحسون بلذة أقل ، في علاقاتهم الجنسية :

انفصال شديد	انفصال متوسط	أزواج
٥٥ %	٧٢ %	اهتمام ولذة عاليان
٤٥ %	٢٨ %	اهتمام ولذة متوسطان
		زوجات
١٨ %	٦٤ %	اهتمام ولذة عاليان
١٤ %	٤ %	اهتمام ولذة متوسطان
٣٦ %	٣٢ %	موقف سلبي إزاء الممارسة الجنسية
٣٢ %	- %	يرفضن العلاقات الجنسية

(١) رينوتر - المرجع المذكور ، ص ١٠٠ ،

هذه الاحصائية تشمل فقط الأزواج والزوجات البيض . وتلاحظ نفس الميول لدى الزوج ، إلا أن النسبة المثوية لاشباع الرغبة الجنسية لدى الزوج أكثر ارتفاعاً ، في مجمله .

- وبوسعنا أن نكمل نحن بقولنا : إنه كلما كان المستوى الاجتماعي للزوجين أدنى ، ازداد احساس الزوج والزوجة بعبء : أ) الاضطهاد المادي ، الذي يواجهه الشريك ، ولكن أحدهما بمعزل عن الآخر ، في نضالهما الاقتصادي من أجل المعيشة ، ب) عدم كفاية التعليم الذي تلقاه كل منهما ، والذي يؤدي إلى أنهما لا يستطيعان ، عبر تجاربهما المعاشة ، بصورة منفصلة ، أن يصوغا معاً دائرة نشاطات مشتركة (تربية الأولاد ، الرياضة ، الثقافة ، الخ) ، بل بالعكس ، فإنهما يضطران إلى أن يجددا ، بصورة كاملة ، انقسام عملهما ، داخل حياتهما العائلية ، وضمن أوقات فراغها ، ج) إنها يعانيان عبء تربيتهما السابقة ، والتي كان عليهما خلالها أن يتعلما في وقت مبكر جداً . - على كل حال في وقت أبكر مما لدى الأطفال المنبثقين من الفئات الاجتماعية العليا - كما يحسان بأن الحياة الخاصة هي ميدان يتعارض مع جميع الميادين الأخرى ، وأن الميدان الأول لا يمكن أن يسلم إلا رغم الجميع وضد الجميع .

ويفترض راينووتر أن هذه العوامل الاقتصادية تلعب دوراً مماثلاً في العلاقات الجنسية ما قبل الزواج .

٣) إن المداعبات الممهدة للعمل الجنسي ، في الفئات الوسطى والعليا ، ليست فقط أكثر غنى من تلك التي تمارس في الفئات الدنيا : بل إنها تتخذ كذلك أهمية أكبر بكثير ، كفيها وكماً . وإلى جانب هذا ، فإن الاستمناه بالعادة السرية هي مصدر للتمتع يتزايد تواتره (كثرة عدد مرات ممارستها)

وفرفته كلما ازداد ارتقاء سلم الفئات الاجتماعية . وبالمقابل ، فإن فتيات
وفتيات الفئات الدنيا يبدأون بممارسة علاقات الجماع بين الجنسين ، في وقت
مبكر أكثر بكثير ، مما يحدث لدى أبناء وبنات الفئات العليا . طبعاً ، ان
رجال وخصوصاً نساء الفئات الدنيا يتزوجون في وقت مبكر أكثر منه لدى
رجال ونساء الفئات العليا . لكن هذا لا يفسر تلك الفوارق . والأحرى بنا
أن نتساءل لماذا يتزوج أبناء وبنات الفئات الدنيا وهم في أول الصبا ولماذا نجد
نشاطهم الجنسي قليل التنوع والتمايز الى هذا الحد . لا شك مطلقاً في أن سبب
ذلك هو المصالح التقليدية للفئات العليا ، في توطيد سيطرتها ايدولوجيا
 واجتماعياً ، ويتصف بأهمية أكبر بالنسبة لهذه الفئات ، أكثر منه للفئات الدنيا ،
أن يتزوج أبناؤها وبناتها متقيدين بالقواعد الاجتماعية ، ووصول الفتاة عذراء
الى الزواج ، وعدم الخروج مع فتى من طبقة اجتماعية أدنى من طبقتها ،
وبالنسبة للفتى ، أن لا يماشر فتاة من طبقة أدنى من طبقته ، إلا وهو يمتبرها
فاسقة ، الخ .

لكن هذا لا يستطيع مطلقاً أن يفسر كل شيء : إن على الفتيان الأحداث ،
أبناء الفئات العليا ، أن يثابروا على تلقي تربية مدرسية أطول أمداً افهم ،
إذا ، حسب مفهوم الأخلاق البورجوازية ، محكومون ، زمناً أطول ، بالامتناع
عن ممارسة الجنس ، أو أيضاً أن يبقوا في مرحلة جنسية وسيطة ، لكي تبقى
لديهم القدرة على التعلم والاستيعاب (لكي لا يضطروا لترك المدرسة أو الجامعة
قبل الأوان ، الخ) . لكن هذا لا يوضح ، على كل حال ، لماذا نجد ممارسة العادة
السرية أقل شيوعاً ، لدى أبناء الفئات الدنيا . والواقع أننا نعرف أن هؤلاء
الشباب ، أو الفتيان منهم على الأقل ، يتعرفون الى العادة السرية في وقت
مبكر ، شأن رفاقهم وأترابهم أبناء الفئات العليا ، بل يتعرفون الى تلك العادة
قبل هؤلاء . لكن وسطهم العائلي ، وتربيتهم المدرسية المحدودة ، وعلى الأخص ،
ووضعهم كشغيلة ، لم تتح لهم أن يطوروا قدرة ذهنية مفكرة قادرة على تحقيق

تداعي للصور والأفكار الخ^(١) . الا أنه ، لكي تستطيع ممارسة العادة السرية أن تحل محل مصدر ذاتي للذة ، فهي تتطلب قدرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه الوظيفة ، وقدرة تخيلية عالية ، وعند الاقتضاء ، سهولة الاستعمال . ويبدو أن هذه القدرة هي ، بصورة عامة ، شرط أولي لجميع الأشكال المتنوعة ، لاشباع الرغبة الجنسية . ولهذا السبب أيضاً يقبل شباب الفئات الدنيا العادة السرية بصفاتها « مكبهاً مسمفاً » ، وليس بصفتها مصدراً ذاتياً للذة . إن نقص الرهافة ، وانتفاء طابع الحب وسحر الشهوة ، في العلاقات الجنسية لأبناء الفئات الدنيا ، يعودان في شطر لا بأس به منها إلى تشويه قدرتهم التخيلية .

ومن جهة أخرى علينا أن نسجل هنا ، في ميدان آخر ، قوة (الامتناع عن اللذة من أجل لذة مؤجلة ، أرفع مستوى) إن الوجه الاقتصادي اللفظ لهذا المبدأ هو الذي يمس أبناء الفئات الدنيا . ويفرض عليهم الامتناع الفوري . (وتؤجل اللذة) ، أما التخلي الفوري عن الاستهلاك فستحيل عليهم ، وهذه الأمور تعادل عندهم الامتناع الأبدي . وبالنسبة للفئات العليا وشطر من الفئات الوسطى ، فقد كان لهذا المبدأ ، على الأقل ، وجه (مريح) و (ممدد) ، وان كان مزعجاً في بعض الأحيان . وكان الفتى ابن الفئات العليا يلاحظ ، في أفضل الحالات حين كان يستلم ميراث والده ، ان (الامتناع) الذي أخضعته له تربيته المدرسية الطويلة الأمد ، وتعمفه الجنسي الخ ، كان مريحاً . وكان على الولد الحدث من أبناء الطبقة العاملة أن يتخلى بصورة عامة ، عن التربية المدرسية

(١) انظر في هذا الصدد دراسة أولدرش اوفمان التي عرض فيها لخص كثيراً من معطيات هذا الموضوع ، ولاسيما الأبحاث التفصيلية الأميركية :

**Soziale schichtung und Begabung « in Zeitschrift für
Padagogik, 6e supplement, weinheim 1966**

الطويلة الأمد ، أي أيضاً ، وبسبب ذلك ، عن أوقات الفراغ ، وعن الحفلات الراقصة والمتمتع الخ . وحين كان يتاح له ، شكلياً ، الدخول إلى المؤسسات التربوية ، لم يكن بوسع أحد أن يشرح له ما هي غاية هذا الامتناع الاقتصادي المرتبط به . وكيف يستطيع أن يطبق دفعة واحدة ، في حياته الجنسية هذا المبدأ ، مبدأ تأجيل إشباع الفرائز الجنسية من أجل لذة مؤجلة ، أرفع مستوى ، هذا المبدأ الذي لم يعرفه ، في عائلته ، ومدرسته ، ومحيطه ، إلا بصورة غير كافية اطلاقاً ؟ ولسوف يتوجب عليه ، بالأحرى ، أن يعلم بأن « الفجوة هي فجوة » ، وأن يُنمي لديه سمة من الطباع تعطيه مفهوماً عن الانسان ، خاضعاً ، راضخاً لنوع آلي مزيف من المساواة ؛ لذلك لن يتمكن من أن يدرك عبوديته الاجتماعية بصفتها كذلك ، ولن يرد عليها الا بسخرية المهزومين الواقعة .

لقد أثبت ماركوز في تحليلاته السوسولوجية أنه « يحدث منذ بعض الحين نزاع قمعي للطابع السامي للفرائز والنشاطات الجنسية ، . إن نتائج الأبحاث التجريبية - تقسيم ، في الحقيقة ، مظهر السلوك الجنسي ، فقط ، تماماً شأن الدراسات المتعلقة بالإيديولوجية والتكليف والتزييف التضليلي الجنسي في الدعاية ، والاستهلاك ، ووسائل الإعلام الجماهيرية الفخمة ، أقول إن نتائج تلك الأبحاث تجعلنا نفترض أن هذا التحول يحدث حقاً في الفئات الوسطى أكثر منه في الفئات الدنيا . وفي الوقت نفسه فمن الصعب كذلك رسم خط فاصل وواضح تماماً بين الفئات الدنيا والفئات الوسطى ، لا سيما وأن السلوك الجنسي لا يتغير بنفس سرعة تغير المداخل أو أعمال الاستخدام . ولأجل خدمة أفضل « للحضارة الصناعية المتقدمة » ، فليس من الضروري - لم يصبح بعد من الضروري - إخضاع الفئات الدنيا لعملية نزاع قمعي للطابع السامي للفرائز الجنسية ، على نحو ما حدث بالنسبة للفئات الوسطى . مثلاً ، إن ازدياد الاستهلاك والتكليف مع غط استهلاك معين ، في الفئات الدنيا ، لا يتطلبان نفس الانقلابات

في السلوك كما هي الحال ، في الطبقات الوسطى . وبالنسبة للأولى لم تكن ثمة ضرورة شديدة لأن تكون لديها تقاليد ايدولوجية عن وظيفية متصلة ، وضرورة التعفف ، ذلك لأن هذه الوظيفية كانت تضمن بصورة مباشرة أكثر بكثير بواسطة القسر الاقتصادي ، ومحيط عملهم - أي أبناء الطبقة الوسطى - دائرة قضائهم أوقات الفراغ والمتعة . ولكن يلاحظ ، في الوقت نفسه ، أن المعايير الجنسية لدى الفئات الدنيا هي أيضاً أكثر تصلباً ووضوحاً مما هي لدى الفئات الأعلى .

لا يستطيع أن يوضع على صعيد واحد تصلب المعايير الخارجية لدى الفئات الدنيا ، والوظيفية المتصلة التقليدية عند الفئات الوسطى . والأصح القول إن لهذه الوظيفية وظيفية تكيف غير مباشرة (تماماً على غرار خَلْفَهَا : النزاع القومي للطابع السامي) ، أما الأخرى فذات وظيفية خارجية إجبارية لتحقيق التهدئة والاستقرار . إن النشاطات المهنية للأكثرية الساحقة ، لأفراد الفئات الدنيا ، هي قليلة المرونة جداً ، وليست متعلقة ولو قليلاً جداً بمجرد مظهر للتقرير المستقل ذاتياً ، ومع ذلك فتلك النشاطات المهنية تهرق بثقلها الشديد « أفكارهم وتصرفاتهم » ، بحيث ينبغي إبدال فقدان الاستقرار الداخلي (أو الهوية) كلياً ، تقريباً ، وقد انبثق ذلك من النشاطات المذكورة ، بضبط خارجي متصلب إلى أقصى حد ، إذا أردنا تلافى سقوط الفئات الدنيا في حالة لامبالاة تامة إزاء جميع المعايير القائمة . هذا الاستنتاج المشدد ، والمدعوم مع ذلك بدراسة الفئة الموجودة أيضاً تحت الفئة الدنيا المنبينة (ذات البنية) مثلاً ، فئة الطبقة الدنيا جداً Lower Lower Class الأميركية . إن منظومة الرقابة الخلقية والمعوقات القضائية المشددة لا تصل إلى الثقافات - التحتية - أو الباطنية - للأحياء الأشد فقراً (Slums) ، ولا « إلى حطام الناس ، غير المرغوب فيهم » ، الذين لفظتهم حركة الإنتاج . ومن طبيعة منطلق الأشياء أن تعرف هذه الجماعات « فقداناً مطلقاً للقيم والمعايير » لا يلاحظ علماء الاجتماع

مثيلاً له في أي مكان آخر، من تكاثر خطير للاصابات بداء الفصام (الشيذوفرينيا)، وحالات الزنا والبغاء، وبصورة عامة، تصرفات جنسية تتصف بفقدان تام تقريباً لثبات الهدف أو الاستقرار الشخصي؛ وسيان إن كان الأمر يتعلق بعلاقات جنسية بين أفراد من الجنسين، أو أفراد من جنس واحد (الواط، والسحاق) (١).

الوظيفة التطبيقية للتربية والتكييف والاستخدام الجنسية : تعزيز الانقسام الاجتماعي .

التربية الجنسية، كما تمارس اليوم، هي أداة تضليل واستخدام فعالة بصورة خاصة لأجل التكييف الاجتماعي؛ ولأنها تعطى دائماً للطابع الأكثر حداثة،

(١) هذا المعنى مستخلص من جميع الفحوصات الميدانية التجريبية، التي تثير مشكلة حالات داء الذهان، الذي يعبر توزيعه عن انقسام المجتمع إلى طبقات. والأبحاث الأميركية هي وحدها حتى الآن التي اهتمت بصورة دائمة بدراسة هذه المشكلة.
وأهم الترجمة أو الخلاصات باللغة الألمانية هي التالية :

- 1) Th. Lidz, Zur Familienwelt des Shizofren psychc
XIII année, 1959, cahiers 5 - 6.
- 2) L. C Wynne et M. T Singer, Denkstörung und
Familienbeziehung bei Chizophrenen, psyche,
XIX année, 1965, cahier 2.
- 3) Heide Berndt, Zur Soziogenese psychiatrischer
Erkrankungen, in Der Kranke in der modernen
Gesellschaft, New Wssenschaftliche Bibliothek,
tome 22, Cologne et Berlin, 1967, p. 454 à 482.

وهذه المؤلفات تعرض كذلك الأبحاث الأميركية الرئيسية في هذا الداء - المعقدة .

فهي أيضاً بارومتر حساس جداً لحالات تقدم عملية التكييف هذه ومجموعة الأدوات المستخدمة لأجل ذلك .

لن نأخذ في الحسبان ، في هذا الفصل ، التربية الجنسية الرسمية التي يمارسها الجهاز الإداري التابع للدولة ، ولا مجموعة الكتب العلمية المؤلفة في هذا الصدد - التربية الجنسية - بصرف النظر عن مضمونها الانتقادي أو التوجيهي المشدد . بل سلتوضع دراستنا على مستوى أدنى ، وسوف نركز انتباهنا على الظاهرتين التاليتين ، إذ أن فعاليتها أكبر من فعالية التربية الجنسية الرسمية : السوق المتخصصة للكتب الجنسية من طراز « كيف يمارس الآخرون الحب » و « الجنس في المكتب » الخ . والظاهرة الثانية هي المحتوى الجنسي المعبر عنه بصورة مباشرة أو غير مباشرة بواسطة المطبوعات الدورية الواسعة الانتشار جداً . هذه المطبوعات تبدو في أعين النقاد المدافعين عن القيم التقليدية ، بمثابة « طوفان » يستثيره ، من جهة ، جمهور واسع من المستهلكين المهتمكين ، المرضى بفكرة ثابتة واحدة هي الجنس ، وهم أشخاص دون وازع ولا حياء ، وينتججه من جهة أخرى ، أشخاص جشعون متمطشون إلى الربح ، يدافعون عن منافعهم الخاصة . ويقول أولئك النقاد : يجب أن يُقام ضد هذا الطوفان سد من التربية (١) ، ومعايير وقواعد سليمة (٢) . وهناك نقاد اشتراكيون وغيرهم ، وهم تقدميون ، يبسطون الأمور في أحيان كثيرة إذ لا يرون في ذلك النوع من المطبوعات سوى

(١) انظر : Brüggenmann, Sexuelle Konflikte in Gymnasion, Heidelberg . 1969 .

وكثيراً غيره من المراجع المائة .

(٢) انظر من جملة كثير من المراجع التي تتحدث على هذا النحو :

Schelsky, Soziologie der sexualität , Rde Hambourg,

1955.

(وبخاصة ص ١٢٧)

نزعة وحيدة الخط نحو « منح المتعة الجنسية ظاهرياً ، ^(١) ونحو « نشر الإثارة الجنسية الدائمة كبديل عن المتعة ، ^(٢) أو نحو « النزاع القومي لطابع التسامي ، ^(٣) . وهي نزعة يمكن على كل حال أن تمس جميع أفراد المجتمع بنفس المقدار ، باستثناء أولئك الذين يتمتعون بفكر انتقادي ، واع . هذا الموقف صحيح من حيث الأساس ؛ إلا أنه ينبغي أن يؤخذ في الحسبان التحفظ التالي : إن هذه العمليات والتفاعلات تستثيرها وسائل متنوعة تبعاً للفئات الاجتماعية ، وكثيراً ما تكون تلك الوسائل متناقضة ظاهرياً . واختيار الوسائل يجري ليس فقط تبعاً لقابلية التلقي لدى الفئات المذكورة ومتوسط ذكائها ، بل أيضاً تبعاً للهدف النوعي ، أي الغرض من عملية التكييف هذه . بيد أنه ، حتى الأشخاص ذرو الروح الانتقادية ، والوعي ، ليسوا ، بصورة قبلية ، وسبقاً للتجربة a priori بمنجاة من عمليات الاكراه والارغام هذه ؛ إن النزاع الموجه لطابع التسامي يدخل إلى منازلهم ونفوسهم أيضاً بواسطة عوامل خاصة ومنوعة بصورة ملائمة ، وينتجها ، على كل حال ، هؤلاء الأفراد أنفسهم .

إن كتب الجنس ، والمثيرات الجنسية التي تنشرها الأفلام ، والأزياء الشائعة ، والموضة ، والاعلانات ، والريبورتاجات الجنسية في المجلات المصورة الكبرى (الماغازين) وأبواب النصائح الطبية للعائلات ، والحلول الجاهزة للمشاكل الشخصية ، في المجلات المصورة (الماغازين) كل هذا « الطوفان ، المشوش

(١) Rudi Dutschke. in Der Spiegel no. 51 - 1967 - p. 62

(٢) A. et M. Mitscherlick, Die Unfähigkeit zu trawern
Munich, 1967. p. 290.

(٣) هـ. ماركوز ، المرجع المذكور آنفاً .

ظاهرياً والفاقد للنهج المرجح يمكن تصنيفه تبعاً لمعايير التكيف الاجتماعي -
الجنسي :

(١) إن وسائل الاعلام الجماهيرية الواسعة الانتشار لتكثيف الناس ،
وأدوات التضليل والتزييف ، تعمل بواسطة مجموعة كبيرة من الرموز
والحوافز والمهرضات التي تتدخل انطلاقاً من التنظيم الما قبل الجنسي التناسلي
لل فرد ، وتؤكد بتشديد على الدائرة الخاصة والعامة للحياة الجنسية التناسلية .

من جملة هذه المهرضات نجد : الوعد بالسعادة المستحيلة (الحب العظيم في
إطار جذاب له جمال البلدان الشرقية النائية exotisme ، الحصول على الجائزة
الكبرى في اليانصيب ؛ الاستغناء عن العمل إثر زواج من امرأة غنية ؛ الشباب
والفتوة ، والجاذبية الجنسية الدائمة أبداً (وذلك بفضل الهرمونات ، وعمليات
تدليك الصدر ، والعلاجات بالفواكه) ، سير الحياة المهنية الترجسية
Narcissiques (عارضات الأزياء ، وفتيات الغلاف الفاتنات ، ونجوم السينما ،
وأبطال الرياضة) ؛ الجمع بين دوافع الاشمئزاز ودوافع النظافة (ظاهرات من
فيلم « موندو كاني » ، سأكتسب الفتنة وأصبح مشتهة منذ أن استعمل Xy ؛
افراغ الروح العدوانية على الجماعات « المتحررة جنسياً » (اللواتيين ،
والسحاقيات ، والهيبين ، والطلبة) ؛ تعبئة واستخدام القلق الذي هو بصورة
ظاهرة مضاد للرغبة الجنسية والمتصف بالمعصاب ، وهو في حالة الكون (حبوب
مانعة للحمل تحدث نفس تأثيرات التاليدوميد) .

وفي السنوات الأخيرة ، عرضت المطبوعات المتخصصة في هذا الصدد
بصورة واضحة وتفصيلية كيفية عمل هذه المهرضات ومثيلاتها الأخرى (١) .

(١) راجع بصورة خاصة و. ف. هونغ Zur Asthetig von Manipulation
in Das Argument no. 25. 1967. p. 23-36

لكنها عرضت كما لو كانت تعمل وتؤثر بنفس الكيفية على جميع أغراض التكيف ، باستثناء أولئك الذين يريدون الإفلات من السمي لجمعهم « أغراضاً » ، ويعتمدون ، لتحقيق ذلك الإفلات ، تفكيرهم الانتقادي . لكن الواقع مختلف ، فهذه الحوافز والمهرضات مصوغة رمكيفة تبعاً للانقسام الاجتماعي وتبعاً لبعض الفئات الموجبة إليها تلك الحوافز ، وتلك الفئات محددة عن درس وخبرة ، في أغلب الأحوال .

(٢) كلما كان المستوى منخفضاً في سلم الفئات الاجتماعية ، ستكون وسائل التكيف أكثر فظاظة وصراحة . ولكن قبل كل شيء : ستكون أكثر تصلباً معايير التكيف الاجتماعي والجنسي المطلوب بلوغها . وكلما كانت الفئة الاجتماعية أرفع ، سيكون أكبر هامش المناورة ، الذي يقوم بحسابه واضعو طرائق التكيف والتضليل ، هذا الهامش الذي تمنحه الطبقة المسيطرة ، ويترك للتنوعات الفردية وللحريات الظاهرية .

ويبدو أن العديد من هؤلاء النقاد ، وبينهم قبل كل شيء التقدميون ، قد صاغوا موضوعاتهم حول « نشر المتعة الجنسية ظاهرياً » أو « الزرع القمعي للتسامي » ، وذلك انطلاقاً من دراسة أرفع الفئات الاجتماعية بين الفئات المُكَيِّفة على أوسع نطاق ، يعني : انطلاقاً من عملية التكيف متصورة تبعاً للطبقة الوسطى بالضبط ، أو في أفضل الأحوال تبعاً للطبقة العليا الوسطى ، أي عملية التكيف التي تمارس تأثيرها على الشباب من رجال الأعمال ، والمستخدمين ، وأمناء سر الإدارة . وينبغي تحليل ودراسة مجلتي « توين » و « ايلترن » ومع ذلك ينبغي أن لا ننسى « برافو » و « دار نوي بلات » .

لنأخذ بمثابة مثال المجلة المصورة الكبرى (الماغازين) « ايلترن » (١)

(١) يتعلق الأمر هنا بأعداد كانون الأول ١٩٦٧ من مجلة « ايلترن » (الأهل) .

وهي أقوى مجلة تأثيراً بصدده التكيف الاجتماعي والجنسي للزوجين . إن هذه المجلة المصورة الكبرى تتوجه إلى الأزواج والزوجات الفتيان من الجماهير الواسعة ، للفئات الوسطى الذين هم في المرحلة الأولى من بدء استقرار حياتهم الحميمية ووجودهم المادي . وفي الصفحات الدعائية ، التي تأخذ حيزاً كبيراً من المجلة ، تسود الاعلانات عن الملابس العملية والشائنة ذات الاستعمال اليومي (بتعارهن مع خياطة الملابس الفاخرة) والوجبات الجاهزة (الكابا ، الأليشي) والمقويات (تيفرنتول والمالكافيت) والألعاب والملابس الداخلية و الـ auzy وزينات الهواية ؛ ولا نجد إعلانات عن السجائر والمشروبات . وهذه المجلة - الماغازين تقرأها ، بصورة خاصة ، النساء المتزوجات - أما المقالات ، التي يوصي بها الآباء بصورة خاصة ، فيشار إليها بنجمة في فهرست المواد . والوصية العليا لهذه المجلة هي : السعادة الزوجية بأي ثمن كان أو تقدم تنازلات كثيرة لأجل هذه السعادة في القسم المخصص من المجلة للتربية الجنسية . ويمكن أن نقرأ في هذه الصحيفة ، بنفس نية كينسي ظاهرياً : « لقد اكتشف الأميركي كينسي ، لدى استقصاءاته ، فوارق كبيرة في فهم الحياة الجنسية والسلوك الجنسي تبعاً لمتخلف الفئات الاجتماعية في الأمة » . وهذه الفوارق ذات دلالة بصورة خاصة مثلاً بصدده التعري أو المداعبات المهددة للعمل الجنسي [.....] . وهذا الموقف يتغير كلما صعداً في السلم الاجتماعي . وكلما كان مستوى التعليم والوضع الاجتماعي أعلى كان تطلب العري أثناء الجماع ، أكثر (١) . أو أن المجلة تقدم نصائح عملية للحصول على أعلى حد من اللذة أثناء فترة الحمل ؛ [..] أو أن الرجل يعاشر المرأة وهي تدير له ظهرها . وتحذر المرأة بشدة ، حين تكون فترة الحمل متقدمة ، أن تتخذ الوضع المسمى وضع الفارسة ، ذلك لأن قضيب الرجل يمكن أن ينفذ بسهولة عميقاً جداً ويستثير تحريضات آلية

(١) « إيلترن » العدد المذكور ، ص ١٢٤ .

ضارة» (١). ويمكن أن ينشأ باديء بدء، لدى قارىء مثل هذه الكتابات الانطباع، المدعوم على كل حال بسيطرة أنماط الاستعمال الإعلامية في أعداد هذه المجلة وزميلتها، الانطباع بأن الأمر يتعلق هنا، بالضبط، بعملية تكييف للزوجين، كما تقضي بذلك الأزمنة المصرية، وكما تتطلبه الحضارة الصناعية، التي ورثت كثيراً من الأفكار المسبقة والأوهام اللاعقلانية. وهذه، على درجة التحديد، الفكرة السائدة في سلسلة من المقالات حول التربية الجنسية.

فان دي فيلده عام ١٩٦٧ : « هذا التقرير وضع نصب عينيه منذ البدء ، بثابة مهمة ، الازالة التامة للقلق وإلغاء عدم الاحساس بالأمن والسلامة ، وذلك بتقديم معلومات واضحة » (٢) . لم يكن « ممكناً » ، منذ خمسة أو عشرة أعوام ، التحدث في مجلة نسائية عن توجيهات تتعلق بالصحة الجنسية ، بنفس الطريقة طريقة ما أوردناه من نماذج : إن نمط التكييف ، المتطلب حق من المرأة الصبية ، وذات النشاط المهني ، المنتمجة إلى الفئات الوسطى ، ظل قبل الفترة التي ذكرنا ، مخنوقاً بالخضوع . إذن هنا ، مع أن « إشباع الرغبة الجنسية ، الذي يسمع به المجتمع ، والمرغوب فيه ، أصبح ذا نطاق أوسع بكثير ، (ماركوز) : فإن المرأة تصبح غرضاً جنسياً « مستقلاً ذاتياً » - في إطار قسر الزواج الأحادي . وحتى ماركوز لن يقول « إن مبدأ اللذة ، عبر هذا الإشباع ، قد تعرض لعملية إنقاص » . إن مبدأ اللذة لا يتعرض حتى لعملية إنقاص ، وذلك بسبب واقع أنه مقصور في هذه المجلة ، على المرأة المتزوجة : إذا أننا سوف نرى أن مجلات مصورة أخرى ، « توين » مثلاً ، توجه أيضاً إلى بعض التوسيمات لامكانية إشباع الرغبة الجنسية بالنسبة للشابة غير المتزوجة ، المنتمجة إلى الفئات الوسطى . لكن الشيء القمعي هنا ، هو الصلة النوعية التي تربط هذا

(١) مجلة « توين » العدد المذكور ، ص ١٢٧

(٢) المرجع ذاته ، ص ١٢٩ .

التحرر الجزئي بالمستوى الاجتماعي الاقتصادي المهرز في كل حالة من الحالات .
والشيء القمعي هنا ، هو عملية حصر الأنماط المسموح بها من إشباع الرغبة
الجنسية ، حسب ما يتعلق الأمر بامرأة متزوجة أو عزباء ، أو برجل أعزب ،
أو متزوج ، أو عاشق ، أو إذا كان الأمر يتعلق بمراهق حدث من الفئات الدنيا
أو بمراهق حدث من الفئات المتوسطة . إن عمليات الحصر هذه ، المتغيرة تبعاً
للأحوال ، تكمل وتحدد أيضاً من « الحريات الموسعة » في كل عدد من أعداد
« إيلترن » (والمجلات المصورة الكبرى من نفس الطراز) . وهكذا نقرأ في
نفس العدد من المجلة مقالاً « تكليلاً » كتبه ريناتي ، الضاربة الشابة على الآلة
الكاتبة وموظفة الاختزال sténodactylo . إنها حامل من صديقتها (وهو
فرنسي ، وبتعبير أدق ، كورسيكي ، وأمه فيتنامية ، ومهنته مهندس) كانت
ريناتي تريد ، بادىء بدء ، أن تجهض حملها [...] كنت أعرف طبيباً شديد
اللطف ومحباً لخدمتي ، ثم قرأت ، مصادفة ، مجلة « إيلترن » ، فامتنت عن
عملية الإجهاض ، وولدت طفلي . وأنا اليوم سعيدة . والأب يقطن طبيعاً
كورسيكا ، ذات المناظر الطبيعية البديعة ، ويحمل اسم غريمالدي ، البديع ،
حامل بين ذراعيه طفله فريدريك الذي يفوقه جمالاً أيضاً . والشابة ريناتي
ما تزال تعرف ، حتى اليوم ، كيف حدث كل ذلك ، تقول : « كما أنني ، حين
كنت في قاعة الحمام ، أحسست بأجنحة المعجزة تلامسني بلطف ، كذلك
أحسست الآن أنني سأعانتق مصيري . لقد أحسست في تلك اللحظة بأني ما
عدت أستطيع الفرار من مصيري ، وهو أن أكون أما » (١) . وهكذا انتهى
أمر كل مظهر من مظاهر التربية الجنسية ، التي خنقت بسرعة ؛ ولا شيء عن
الطابع الخطر أو غير الضار لعملية إجهاض تجري بصورة علمية ، ولا شيء عن
التمييز الاجتماعي والحقوق التي تقع ضحايا له الأمهات العازبات ، وأولادهن ،
ولا شيء عن الحق في حياة جنسية مؤسسة على اللذة والتي تجدد مبررها الوحيد

(١) « إيلترن » العدد المذكور - ص ١٨ ، ٢٠ ، ١٣٢ .

في الشخص الانساني ، ولا يبقى سوى المعجزة ، والسحر ، وسحر البلدان
 النائية . هذا النمط من التوجيه التكييفي نجده أيضاً ، بصور متفاوتة الوضوح
 والجلاء ، في جميع المجالات المصورة (الماغازين) التي من هذا الطراز . ويمكن أن
 نستخلص من ذلك صيغة عن التوجيه التكييفي ، خاصة بمختلف الفئات
 الاجتماعية : إن توسيع اشباع الرغبة الجنسية في قطاع اجتماعي معين ، تجري
 تقنيته est canalisé في الوقت نفسه بتحديد استبدادي « (انني ما عدت
 أستطيع الفرار من مصيري) » وبذلك يجري إلغاء ذلك التوسيع التحرري .
 وتظهر عملية « التوسيع » بمثابة هدية من قادة التوجيه التكييفي « (ثم قرأت
 مصادفة مجلة «إيلترن») . وهكذا فإن عبارة ماركوز تتخذ كامل معناها ، إذ
 يقول : « ولكن عبر هذا الاشباع للرغبة الجنسية ، تعرض مبدأ اللذة إلى عملية
 انقاص نظراً لأنه جرد من المطالب التي تتنافى كلياً مع المجتمع القائم . إن
 اللذة في هذا الشكل تولد الخضوع » .

سوف ندرك كل مغزى هذا الخضوع ، بوضوح ، حين سنقارن ، بين السياق
 الخاص للخضوع ، الموصوف في ماسبق وبين « عمليات توسيع اشباع الرغبة
 الجنسية » في فئات اجتماعية أخرى أو في مجموعات أخرى لأشخاص من أعمار
 معينة . إن عالم مجلة « توين » مكون من حياة جنسية قبل الزواج ، دون ندم
 ولا حسرات ، ومن أزياء وسلع شائعة ، درجة ^(١) وسيارات ، وحفلات عشاء
 أنيقة على الطراز الفرنسي ، وسير مهنية ناجحة ، وقليل من الثقافة ، والجواز
 وغناء الحنافس ، وطائفة من الأشياء التي يجب أن يمتلكها كل « توين » Twen
 (زوجين اثنين ، أو عشيقين) . ولا شيء يصف بصورة أفضل ، خصائص هذه
 الفئة من القراء ، مثل تعريفهم بأنهم « رواد الاستهلاك » ، هذا التعريف الذي
 ابتدع خصيصاً لهذه الفئة في دراسة تحليلية للقراء طلبها تروست « سبرنجر » ^(٢)

(١) درجة (بضم الدال وسكون الراء) أي الموضة (راجع « المنهل »)

(٢) « قراء (توين) » في Werbeträger - Analyse 1966 -

والواقع ، أن موقف التمرد لدى قراء « توين » الفتيان يجب أن يعالج بتهدئته
بعمليات استهلاك مسرفة ، لا حد لها . إنهم (رواد) التكيف ، - ابتداء من
جماعة المكسي - جوب حتى جماعة الجنسية المثلية (اللواط والسحاق) الذين
لا يستطيع بعد أن يقرب منهم الأشخاص المنتمون إلى عالم مجلات (برافو)
و (ايلترن) و (نوبزلات) .

لقد اقترحت الصفحة الشهرية المخصصة للعلاقات الجنسية في مجلة « توين »
لشهر تشرين الثاني على قرائها ، الموضوع التالي (لقد أرادت (توين) أن تعرف
مدى الصعوبة التي يواجهها العازبون والمازبات في الحصول على حبوب منع الحمل
في ألمانيا (...) . وكانت النتيجة تدعو إلى الارتياح . فوصفات الأطباء التي
توصي ببيع هذه الحبوب لم تعد شيئاً نادراً) . وبواسطة أمثلة ملموسة ، يصف
مكاتبو المجلة كيف توصلت إحدى الفتيات إلى الحصول على حبوب منع الحمل ،
مع وصف « تفاصيل العملية » بدقة كبيرة . بل ويصل الأمر بالمجلة إلى حد
إرشاد بعض قرائها ، إلى الأطباء الذين يمكن الاستعانة بهم ، في حالة عدم عثور
هؤلاء القراء على أطباء يصفون لهم حبوباً لمنع الحمل تؤخذ بالفم : (إن الذي
ليس لديه طبيب عائلة منفتح ، يستطيع الاتصال بمراكز الاستعلامات (انظر
اللائحة أدناه) . ويستطيع أن يحصل من أي مركز من هذه المراكز على عنوان
طبيب تقدمي . أما أولئك الذين يريدون المزيد من المعلومات الأكثر دقة عن
منع الحمل ، فنوصيهم بالحصول على الكتاب الوثائقي الذي وضعه الدكتور
هويبرت باسيا ، وسعر الكتاب ماركان (٢ مارك) ، ويمكن الحصول عليه

= وهي دراسة وضعها معهد استفتاء الرأي العام ،
النسباخ ، ص ٤ . راجع أيضاً تقرير هاينز شافر

Schichtenspezifische Manipulation des springer - konzern.

10 - 2 - 1968

بالكتابة إلى العنوان التالي (Berlin ^(١) S D S, 140 Kurfurstendam) .
 ذلك شيء جيد . وربما سيدهش القاريء ذي الموقف السياسي ، من أن «توين»
 التي يملكها ، مع ذلك ، تروست (سبرنجر) كما يملك (برافو) و (إيلترن)
 تقوم بالدعاية لمنظمة تطالب بشدة بتأميم تروست (سبرنجر) . وربما سيرى في
 ذلك بادرة من بوادر الديمقراطية والليبرالية التي تحدد هذه المؤسسة الصحفية
 الكبرى . والسؤال الذي يحنا ، باديء بدءه هو : «ماذا ستفعل الفتاة بحجة منع
 الحمل ؟ » . وفي تحقيق صحفي «خيالي» نشر في العدد ذاته ، تجيب عذراء
 غير معروفة الاسم ، قائلة بلهجة قاطعة - تماماً على غرار ما نجد في كل عدد ،
 على كل حال - : «أنا في التاسعة عشرة من عمري ، وما زلت عذراء حتى الآن .
 وباختصار ، يجب أن أتخلص من هذه الحالة » . والفتاة من بامبرغ ، ولدى
 خطيبها مفهوم أخلاقي يتوافق وذهنية أهل هذه المدينة ، وهو يريد أن تصل
 خطيبته عذراء محق ليلة الزواج . فماذا تفعل ؟ إنها تذهب إلى مونيخ لكي
 تتدبر أمرها . فماذا تجد هناك ؟ تجد أن رجلاً حقيقياً لا يريد فتاة عذراء .
 « ولم يبق أمام عذراء لم تعد تريد أن تبقى كذلك ، وقد ذهبت إلى حي شوابينغ
 (وهو «الحي اللاتيني» في مونيخ ، لم يعد أمامها سوى المعتمهين ، والسكارى ،
 وعمال المناجم المغمضين خوفاً ، واللوطيين... ورددت في السرير مع تيم . ولكن
 سرعان ما طردني إلى خارج غرفته . إنه لا يمارس الجنس مع عذراء . كل ذلك
 الخوف ، دون سبب ... وعرضت نفسي على طالب برليني (!) كان يسير من
 باب إلى باب يجمع الاشتراك لأحدى المجلات . وكشفت له عن محاسني ؛ فاتحة
 له مئزر حمام ، أبيض ، قصيراً جداً ، لا يوجد تحته أية قطعة ثياب » لكن هذه
 العملية هي أيضاً لم تنجح . وفي خاتمة المطاف لجأت هذه الفتاة للتخلص من
 بكارتها إلى رسام أبكم ، قام بذلك بلا مبالاة تامة ، ودون إقبال شخصي ، بل
 تماماً كما يرسم لافتاته « هذه اللافتات الكثيرة التي لا تحصى ، والحاملة شعارات

(١) «توين» - تشرين الثاني عام ١٩٦٧ ، ص ٥٣ و ٥٩ .

أقصى اليسار ، وشعارات أقصى اليمين ، حسب الظروف » واختتمت قصتها بهذه العبارة : « لقد أصبحت سعيدة جداً مع خطيبي في بامبيرت (١) » .

يمكن القول عن هذه القصة ، النموذجية ، في ما تنشر « توين » ، انها أقل بدائية ببعض الفروق البسيطة ، من حيث بناؤها ، عن القصص المماثلة الهادفة إلى التكييف ، والتي تنشر في « ايلترن » و« برافو » . لكن في هذه الفروق البسيطة ، بالضبط ، تقوم عملية تمايز التكييف التضييقي ، تبعاً للفئات الاجتماعية : وبالمناسبة نقول ان القصة مكتوبة بأسلوب ذي وجهين ، مصوغ من جهة من تهكم لاذع جداً (يتيح للقاريء تقريباً وبعدها عن الاندماج الانفعالي في الحادثة ، لكي يعمد الى تقييده لها ، من تلقاء ذاته) ومن جهة أخرى من أمر قاطع (يفرض المعيار الجنسي لما قبل الزواج) . أما الهدف التكييفي المقصود ، فهو ينتج عن هذا « الأمر الساخر » : ممارسة جنسية قبل الزواج ، نعم ، مغامرة أو مقامرة ، أجل ، علاقات جنسية دون خوف ، نعم ، ولكن - إن « الممارسة الجنسية قبل الزواج » تعني في الواقع : حياة جنسية خاصة قبل الزواج . ولكن ما من شك في أنه ، حتى في إطار علاقة زواج أحادي لاحقة ، لا يمكن أن تقوم حاله التحديد الثابت لغرض جنسي ، وكامل ، نعني به القدرة على الحب ، لا يمكن أن تقوم تلك الحالة لدى أشخاص رُبتوا على هذه الطريقة . إن قراء « توين » يحري ابقاؤها في حالة وصفها ميتشيرليش ، في سياق آخر ، على النحو التالي : « ايجاد تنميط تام لمستويات الأشخاص (...) (وذلك عن طريق) الاثارة الجنسية الدائمة بواسطة بديل مزيف للذة ، وذلك لطمس عدم الرضى ، المتزايد شدة أكثر فأكثر ، الذي يولده القيام بعمل تافه مل ، (٢) . إن مجلة « توين » وغيرها من عوامل التكييف التضييقي المماثلة ، في

(١) « توين » - تشرين الثاني ١٩٦٧ - ص ٦٠ وما يليه .

(٢) ميتشيرليش - المرجع المذكور .

الأفلام ، والدُّرْجَة ، والصحافة ، لا يسدون فساد القدرة على الحب في البدء ، لكن عملهم ينحصر بعد ذلك في تقوية عملية الافساد هذه وتفاقمها إلى درجة الخطر . إن « إيلترن » ، الصحيفة الطيبة ، المنشأة من أجل جمهور « يعيش أجمل سني حياته » ، وكذلك عوامل تكيف أخرى مماثلة مخصصة للجمهور بلغ سن الرشد والنضوج ، تقوم حينئذ بتنميط مستويات هذا الافساد إلى أقصى حد يمكن تحمله .

إن « برافو » ، وهي المجلة الوحيدة النموذجية بالنسبة لدورها ، والمتميزة بالخصائص حقاً ، والتي تتوجه إلى فتيان وفتيات الفئات الدنيا ، لا تقوم فقط بالتكيف التضليلي بصورة أكثر بدائية ، أو أكثر ظهوراً : إن الهدف المعلن من قبل التكيف هو أيضاً أكثر تصلباً ؛ إلى حد أنه لا يمكن عملياً الحديث عن « نشر جو حياة جنسية ظاهرة » ، بل يمكن بالأصح الحديث عن « تحقيق تناسب صحيح » ، كمي وكيفي ، لممارسة النشاط الجنسي . لكن « برافو » لا تتوجه فقط إلى فئة اجتماعية أخرى غير تلك التي تتوجه إليها مجلة « توين » . بل إن قراء « برافو » هم أيضاً أصغر سناً من قراء « توين » ، وقراء « برافو » هم قبل كل شيء ، فتيان وفتيات تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، وينتمون إلى الفئات الدنيا ، وقراء توين هم فتيان في الثامنة عشرة حتى العشرين من أعمارهم ، وينتمون إلى الفئات الوسطى .

إن مفهوم « برافو » للحضارة والأخلاقية يتصف بنزعة محافظة ، تهدف إلى التكيف التضليلي . والقيم التي تقوم بنشرها هذه المجلة باستمرار ودون انقطاع هي : اللباقة الفروسية ، وبهجة المييش « ومعرفة متى تحسن لحظة الجد » . والمعايير الجنسية للتكيف التي تهدف إلى نشرها وإقامتها مجلة « برافو » تبدو ، من بعض الوجوه ، تتناقض مع معايير (توين) . توجيهات برافو : إكسبرو المال في أقرب وقت ممكن ، وأكثر ما يمكن ؛ تزوجوا في أبكر وقت ممكن ، كونوا مستقيمين أحدياً إزاء الآخر ، واحذروا من نشوء كثير من المشاكل

بينكما ، والممارسة الجنسية ، في آخر تحليل ، ليست شيئاً مهماً جداً . لا تناموا
مما قبل أن تتزوجوا ، ولكن اذا اضطررتم الى ذلك - أي الى الرقاد معاً -
فينبغي أن تضعوا نصب أعينكم دائماً فكرة تحقيق الزواج ، بأسرع وقت
ممكن .

وتنشر (برافو) منذ بعض الحين تحقيقاً صحفياً جنسياً ، في حلقات
اسبوعية . الا أن المعايير الجنسية تعطى اما دائماً في شكل نصائح أبوية ،
واما بصورة مباشرة ، على نحو ما نجد في المجلات النسائية المصورة التقليدية ،
في شكل ردود على مسائل شخصية ، ويقدم هذه الردود (رجل علم) هو ،
مثلاً ، في مجلة (برافو) (الدكتور فولمر) .

مسألة سيلفيا

سؤال : « أنا في السابعة عشرة ، وجميلة جداً ، وذلك قيل لي كثيراً . ولي
صديق لطيف جداً ، في العشرين من عمره ، وهو حالياً يقوم بخدمته العسكرية .
والداي يعارضان صداقتنا ، ويسلكان إزاء الشاب سلوكاً غريباً . انها
يرفضانه لأنه ليس وسيماً ولأن قامته تعادل قامتي بالضبط . وباختصار ،
فليس هو طراز الرجل الذي كان أبواي يخلمان به لابنتها . »

جواب : « إذا كانت هذه هي العقبات الوحيدة التي تجعل أبويك يرفضان
صديقك ، فعليك أن تتوصلي الى اقناعها بقبول هذا الشاب . قولي لها إنه
يحب الراحة حين يكون في منزلكم - ولو كان هذا غير صحيح . قولي لها انه
معجب كثيراً بوالدك ، وأنه يتذوق بمتعة كبيرة قطعة الحلوى بالتفاح التي
تصنعها والدتك ، أو أنه شديد الإعجاب بفسطانها الجديد . وبعد أن تكوني
قد مهدت الطريق على هذا النحو ، فستتوصلين شيئاً فشيئاً الى اقناع ابويك .
وإثر ذلك سوف يدركان ان الوسامة ليست هي كل شيء ، بل انها ليست أهم

شيء ، لاسيما عند الرجل ، لأجل النجاح في عقد صداقة وثيقة ، والسعادة في الحب وفي الزواج ، (١) .

إن أهمية هذا المثال لا تقوم فقط في كون قارىء « توين ، النموذجي » سوف يجد جواب « الدكتور فولمر » مضحكاً جداً . وعلى كل حال ، فذلك القاريء لا يعرف هذا النوع من المشاكل . إن شريكاً دميماً ، بالنسبة له ، على الأقل ، بالمقارنة مع معايير الجمال القائمة اليوم ، لا يمكن القبول به ؛ إلا إذا كان الأمر يتعلق بدمامة « أنيقة » ، يمكن بسهولة التوفيق بينها وبين الكليشيات الاعلانية ، بل هذه الدمامة التي تتطلبها بالحاح هذه الكليشيات (من طراز عارضة الأزياء تويغي) . وأهمية هذا المثال تقوم قبل كل شيء في إفساد النتيجة المقصودة : مفهوم الأهل للقيمة ومتطلباتها السلوكية ؛ فالفتى ، ظاهرياً ، يهزم أبويه ويخدعها . أما في الواقع ، فليس الأبوان ، بل الفتيان والفتيات أنفسهم هم الذين يرفضون شريكاً محتملاً ، بسبب شكله غير الملائم . وسيليفيا تعزو هذا الرفض إلى أبويها ، وفي الوقت نفسه ، وإثر إطراء كاذب للأبوين يفتح المنزل أمام الشاب ، بهذه الوساطة ، نحو أبنية قيم الأبوين . ويجري الأمر كأنما من واجب الفتاة أن تقنع أبويها بأنها مضطران تماماً للقبول بشريك قليل الجاذبية ، بدلاً من القول بالمكس إن على الفتى أن يتعلم ، لفرط حالات الاخفاء ، الخضوع لذلك الموجب . وتزداد خيبة الأمل حين يقدم رجال التكيف التضييقي باستمرار للأبوين مثلاً أعلى للجمال والجاذبية يُظهر كل علاقة حب « طبيعية » بثابة شيء نافع ، عديم الطعم . إن فتى الفئات الدنيا يعرف ضغوط « الحياة الحقيقية » وما فيها من حالات قسر وإكراه ، في وقت أبكر مما يعرفها فتى الفئات الوسطى . لذلك فإن الممارسة الجنسية واللذة - حتى في شكلها المكيف تضييلاً ، والظاهري تمحيان أمام قضايا القبول « الخارجي » ، والتكيف مع عالم العمل والوسط العائلي . لذلك فإن التكيف المضلل في فئات

(١) « برافر » عدد ٢٠ - ١١ - ١٩٦٧ .

الشباب هذه يجري ، قبل كل شيء ، ضد تفتح - ولو مؤقتي - للممارسة الجنسية ، وليس ، مطلقاً ، كما نجد في « توين » بواسطة التحرر الجنسي الجزئي .

وإلى جانب هذه الفوارق الاجتماعية - الاقتصادية المرتبطة بالانتماء إلى الفئات الاجتماعية ، فإن هذه المجالات المصورة (الماغازين) تختلف كذلك في مجموعات أسئلتها الجنسية والاستفتاءات حول الحب . وفي كل عدد من أعداد « توين » و « برافو » المذكورة ، نجد مجموعة من أمثال هذه الأسئلة ، المصاغة على أساس نفس النموذج ، إحداهما تحت عنوان « موعد ٦٨ » ، والآخرى « استفتاء (برافو) حول الحب » . وفي المجموعة الأولى من الأسئلة ، لا نجد فقط تفوقاً ، بالنسبة للمجموعة الثانية ، للأسئلة المتصلة مباشرة بالحياة الجنسية (تقريباً زهاء ١٥ سؤالاً من أصل ٧٣ ، مقابل ٥ من ١٠٠ في « برافو ») ؛ وتقدم كذلك مجموعة أسئلة « موعد ٦٨ » إمكانية اختيار مباشر للشريك . وبمثابة جواب ، يتم الحصول على عنوان شريك ملائم : « نحن هنا لا نعدكم بالفردوس . إن شخصاً ثالثاً لا يستطيع أن يعرف ما إذا كنا ستحققان السعادة أم لا »^(١) وإثر ذلك ، يجد موعد مع هذا الشريك لأجل التعارف . وفي « برافو » يحصل المشتركون في الاستفتاء فقط على جواب من الناظمة الآلية الالكترونية ordinateur عن طباعهم الشخصية إن « الناظمة الآلية » الالكترونية سوف تجيب باهتمام وصدق . إنها تتكيف تماماً مع شخصيتك وذلك لأنها تعمل بواسطة المعلومات

(١) « توين » العدد المذكور ، ص ٩٠ . هاكم مثالا على الفوارق الطبعية في الوصف التكييفي - التضليلي ، للشريك : في الفئات الدنيا ، من الموافق تماماً للمعايير أن يأتي الشريكان الجفنيان ، أو الزوجان ، من نفس مجموعة البباني ، أو نفس الحي . وبالعابل ، يجري تسهيل وعي قراء « توين » بصفتهم رواداً ، ومؤكد أنه لن تنصح فتاة من فرائكفورت تشترك في الرد على أسئلة « موعد ٦٨ » الارتباط بشباب من فرائكفورت ، ولا حتى من هامبورغ أو ميونيخ . فهاتان المدينتان ، بعيدتان جداً ، بحيث يصعب تحديد موعد للقاء في إحداهما ، أما فرائكفورت ، فهي قريبة جداً . وبالأحرى فالفتاة ستحصل على عنوان شريك يسكن في ماينس أو إسبادن ، أو دارمشتاد - وقد تحققت من ذلك أنا بنفسني .

التي قدمتها أنت «^(١) وكذلك تترك «توين» في أجوبتها حرية ظاهرية أكبر للمشاركين في استفتائها - مثال نموذجي : السؤال رقم ٥٥ : (أنت في نزوة مشتركة ، مع شخص تحببته حقيقة . وفجأة ترين شريكك يغازل فتاة أخرى . فكيف تتصرفين عندئذ ، وماذا يكون رد الفعل لديك ؟) أهاجمه ، محدثة له مشكلة (٢ . أحس بالألم ٣) آخذ أنا أيضاً بمغازلة آخرين . (٤) ابتهج بذلك . لا أهمية لذلك مطلقاً عندي) . إن أمثال إمكانات السلوك هذه ، التي ، طبعاً ، لا وجود لها ، في الواقع ، حتى بالنسبة لقراء (توين) ، ليست موضوعية حتى بمثابة إمكانية اختيار وهمية بالنسبة لقراء (برافو) . وهنا نجد أن الشيء المهيمن هو نموذج الأسئلة الهادفة إلى تحقيق التكيف ، بدأب ، السؤال رقم ٢١ (مثلاً ، رجل لا ينجح في الحياة . ١) هو شخص عديم النفع ، فاشل ؛ ٢) إنه في علاقاته البشرية والخاصة لطيف جداً ، غالباً . ٣) إنه فقط لم يحالفه الحظ) . إذن ، فتجاه (ذلك الذي لا ينجح) ، لا يوجد سوى موقفين ممكنين : إما إدانة قاسية ، إلى حد ما ، وإما تسامح يتضمن هذا الحد أو ذاك من المعرفة .

إن باستطاعتنا تقديم الكثير من الأمثلة عن الفوارق الطبقيّة في التكيف الاجتماعي والجنسي ، أمثلة تؤخذ من مجلات مصورة أخرى ، ومن أفلام ، أو من مواد إعلانية ودعائية ولكن لا جدوى من ذلك ، في هذا المجال فباستطاعتنا على أساس الفروق والمشابهات التي تظهر (توين) و (برافو) أن نصوغ موضوعتنا الثانية : إن هذه الفروق تشكل ، في شطرها الأساسي ، الفروق المتغيرة لعملية تطور واحدة الزامية تقود إلى الزواج الأحادي الإلزامي ، المؤسس على اقتصاد وتقنية السيطرة ؛ وهذا الزواج الأحادي هو ، في مجتمعنا المياري المطلق لدى جميع الفئات الاجتماعية (هل يبقى كذلك ؟) . إن الفئات الاجتماعية الأدنى ، بموجب وضعها الاقتصادي ، تضطر لأن تتكيف في وقت

(١) «برافو» العدد المذكور من ١ و ٤ .

وقت مبكر اكثر من سواها - وظاهرياً فقط - بصورة غير مشروطة أكثر مما لدى سواها ، نظراً لأن كل اختيار آخر مستبعد ، كلياً ، وفي مجمل الأمر . ولهذا السبب قبل كل شيء لا يوجد مراسل لـ (توين) للفئات الدنيا : ففي سن العشرين أو الخامسة والعشرين ، تكون عناصر هذه الفئات قد تزوجت أو هي في طريق الزواج ، وفي هذا الزواج ، ينبغي لها أن تنشئ فوراً أمام معايير استهلاكية تسيطر فيها وراء عالم (توين) على الهوايات والزينات الأنيقة المختلفة .

٣) كلما كانت الفئة الاجتماعية ادنى ، توجب ان يكون أكثر سمواً المثل الأعلى الاجتماعي المقترح لها ، والذي يستخدم بمثابة نموذج للمعايير الاجتماعية والجنسية ، وفي الوقت نفسه كصورة للسعادة الموعودة .

وأسهل طريقة لإثبات الصلة المتبادلة بين المثل الأعلى الاجتماعي المقترح والشرط الاجتماعي الحقيقي لغرض التكيف ، تقوم في المقارنة بين المثل العليا الاجتماعية التي تقوم بنشرها المجلات المصورة الكبرى التي تعالج ميدان الحياة الخاصة . وسأقتصر ، في القيام بذلك ، على مجلات تروست سبرنجر لانها هي التي تعبر بصورة أفضل عن مجموعة تنوعات التكيف التضليلي (انظر اللائحة رقم ٣) .

ان مقولتي (مخصص بصورة عامة له) و (يقرأه بصورة عامة فلان أو فلان) ليستا متماثلتين ، بالضرورة . فبين قراء (برافو) ، مثلاً يوجد ٣٨ ٪ ممن تزيد أعمارهم عن ٣٠ عاماً^(١) كما أن بين قرائها كثيرين من فتيان الفئات الوسطى والعليا . إلا أن « القيمة م » ،^(٢) بالنسبة لهؤلاء القراء ، لمقالات وصف الوقائع

(١) انظر دراسة - Zeitschriften - Leseranalyse 1955, Arbeits- وضمت لحساب gemeinschaft Leseranalyse من قبل شركتي ديفو و انفرايتست - فرانكفورت .

(١) القيمة م . هي ايجاز لعبارة « قيمة المطابقة » وهي تعطينا الدرجة - المقاسة تجريبياً - لمطابقة مقال أو صورة أو مجموعة من الصور لوضع قاريء ما .

بصورة مطابقة تماماً ، ليست مرتفعة جداً كما يبدو ، مثلاً ، الرجال الذين بلغوا سن الرشد يتصفحون مجلة « برفو » بحثاً عن الصور ذات الإثارة الجنسية ، وفتيان وفتيات الفئة العليا لن يطلبوا مطلقاً مشورة (الدكتور فولر) . إن مقالاً عن الحياة العائلية لروي بلاك ، وروح الأخوة الصادقة والرفاقية الحميمة التي يقدحها روي على شقيقه يقرأه فتیان وفتيات الفئة العليا بدرجة إدراك للمطابقة تختلف عن تلك التي يقرأها بها فتیان الفئات الدنيا .

مجالات مصورة موجهة بصورة عامة الى المثل الأعلى الاجتماع المقترح

<p>إيلترن</p> <p>النساء الشابات المتزوجات المنتميات إلى الفئات الوسطى ، واللواتي ليست لهن مطامح كبرى ،</p>	<p>بعض أمثلة النجاح الهائل ، تختار من نفس هذه الفئة ، ولكن دائماً على المستوى الاقتصادي الأعلى ، طفولة رجل سياسية حقق النجاح ، ورجال عظام آخرين .</p>
--	---

<p>توين</p> <p>للمراشدين الفتیان العازبين المنتمين إلى الفئات الوسطى ، والذين تحدرهم مطامح الارتقاء والصعود الاجتماعي والاقتصاديين وينتمون لاحقاً إلى النخبة .</p>	<p>بعض أمثلة النجاح وكثيراً ما تكون ساحرة من بعض وجوهها غير التقليدية ، غير الامتثالية ، تختار من نفس هذه الفئة ، أو من الفئة التي فوقها تماماً ، (مهندس معماري ، متمهد مبيعات ، نجم أو نجمة سينمائيان ، هيبوبوم الأحد)</p>
--	---

مغزو الخنافس، نجوم السينما، الفئات الدنيا الوسطى-الدنيا لكن الذين لديهم بصورة خاصة ميول حميمة نحو الفئات الدنيا : روي بلاك ، بيار برياس ، الخ.	إلى الفتيان والفتيات من قبل كل شيء للزوجين القائمين والمنمزلين ، المنتمين الى الفئات الدنيا ليس الى أية فئة بصورة محددة .	برافو داز نوي بلات مورزو
أعضاء السلالات الملكية وعائلاتهم . نجوم السينما جميعاً .		

هذه المقابلة بين المثل الأعلى الاجتماعي وغرض التكييف ، تبين لنا جيداً ، على الصعيد التجريبي ، انه مع ازدياد القمع الاقتصادي والاجتماعي ، يزداد كذلك الانقسام بين الحاجات الواقعية والحاجات الظاهرية ، بين الحاجات الفعلية ، والحاجات الممكنة تليتها . ولا ترى الفئة الدنيا حياتها هي ذاتها إلا عبر صورة كبار المحظوظين أو الأبطال العصاميين ، أو ذلك الذي ربح الجائزة الكبرى في اليانصيب أو ذلك الرجل الماهر جداً ، رال ، وهو خادم أحد مجالس إدارة شركة ، الذي كان يحب حباً عظيماً زوجته التي كان مقضياً عليها بالموت فظل طوال أعوام يجهد حتى صنع لها بوسائله البدائية كلية اصطناعية ، أملاً في انقاذ الزوجة المعبودة^(١) . وليس نادراً أن عدداً واحداً من مجلة « داز

(١) في مجلة « داز نوي بلات » عدد ١٦ - ١٢ - ١٩٦٧ ، ص ١٧ - طبعاً ان قضية زيادة الاستهلاك تشغل مكاناً ممتازاً في هذا الشكل من التكييف الطبقي . ان قراء هذه المجلة ينقسمون بصورة رئيسية الى فئتين « اولئك الذين يهدفون الى الصعود الاجتماعي ، والمنمزلين ، المتطوين على أنفسهم » والفئتان ليس لدهما « وعي واضح تماماً لانتهاهما الى فئة ما ، بمعنى الطبقة الاجتماعية . (انظر في « داز نوي بلات » نتائج أحد التحقيقات البسيكولوجية، الذي أجراه =

نوي بلات ، يروي قصص الحياة الحميمة لثلاث أسر مالكة أوروبية ، وفي القصص الثلاث ، تصف المجلة المصورة السلوك المحبوب جداً ، والمفعم بالرعاية والاحترام الذي يسلكه الأمير الشاب إزاء الملكة - الأم - أي السلوك الذي يصبح نادراً أكثر فأكثر إزاء الأشخاص المسنين في مجتمعنا، وبخاصة إزاء منسّي الفئات الدنيا . إن لنجوم السينما ، والأمراء والأميرات المتزوجين ، والأباطرة والأبطال الرياضيين نفس الوظيفة التي كانت لأنصاف الآلهة في الميتولوجيا : إنهم بشر متفوقون على نحو لا يستطيع أن يكونه أي بشري ، إنهم يجب أن يكونوا قدوات ونماذج ، ولسلوكلهم طابع قيمي . لكنهم ليسوا من هذا العالم ، ولا يمكن أن نعيش إلا بصورة مصغرة بالنسبة لما يفعلونه هم ، على نطاق كبير ، ولا مجال للتجاسر على منازلهم في حياة الواقع ، ومهمة التكييف التذليلي هي تحقيق توازن للتطابق مع أنصاف الآلهة هؤلاء على مستوى خيالي وغير حقيقي ، أي على مستوى يحول دائماً الخاضعين لعملية التكييف التذليلي دون أن يعترفوا قائلين : إنها أشياء تافهة تلك التي يقومون بها . أو : إنني لن أتوصل أبداً إلى تحقيق مثل ذلك ، فنحن لا نعيش في نفس الشروط ، أو يقولون : لأجل الحصول على هذا النمط من الحياة العائلية ، يجب أن يكون لدينا مال كثير . وعملية تحقيق توازن في التطابق ، هذه ، تنطبق بصورة رئيسية على الفئات أو الجماعات التي يجري تكييفهم تذكلياً بواسطة مثل اجتماعية مختارة من فئاتهم الاجتماعية هم أنفسهم ، أو من فئة اجتماعية يمكن الوصول إليها ظاهرياً ^(١) .

== كرنيتست، فرانكفورت ١٩٦٢ ص ٨ وما يليها) ويردف التحقيق قائلاً : «ان حسها السليم يجعلها يبعثان عن العروض الأكثر فائدة وملاءمة من العروض الرخيصة ... وحين يكتشف مخزن يبيع بأسعار ملائمة بصورة خاصة ، فلا يكون ذلك توفيراً فقط ، بل ان هذا الاكتشاف يحس به علامة على ذلك بصفته انتصاراً شخصياً (ص ١٥) » . وتكشف داز نوي بلات عن هذه المعلومات الطريفة الهامة وفي الوقت نفسه تتيح لقراءها امكانية التغلب على المخاوف التي يوحىها اليهم بها عدم استقرارهم الاجتماعي .

٤) ان عملية التكيف الخاصة بكل فئة اجتماعية توجد « عملية مساواة اجتماعية » لكنها عملية تكييفية تضليلية داخل البنى الاجتماعية ذاتها .
والثمن الذي ينبغي أن يدفعه الشخص لاجل (عملية المساواة) هذه هي التداخل الدائم لابداعات تكييفية تضليلية من الحاجات (نشر المتعة الجنسية ظاهرياً) مع اشباعها الوهمي .

ويجري في الوقت نفسه عزل الأفراد بعضهم عن البعض الآخر ، وتمثيلهم بعضهم ببعض . ان (عملية تمم) اشباع الرغبة الجنسية وتلبية حاجات أخرى له باديء بدء تأثير ديمقراطي - مزيف قوي جداً . ويعرف هو رخم وأدورنو تقدم صناعة الانتاج الثقافي على النحو التالي : (ان الخطوة التي تقود من الهاتف إلى الراديو قد فصلت بوضوح دور كل شخص . ان الهاتف ، بصفته ليبرالياً ، كان يترك المخابر ايضاً يلعب دور الذات . والراديو ، بصفته ديمقراطياً ، يجعل من الجميع دون تمييز مستمعين ، وهو ، أي الراديو ، بصفته تحكيمياً متلطاً ، يخضع الجميع للبرامج ومراكز البث المتأثلة كلها دون استثناء (١) . « الجميع ، لديهم سيارات ، وملابس الرخاء والرفاهية (وهي كلمة تذكرنا كثيراً بالقيمة الاستعمالية للملابس ، بحيث تستبدل هذه الكلمة بسواها فيقال ملابس بسطاء الناس ، والجميع لديهم كذلك نقود للانفاق (نقود لمصروف الجيب) . وينبغي

(١) لقد أوضح تماماً هور خيمر وأدورنو هذا المبدأ للتكيف التضليلي المميز تبعاً للفئات الاجتماعية وذلك في كتابها Dialektik der Aufklarung أمستردام ، ١٩٤٧ : « إن عمليات تحقيق التمايز الفعمة بالمواطن الحماية الخطابية ، كما نجد في أفلام سلسلتي «أ» و «ب» أو عمليات التمايز في قصص المجلات المصورة على اختلاف مستويات أسعارها ، لا تنتج عن المادة نفسها ، بمقدار ما هي تهدف الى تصنيف وتنظيم المستهلكين ، والسيطرة عليهم ، وقد أعد شيء ما لكل فئة ، بحيث لا يفلت أحد من عملية التكيف ، والفوارق بين الطبقات يجري ترسيخها ونشرها » (ص ٣٤٧)

(١) هورخم وأدورنو - المرجع المذكور ، ص ١٤٦ .

حقاً تفحص بذلة ما عن كذب جداً - وكثيراً ما لا يكون قادراً على ذلك سوى الاختصاصيين وعابدي الموضة عبادة وثنية - لأجل التأكيد مما إذا كانت هذه البذلة واردة من «الخازن الرجالية» على الطراز الايطالي - الأميركي (بسر ٣٥٠ ماركا) أم من مخزن كبير (١٨٠ ماركا) أم من حانوت تقليدي للرجال (٦٠٠ ماركا) .

وتجرد الأشياء التبادلية ، على حد سواء في ميدان السلع أم في دائرة الحياة الجنسية ، من طابعم النوعي بصفتها مشبعة لرغبة ما . إن عدم إشباع الرغبة « موجود فعلاً » . لكنه لا يحس به بوعي لا بصفته عدم إشباع رغبة فاتحاً عن استحالة الحصول على غرض معين ، ولا بصفته عدم تلبية الرغبة الذي يعطيه الشيء المتوفر ، الممكن الحصول عليه ؛ وبالعكس ، فإن عدم تلبية الرغبة هذا يموه بمنظومة ظاهرية وواقعية في الوقت نفسه من حالات مزعومة لتلبية رغبة ، تارة بعملية استهلاك متزايدة الاشتداد باستمرار ، وطوراً بأغراض جنسية لا يمكن الحصول عليها ، في خاتمة المطاف . إن عملية توسيع تلبية الرغبة ، الممكنة ظاهرياً بمجالات مزيفة تجري مضاعفتها إلى ما لا نهاية له ، توجد - أي عملية التوسيع - الصلة الوثيقة ، الحيوية في مجتمعا ، بين عمليات الإرغام المتعلقة بالردود (انجاء نحو تلبية الرغبة ، متزايد باستمرار) ونتيجته ، وهي مصير الكبت والحرمان المميز للشخص المنحرف ، المهتك ، سجين اللذة التمهيدية^(١) ، والمدفوع بذلك ذاته إلى تحقيق مكاسب وانتصارات ، على الدوام . وعن طريق إقامة تداخل ، يعطى صفة المؤسسة ، بين حالات دائمة من عدم إشباع الرغبات ، وحالات مزيفة من إشباع الرغبات ، يحال دون يقظة الوعي . ، أو بالأصح تجعل يقظة الوعي هذه أصعب بصورة متزايدة باستمرار في ميداني الإنتاج والاستهلاك ، يقظة الوعي هذه التي كان يستطيع في المجتمعات الطبقة التقليدية

(١) راجع في هذا الصدد الفصل الرابع من كتابنا هذا، وهو بعنوان «اختيار الفرص الترجسي» والحب ، والنطف ، واللذة التمهيدية الدائمة .

أن يبلغها بصورة سهلة نسبياً ، جميع أولئك الذين كان ينزع منهم التصرف بوسائل الانتاج ؛ إنها بقضة الوعي بأنه لأجل إشباع الرغبة ، يجب مصادرة إشباع الرغبة هذا من شخص ما (أي من ذلك الذي استملكه لذاته ، في الماضي : وهو الرأسمالي) . إن هذه المصادرة لا تحقق تغييراً كبيراً ؛ ذلك ما يبدو أنه يقوله العالقي بقيود الحلقة المفرغة لعدم تلبية الرغبة ، وتلبية الرغبة بصورة مزيفة ، لن يتم أبداً التوصل إلى إشباع الرغبة !

مع هذا النظام لتحقيق التساوي الظاهري والحقيقي في الاستهلاك ، بما في ذلك في دائرة الحياة الجنسية ، ومع الاحتفاظ باختلافات حقيقية في مستويات إشباع الرغبة ، يصبح من الصعب أكثر فأكثر الانتقال من النزاعات الاقتصادية والاجتماعية إلى النضال السياسي وبذلك إلى بدء صراع طبقي ، ولم يمكن بلوغ هذه النتيجة إلا بتقسيم الطبقات إلى ذرات ، والعزل ما بين الأفراد ، وذلك في آن واحد بواسطة عمليات الارغام المتعلقة بالمرود ، وطرائق تحقيق التكيف ، والتكيف التضليلي . بادىء بدء « يساوى » بين جميع الأفراد ، بحيث يصبحون غير قادرين على رؤية الفوارق الطبقيّة ، وإثر ذلك يدخل هؤلاء الأفراد في مزاحمة بعضهم ضد البعض الآخر ، وكل منهم « سجين في فئته » ، لكي يحصل على الأقل على العلاقات الطيبة التي يعرضها عليهم نظام إشباع الرغبات ، المكيف تضليلاً .

ويحدث - لكي نتكلم بتمايز سياسية - انتقال للنزاعات الطبقيّة نحو نزاعات أعطيت الطابع الفردي ، وقائمة على أساس المرود ، والمزاحمة ، والتكيف . لقد لاحظ أقصى اليسار منذ زمن طويل النزوع الى التمويه الايديولوجي لاجبهات الطبقيّة في الرأسمالية المتأخرة زمنياً . لكن هذه النزعة ليست ، بأي حال من الأحوال ، فقط « تجسداً خارجياً ، سياسياً ظاهرياً » للصراع بين الطبقات ، ^(١) أي فقط إسقاطاً للنزاعات السياسية والاجتماعية

(١) انظر رايشي وغانغ « Vom antikapitalistischen Protest zur

على عدو خارجي (الشيوعية مثلاً) وتأثيره المرتد على الداخل ، وهو الإدماج والاستيعاب السياسي . ومن شأن عملية الاستيعاب هذه أن تكون سهلة الاختراق بفعل تغيرات « السياسة الخارجية » . وبالعكس ، فإن هذا الأسقاط نحو الخارج يكمله انتقال للدراك الحسي للواقع الاجتماعي في الداخل . لقد جهدنا في أن نبرز ، في هذا الفصل ، بعض أسباب عملية الانتقال هذه . إن جميع هذه الأسباب تهدف الى جعل نظام الحياة الاجتماعية شيئاً غير مفهوم ، غير ممكن فهمه ، وتصويره بصفته ثابتاً لا تغير له . وبالمثالة ، في وظيفتها الاقتصادية ، فئات سكان البلدان الرأسمالية المتقدمة ، بعضها مع البعض الآخر ، مع فصلها في الوقت نفسه بعضها عن بعض بعمليات تمايز في الشروط الاجتماعية ، يجري إحداث اضطراب وتشوش في التكوين الجماعي للأنا لدى جميع أعضاء المجتمع ؛ والقوى الطبيعية التي يمكن استخدامها في تشييد الحضارة ، تستخدم لتدمير هذه الحضارة . ان طبيعة السيطرة ذاتها ، تجدد التعبير عنها منزع الصفة الشخصية ، تماماً ، في هذه المنظومة من عمليات الإرغام .

soziolist schen Politiki»

في New Kritik العدد ١ ص ١٨ وما يليها

الأخلاقية الجنسية للحضارة العصرية والتخطي القمعي للعُصابية الحديثة

لقد أثبت التحليل النفسي ، لأول مرة ، لدى دراسته أشخاصاً فاقدى التوازن جنسياً ونفسياً أن ه غريزة الانسان الجنسية لا تهدف مطلقاً ، في الأصل ، الى غايات التناسل ، بل أن هدفها هو تحقيق أنماط محددة تماماً من بلوغ اللذة ،^(١) ان فرويد ، لدى معالجته أشخاصاً كانوا ، امّا عاجزين عن أن يحققوا بصورة كاملة العمل الجنسي مع الجنس الآخر ، واما أنهم كانوا يرفضون هذا النمط من تجسيد الغريزة الجنسية - سواء لأسباب خلقية (الامتناع ، التعفف) أو لصالح تجسيدات أخرى معتبرة بمثابة منحرفة أو لواطية - سحاقية - والذين كانوا يتألمون من هذا العجز ، ولحالات الرفض هذه ، وهذه الانحرافات ، ان فرويد والحالة هذه كان مضطراً للبحث عن الأسباب الجنسية المحددة ، بصورة حاسمة ، لهذه المصائر . ولدى تفحصه الشخص (الجاري تحليله نفسياً) وتوجيه الاسئلة اليه ،

Freud, Die « Kulturelle » Sexuallmoral und die (١)
moderne Nervosität, in Drei Abhandlungen zur
sexualtheorie, Fisher Bûcherei, no. 422, Francfort.
1961. p. 126 .

توصل فرويد إلى الاستنتاج بأن الغريزة الجنسية موجودة حقا منذ الطفولة ، لكنها في تلك الفترة ليست مركزة على الممارسة الجنسية مع شخص من الجنس الآخر ، بل هي بادية بدء (بدون غرض ، جنسية - غرامية - ذاتية) . وهكذا يبدو أن الاثارة الجنسية لدى الطفل تنشق من مصادر مختلفة : قبل كل شيء ، من المناطق المولدة للغريزة الجنسية والتي تحدث إشباعاً للرغبة الجنسية منذ تحريضها بطريقة خاصة . وحسب جميع الاحتمالات ، يمكن أن تقوم بوظيفة المناطق المولدة للرغبة الجنسية جميع مناطق البشرة ، وكل عضو من أعضاء الحواس . (وربما كل عضو أياً كان) ولكن توجد مناطق متميزة قابليتها للتهيج مضمونة ، منذ البدء بواسطة بعض الأجهزة العضوية . ومن جهة أخرى ، فإن التهيج الجنسي يحدث ، إذا صح التعبير ، بمثابة نتاج هامشي لعدد معين من عمليات التفاعل الداخلية ، شرط أن تكون هذه قد بلغت درجة معينة من الشدة ، وعلى الأخص حين يتعلق الأمر بانفعالات قوية ، حتى ولو كانت هذه ذات طابع مرهق . إن التعرضات الواردة من جميع هذه المصادر لا تكون قد تناسقت بعد في كل واحد ، لكن كلا منهما يتابع هدفاً منفصلاً لا يشكل سوى جني متعة معينة . ويقودنا هذا إلى التفكير بأن الغريزة الجنسية أثناء الطفولة لا تتكون متركزة بعد ، وأنها في البدء ، بدون غرض ، أي جنسية - غرامية - ذاتية (١) .

لكن النشاط الجنسي لا يهيج تطوراً عضوياً ، بل بالعكس تماماً ، فإن المراتب والبيئات الانسانية المتمثلة للحضارة ، وبصورة خاصة أشخاص المحيط العائلي الذين يقيم الطفل معهم علاقات ، تعطي النشاط الجنسي اتجاهات وأشكال تعبير ، دقيقة تماماً . إن مرحلة حاسمة من هذا الاتجاه أو المجمع لكنهما ، - أي هذه المرحلة - ليست وحيدة مطلقاً ، هي النزاع الأوديبي ، الذي ينبني

(١) فرويد - ثلاث دراسات في نظرية الحياة الجنسية ، مجموعه « أفكار » الفرنسية - منشورات دار غاليليو - ١٩٦٢ ترجمه ريفوشوره - جوف ، ص ١٤٨ .

للطفل أن يتعلم خلاله : ١) التخلي عن جميع أغراض الجنس المائل (توجيه الغريزة الجنسية) . ٢) أن يتخلى ، مؤقتاً ، عن أغراض من الجنس المقابل (نقل الغريزة الجنسية) ٣) أن يتخلى نهائياً عن الأب والأم بصفتها غرضين جنسيين (حاجز الزنا) . هذه المكتسبات تضع أساس مجموعة كبيرة من القابليات الاجتماعية والفردية الهامة ، تعتبر أكثريتها لا غنى عنها مطلقاً في جميع المجتمعات المتميزة بأنماط انتاج واتصال وإشباع الحاجات متنوعة ومختلفة . إن تخطي عقدة أوديب بصورة مطابقة ، ملائمة ، أي بناءة بالنسبة لحضارة معينة ، يفترض سلسلة من القابليات المكتسبة سابقاً ، التي يرتكز أساسها بالضرورة على أشكال معينة من تجسيد واستيعاب غرائز جنسية جزئية أثناء المراحل السابقة (الفموية ، والشرجية ، والقضيبية) .

ومن اللغو والفموض المشوش القول إن الحياة الجنسية لدى الطفل تتوقف أو تتجمد ، لدى انتهاء عقدة أوديب . فالتوقف أو التجمد ليس سوى تعبير عن تخطي لعقدة أوديب ، التي كثيراً ما تنتج عن حالات شاذة حدثت لدى الانتقال من مرحلة إلى أخرى من مراحل النمو والتطور الجنسيين ، ولكن تكون له دائماً بمثابة نتيجة أنماط مرضية للتنظيم الجنسي الطبيعي اللاحق ، لدى المراهق والراشد ، ومن الخطأ أيضاً أن لا نرى في عقدة أوديب - كما كانت الحال في مراحل التطور الجنسي التي تسبقها ، وتلك التي تعقبها - سوى عملية تطور نفسية جنسية . وبالعكس ، بالنسبة لجميع المراحل البيولوجية للتطور الجنسي ، فإن قدرات يسمى مجموعها (اندراج أو اندماج أو استيعاب الأنا) مرتبطة بعملية التطور هذه . وهكذا فإنه يطابق تخطي المرحلة الفموية ، فترة تدرج القدرة الإدراكية للفرق بين « أنا » و « أنت » ، والبدايات الأولى للسيطرة الفيزيولوجية على الذات ، والمهارة الفيزيولوجية ، واستيعاب نشاط عضلي كان حتى ذلك الحين غير منسق ، أساسياً . وفي المراحل ، الفموية ، والقضيبية ، والأوديبية ، يستمر التطور بصورة شبه منهجية ومنتظمة القدرات الإدراكية

والفيزيولوجية المطابقة للتطور الجنسي . لقد جرت معالجة عملية التطور هذه لأول مرة في نموذج سوسولوجي للمجموعة من قبل تالكوت بارسونز^(١) ، إلا أن بارسونز ينكر الاستقلالية الذاتية للربغبات البيولوجية - الليبديية (الشهوانية الشبقية) (الفرائز الجنسية الجزئية والمناطق المولدة للشهوة الجنسية) ؛ لذلك فإن نموذجه السوسولوجي يعني تكيفاً تاماً للفرد مع المعايير الاجتماعية القائمة . لكن نموذجه إلى جانب ذلك يحتوي على أفضلية لا غنى عنها أبداً ، وهي ربط مجموعة الأفكار والتحليلات التحليلية - النفسية حول تطور الطفولة المبكرة ، بتفسير سوسولوجي منهجي . ولكن ينبغي هنا الاحتراس من الخطأ الذي لم يقع فيه بارسونز وحده ، وإنما أيضاً علماء اجتماع آخرون ذوو عقل انتقادي ؛ وهذا الخطأ يقوم في انكار التعيين الحتمي البيولوجي الأسامي لمراحل الطفولة الأولى ، هذه ، الجنسية حسب رأي فرويد . ولم يترك فرويد أبداً حالات التباس أو غموض حول الحقيقة البيولوجية لهذه المراحل وقد دعمت الأبحاث التجريبية اللاحقة دعماً كاملاً هذه الآراء^(٢) . وهي ليست ، البتة « رموزاً معمة »^(٣) ، بل هي الأساس الحقيقي لكل تطور ثقافي أو جنسي أو طباعي *caractériel* .

إن إنتاج الطاقة الجنسية ، تبعاً لوجهة النظر هذه ، لا تتوقف مطلقاً ، خلال الفترة المائة فترة الكون ، والتي تبدأ مع انتهاء عقدة أوديب وتستمر

(١) تالكوت بارسونز : « البنية الاجتماعية ، والشخصية » نيويورك ، ١٩٦٤ ، رغل الأخص في فصل « البنية الاجتماعية وتطور الشخصية - اسهام فرويد في نظرية الاندماج والاندراج والاستيعاب الاجتماعية في علم النفس وعلم الاجتماع » .

(٢) وبخاصة اجبات رينيه أ . سيبتز *Die Entstehung der ersten Objekt-beziehungen, stuttgart 1960 , et : Nein und ja. Die urprugne der menschlichen kommunikation. stuttgart. s. d* (ملحق لجة بيشيه) .

(٣) انظر مقولة « علم الاجتماع » عند بارسونز ؛ المرجع المذكور .

حق بلوغ النضج الجنسي ، بل إن انتاج الطاقة الجنسية يحول نحو أغراض مختلف
عن الأغراض الجنسية .

« خلال هذه الفترة ، كما قلنا ، لا ينقطع انتاج التحرض الجنسي ؛ إنه يستمر
ويقدم احتياطياً من الطاقة هو ، بمقدار كبير ، محول نحو أغراض غير الأغراض
الجنسية ؛ أي أن ذلك الانتاج يسهم في تكوين المشاعر الاجتماعية ، ومن جهة
أخرى ، بواسطة الكبت والتكونات الردود - فعلية ، ينشيء حواجز جنسية
ستقوم بدورها فيما بعد ، والاستنتاج الذي كان يبدو أنه يفرض نفسه هو أن
هذه القوى المكرسة للحفاظ على الغريزة الجنسية في اتجاهات معينة ، تتطور
أثناء الطفولة على حساب الحركات الجنسية التي لها ، في أغلبها ، طابع انحرافي ،
في الوقت نفسه مع تكوينها - أي تلك القوى - بمساندة التربية ، إن شطراً من
حركات الطفل الجنسية ، انفلتت - أي هذا الشرط - من التطور يمكن أن
يتجسد خارجياً في نشاط جنسي ، ^(١) .

أثناء النضوج الجنسي ، ستصبح الغريزة الجنسية مركزة نهائياً على أغراض
جنسية من الجنس الآخر. ويعني فرويد، بمثابة التحولين الأساسيين المرتبطين بالنضوج
الجنسي . « تبعية جميع التهيجات الجنسية ، كأننا ما كان منشأها ، لأولية المناطق
التناسلية ؛ وإثر ذلك ، العملية التي يعثر بواسطتها على الغرض ، هاتان الظاهرتان
مائلتان مسبقاً منذ الطفولة ، في صورة أولية طبعاً : وتتحقق تبعية التهيجات
الجنسية بأولية تستخدم اللذة التمهيدية الأولية بحيث أن الأعمال الجنسية ، التي
كانت حتى ذلك الحين مستقلة بعضها عن البعض الآخر ، تصبح أعمالاً تحضيرية
للعمل الجنسي الجديد - إفراز المواد التناسلية - الذي تبلغ فيه اللذة
نقطة الأوج وينتهي الهياج الجنسي .. وأخيراً ، فقد لاحظنا أن اختبار الغرض

(١) فرويد - ثلاث دراسات .. المرجع المذكور - ص ١٤٧ - ١٤٨ .

كان معيناً بخطوط أولية مرسومة منذ الطفولة ، تستعاد لدى بلوغ مرحلة النضوج ، أي عواطف الطفل نحو أبيه . وأشخاص محيطه ؛ ومن جهة أخرى ، فإن الاختيار ، يتحول ، بسبب الحاضر الذي يكون قد أقيم في تلك الأثناء بوجه ممارسة العلاقة الجنسية مع أحد الأبوين ، يتحول عن هذين وينتقل نحو أشخاص آخرين يشبهونهما . ويجب أن يضيف أيضاً ، في الختام أن عمليات التطور الجسدية والنفسية ، أثناء فترة النضوج الانتقالية ، تجري باديء بدء دونما صلة بينها ، حتى اللحظة التي تتحقق فيها أخيراً الوحدة المميزة لحياة الحب الغرامية الطبيعية ، بعد أن تندفق بزخم شديد حركة عشق جنسي شديدة جداً ذات طابع نفسي ، تنعكس على توتر الأجزاء التناسلية .

كل مرحلة من مراحل هذا التطور الطويل يمكن أن تصبح نقطة ثبات وتثبيت ، وكل عملية تجمع لهذا الامتزاج المعقد يمكن أن تتيح المجال لانقسام الفريزة الجنسية ، كما أثبت لنا ذلك فعلا عدة أمثلة ، (١) .

هناك نقطتان تتعلقان بهذا التطور تستحقان تأكيداً خاصاً عليهما .

(١) إن الفرائز الجنسية الجزئية لا يجري نبذها ، على مستوى الممارسة الجنسية التناسلية ، المتطورة بصورة مكتملة ، لكنها تكون فقط « متبعة » لعملية الإنسال والممارسة المؤدية إليه . وحتى تعبير « تبعية » أو « خضوع » يشدد أكثر من اللازم على الدور القمعي للاندرج والاندماج في حياة المجتمع واستيعاب ممارسة علاقاته ، هذا الاندماج الذي تسعى إليه الفرائز الجنسية الجزئية أثناء النمو والتطور الجنسيين . ومؤكد أنه يمكن تصور أشكال غير قمية لادراج الفرائز الجنسية الجزئية في ممارسة جنسية تناسلية كاملة وقادرة على تحقيق اللذة . ويطابق الحياة الجنسية التناسلية طابع « تناسلي » ، قادر على

(١) فرويد « ثلاث دراسات .. » . المرجع المذكور ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

النشاط والانضباط ، وكذلك على التخلي والعفوية ، وذلك بفضل سيطرة وبراعة الفرائز الجنسية ، وبفضل قبلها ، وقدرتها على التحقق واللذة . ان الأشكال النوعية التي تتيحها هذه المزايا ، أو اضمحلال واحد من هذه العناصر التكوينية ، تظهر بمثابة بنية الطبع الخاص بشخص وبمثابة خضوع قوي إلى هذه الدرجة أم تلك ، لبدأ الواقع الساري المفعول (التكيف) وبصفتها الفرار أمامه أو التنفيذ القسري لمتطلبات مبدأ الواقع (داء العصاب *Nevrose*) وإما بمثابة مجابهة انتقادية مع مبدأ الواقع الساري المفعول (القدرة على السيطرة على الواقع) . إن الطبائع التي تتبع بصورة قسرية ومتصلبة المعايير الجنسية التناسلية لمجتمع ما ، لا سيما مجتمعنا ، ليست ، إلزامياً ، طبائع تناسلية . ويمكن أن يتبع سلوكها الاجتماعي والجنسي أنها لم تبلغ أبداً بنية تناسلية كلية . وهذه الطبائع الضعيفة جداً ، في الوقت نفسه ، لكي تنقيد بالمعايير الاجتماعية وكذلك لكي تناهضها ، فإنها تضطر لأن تحظر بصورة قسرية كل تجل أو تجرد خارجي لفرائزها الجنسية الجزئية غير المدرجة ، ولهذا السبب ، تفرض على نفسها سلوكاً ذا مظهر جنسي تناسلي ، غير فعلي ، والتعريف الذي أعطيه للطبع المطابق لهذا السلوك هو أنه « واجهة جنسية تناسلية » .

(٣) « إن كل مرحلة من هذا التطور الطويل يمكن [...] أن تصبح فرصة لانفصام الفريزة الجنسية . ، وإثر ذلك سوف نعالج مختلف حالات الانفصام الخاصة بالتمدن ، وذلك لكي نحدد ، انطلاقاً من مقابلة عملية نشوئها الاجتماعي والشخصية مع مبدأ الواقع الساري المفعول ، النمط الجنسي السائد اليوم ، أي طبائع التنفيذ القسري للمعايير الجنسية التناسلية الفاقدة للأساس النفسي والجنسي التناسلي ، والتي نسميها طبائع الواجهة الجنسية التناسلية .

قام فرويد بتقسيم حالات انفصام الفريزة الجنسية إلى « نوعين من الانحراف غير السليمة ، غير الصحية ، بالنسبة للحياة الجنسية الطبيعية ، أي المولدة

للحضارة ، التي تتعارض تقريبا تعارض الايجابي والسلبي ^(١) ، وذلك تبعاً إلى (١) نقطة الثبات والتثبيت حيث بدأ النمو يصبح مرضياً (٢) درجة الانقسام (٣) الشكل الذي اتخذه الانقسام. هذان الانحرافان هما ، من جهة ، أمراض العُصاب ، (إن الأمراض الذهانية - نسبة إلى ذهان Psychose - كانت وما تزال على نطاق واسع عيرة تناول بالنسبة إلى التحليل النفسي وذلك بسبب القواعد البنوية لطريقته - ومن جهة اخرى ، الانحرافات الشاذة (حيث عرقلت عملية تثبيت طفولية على غرض جنسي مؤقت أولوية وظيفة التنازل) وأخيراً الميل الى ، وممارسة العلاقات الجنسية مع أفراد من نفس الجنس (اللواط - السحاق) (« حيث الغرض الجنسي تحول عن الجنس المقابل ،) المختلفان (أي اللواط والسحاق) عن الغرض الجنسي والجنس المقابل ، من حيث تركيبها ذاته . إن الأثرية الساحقة من المنحرفين والعصابيين ليسوا منحرفين أو عصابيين إلا بالنسبة للحضارة والتمدن ، اللذين لا يريدون أو لا يستطيعون تلبية متطلباتها . مؤكداً أن العصابيين قد قمعوا (أو كبتوا) جميع تجسيدات الفريزة الجنسية ، اللامشروعة من وجهة نظر التمدن والحضارة ، وفي كثير من الأحيان قمعوا حتى التجسيدات المشروعة ؛ لكن الكبت ليس هو الإلقاء ؛ وما يجري كبتة ، يعود في شكل غير جنسي ظاهرياً ، لكنه ممتدٍ بالنشاط الجنسي المكبوت . والمنحرفون هم ، ذاتياً ، في وضع أكثر ملاءمة ، في البدء : لقد قمعوا قليلاً جداً من مكبوتات الفريزة الجنسية (البدائية) الى المظاهر الانحرافية المختلفة Polymorpho-Perverse ولم يتوصلوا أبداً ، لهذا السبب ، إلى تنظيم كامل للفريزة الجنسية ، إذن إلى شكلها التناسلي وما يطاقه من تثبيت العلاقة مع الجنس الآخر ، هذا التثبيت الموجه نحو العمل الجنسي . وإما أيضاً انهم - أي المنحرفون - ارتدوا ، بعد بدتهم علاقات جنسية طبيعية مع أشخاص من الجنس الآخر ، ارتدوا إلى مرحلة

Freud - Die (kulturelle) Sexualmoral p 127. o. c. (١)

من السلوك الجنسي الطفولي بصورة ظاهرة ؛ ومن وجهة نظر اقتصار الفرائز الجنسية ، فإن الارتداد يوصف انطلاقاً من نقطة التثبيت ، حيث تجمد التطور ، بمثابة انقسام للفريزة الجنسية .

وليس جميع المنحرفين يتخلون ، بشكل مطلق ، وبدرجات متساوية ، عن ذروة اللذة النهائية ، والتحرير الانتماطي لتوتر اللذة ، بواسطة بلوغ ذروة الشهوة ، التناسلية . لكن إحداث ذروة الشهوة والعملية الجنسية ، بالنسبة إلى المنحرفين ، إما أنه يقوم بدور ثانوي ، ملحق بسواه ، وإما أن بلوغ ذروة اللذة الجنسية يحدث فقط بممارسات طفولية من المتعة التمهيدية ، منفصلة كلياً عن اللذة الجنسية النهائية . ويوجز فرويد على هذا النحو الفوارق والعلاقات بين المصاب والانحراف الجنسي ، يقول :

« في حالة قيام رغبة جنسية شديدة كفاية ، ولكن منحرفة ، هناك مخرجان ممكنان . الأول ، وليس من المفيد تفحصه قبل دراسة الثاني ، هو أن الأشخاص المعنيين يظلون منحرفين جنسياً ويكون عليهم أن يتحملوا نتائج انحرافهم بالنسبة لمعايير التمدن . والحالة الثانية - وهي أهم من الأولى بكثير - هي التالية : إنه يتم الحصول ولا شك ، بتأثير التربية والمتطلبات الاجتماعية ، على قمع للرغبات الجنسية المنحرفة ، لكن هذا القمع ليس كذلك ، بل يمكن تعريفه ، في أفضل حال ، بصفته إخفاقاً لعملية القمع . إن الرغبات الجنسية المكبوحة ، لا تتجلى حينئذ بصفحتها كذلك - وهنا يكن النجاح - بل تتجدد بكيفيات مختلفة ، من شأنها أن تلحق نفس الضرر بالشخص ، وتجمعه عديم النفع بالنسبة للمجتمع ، كما لو كان قد عمد إلى الإشباع المباشر لهذه الرغبات المقموعة : وهنا يكن إخفاق عملية التطور ، التي تتغلب بمرور الوقت على النجاح . وظواهر التعويض التي تظهر حينئذ نتيجة لقمع الرغبات الجنسية ، تكون نتيجتهما ما نسميه ، نرفزة عصبية ، وبتعمير أصح ، عصباً نفسياً . المصابون هم هذه الفئة من الأشخاص ، الذين يتوصلون ، تحت تأثير متطلبات التمدن ، رغم أن

جهازهم النفسي يعارض ذلك ، الى قمع لرغباتهم الجنسية ، وهو قمع ظاهري فقط ومآله الاخفاق دائماً ؛ وم لهذا السبب لا يبقون على تعاونهم مع منجزات التمدن إلا بواسطة انفاق كبير للطاقة وافتقار داخلي ، أم أنهم يضطرون للانسحاب مؤقتاً ، وم مرضى . لقد قمت بتعريف الأمراض المصابية بصفتها « الصورة السلبية » للانحرافات الجنسية ، وذلك لأن الحركات الانحرافية تتجسد في هذه الحالة بعد الكبت في اللاوعي النفسي ، لأنها تحتوي على نفس الميول ، ولكن مكبوتة ، التي لدى الانحرافيين « الايجابيين »^(١) .

كان فرويد يفترض أن ثمة بالنسبة لكافة المنظمات الاجتماعية علاقة تناسبية بين مستوى تطور الحضارة (درجة التمايز الاجتماعي ، المنجزات الثقافية والانتاجية) ودرجة قمع الرغبات الجنسية ، هذا القمع الذي يحتاج إليه هذا المجتمع لأجل الحفاظ على مكتسباته . وفرويد ، بهذه الآراء لم يقف لا الى جانب « الحضارة » ولا الى جانب « الرغبة الجنسية » ؛ بل فقط هو يصف علاقاتها التناحرية ويعود من ذلك دائماً الى الاستنتاج بأنه كثيراً ما ينبغي أن يدفع ، لأجل الحفاظ على الحضارة ، ثمن ليس مرتقماً جداً ، من القمع والمرض . وهو لا يقيم تفاوت الثمن ، هذا ، انطلاقاً من القيم الاخلاقية المطروحة خارج ميدان التحليل النفسي ، بل يفعل ذلك تبعاً لنفس معيار ميزان - حضارة / رغبة جنسية : إن المصابين لا يستطيعون « الإبقاء على اشتراكهم في بناء الحضارة الا لقاء انفاق كبير للطاقة ، أو يضطرون للانسحاب مؤقتاً من حياة المجتمع ، وم مرضى » .

« وإنما أود استلفات الانتباه نحو النقطة التالية : إن داء العُصاب ، حيثما يسود ، ولدى أي شخص كان ، يستطيع أن يُحْبِط أي هدف حضاري ، ويقوم بذلك بعمل القوى النفسية المقموعة والمعادية للحضارة . وهكذا ، فإن

Freud, Die, Kulturelle sexual moral L. c. p. 128 (١)

ما ينبغي للمجتمع أن يسجله ، ليس هو ربما أحرص لقاء تضحيات ، لأنه ليس ربما ، إطلاقاً، بما أن المجتمع يدفع عن الطاعة إزاء أوامره وتعليماته الأخطبوطية تزايداً في حالة التوتر العصبي (١) . لقد وضع فرويد ، في دراسته « الاخلاقية الجنسية للحضارة المصرية والعصابية الحديثة » ، بالاستناد الى التاريخ الفردي للنمو والتطور الجنسيين ، مخططاً أولياً لتطور الحضارات ، وذلك لدعم رأيه ، القائل بأن تطوراً متزايداً للحضارات ، يرافقه تزايد في قمع الرغبة الجنسية في هذه الحضارات . إن آخر المراحل التي وصفها فرويد تطابق بذلك ، لأول وهلة ، الدرجة العليا لـ « الوظيفة القمعية للحياة الجنسية » .

« بالنسبة لتاريخ تطور الرغبة الجنسية ، يمكن إذن أن نتميز ثلاث مراحل في الحضارة : مرحلة أولى ، حيث نشاط الشهوة الجنسية حر ، حتى عبر أغراض التناسل ؛ ومرحلة ثانية ، حيث يحظر كل ما يخص الرغبة الجنسية ، باستثناء ما يخدم التناسل ؛ ومرحلة ثالثة ، حيث التناسل الشرعي مسموح به بصفته غرضاً جنسياً ، ان الخلفية الجنسية لحضارتنا تطابق هذه المرحلة الثالثة ، (٢) .

هذا المخطط الأولي يناقض جميع نتائج البحث الإناسي (الانثروبولوجي) ، الذي كان يمكن أن ينشأ ابتداءً منه تاريخ للتطور الجنسي في علاقاته بالحضارة ، بل إنه يناقض حتى الاكتشافات الانثروبولوجية التي يستند اليها فرويد (٣) . والواقع أن فرويد يمدد ، في هذا المخطط الأولي إلى مماثلة ضمنية بين الحضارة والحضارة الجنسية التناسلية ، التي من المؤكد أن يمكن أن يكون فيها النشاط الجنسي حراً ، شأنه في « المرحلة الأولى » ، وذلك عبر أغراض التناسل ، ولكن حيث جرى ، مبدئياً ، تحقيق السياق أو الإطار النفسي - الاجتماعي للتناسلية

(١) فرويد ، المرجع ذاته ص ١٣٨

(٢) Freud . Die «Kulturrelge» Sexualmoral (٢)

(٣) المرجع المذكور - ص ١٢٦

الفيزيولوجية ، وبالمقابل ، فإن المقارنة ، التي قام بها فرويد ، عَرَاضاً ، بين ما هو « فموي » ، و « آكل للحموم البشر » ، يجب أن يؤخذ فعلاً مأخذ الجد ، بالمعنى الذي يطابق فيه طبيعياً فردياً محدداً بدقة (فمويّاً) وشكل تنظيم اجتماعي محدد بدقة أيضاً (بدائي ، سكوني ، آكل للحموم البشر ، الخ) . وحسب هذا المفهوم ، فإن الممارسة الجنسية التناسلية لن تكون حينئذ ، فقط ، صفة خاصة بشخص معين ، كائناً ما كانت مرحلة الحضارة ومستواها الاجتماعي - الاقتصادي . وبالعكس فإن الطباع الجنسية - التناسلية لا يمكن أن تتكون إلاّ في اقتصاد بلغ درجة مرتفعة نسبياً من تمايز أنماط الانتاج ، وفي تنظيم اجتماعي مطابق لها ، حيث المتطلبات الموجهة إلى وظيفة أنا الفرد هي كذلك جد مرتفعة . وفي هذا السياق سيدرج بين وظائف أنا الفرد : الفهم الواعي لعمليات التطور الاجتماعية والتقنية ، والقدرة على التفكير والرقابة والتوجه والانضباط ، الاجتماعية ، ومعايير الردود ، وقدرة السيطرة على الرغبات الجنسية ، والتصعيد .

وتزداد دهشتنا إزاء هذا السهو الذي لجده لدى فرويد حين نعلم أنه هو نفسه قد لاحظ مراراً أن الفرد ، خلال تطوره الكياني عليه أن يلحق بوتيرة ممجلة بمجمل العمل الذي حققته الحضارة قبله (أي عملية نشوء الحب الجنسي) باستثناء الشطر الذي يحتمل أن يكون قد أمكن نقله بواسطة التراث خلال تاريخ الحضارات . ومن هذا الاستثناء ، كان ينبغي للثاني أن يترقب عليه بصورة بديهية ، وهو أن المراحل الماقبل الجنسية التناسلية للتطور الجنسي الفردي تطابقها مراحل ، سابقة للجنسية التناسلية للتطور الجنسي « الجماعي » ، (بفتح الجيم) ، أي تطور تاريخ الحضارات - وهي مراحل جرى ، بمرور الزمن ، امتصاصها وتحويلها خلال التاريخ . والواقع ، أن الرغبة الجنسية في المرحلتين الأوليين من « مراحل الحضارة » ، إذا كانتا تعودان إلى مجتمعات ما قبل - بورجوازية ، ليست - أي الرغبة الجنسية - حرة خارج أغراض التناسل المشروع ، إلاّ أن الأولوية التناسلية لم تكن قد قامت بعد ، والوعي المحر

المطابق لها لم يكن قد فرض نفسه ، بعد ، إجتماعياً . فإن لم يكن فرويد قادراً على تمييز ذلك ، فلأنه ، قبل كل شيء ، كان سجيناً بصورة كلية ضمن إطار الثقافة البورجوازية ولم يكن باستطاعته أن يفكر جميع نماذجه التاريخية - حتى نموذج ما قبل التاريخ - عملية قتل الوالد - إلا داخل مقولات الحضارة البورجوازية .

إن « العصابية العصرية » هي عرض الداء الجماعي للعصر ، هذا الداء الذي قام فرويد بوصفه وتحليله ، وبالضبط « مرحلته الثالثة من مراحل الحضارة » . وخلال هذه المرحلة يعاني عدد كبير من الأشخاص كثيراً ، من الاخلاقية الجنسية المفروضة عليهم ، بحيث تصبح مهددة الغايات النهائية للحضارة ، التي يتوجب عليهم أن يتحملوا من أجلها هذه المعاناة ، إن عدداً كبيراً حداثاً من الأشخاص يصبحون مرضى لدى تقديمهم بمعايير « التمدن » ويضطرون « للانحجاب » . مؤكداً أن هناك الطرائق الكلاسيكية للحيلولة دون ظهور داء عصابي مكشوف أو إخفاء هذا الداء ، مثل الاخلاقية الجنسية المزدوجة لدى الإنسان ، والقرار إلى الرفض الجنسي ، ونزعة التدين ، أو أعمال الخير لدى النساء . إلا أن هذه الكيفيات في إخفاء داء العصاب لا تحمل وحسب آثار المرض - وذلك يمكن السماح به لمصلحة المجتمع ذاتها - بل إن الأمراض العصابية ومحاولات اجتنابها ، تناقض ، مع الأخذ في الحسبان تقدم التطور الاقتصادي والكيفية القمعية المنظم بها هذا التطور اجتماعياً ، تناقض على الدوام المتطلبات الناتجة عن ذلك ، والمتعلقة بأدوار الأفراد الاجتماعية المضبوطة . لقد استخدمنا أعلاه مثال الوظيفة المتصلبة لأجل معالجة هذا التغيير في الوظيفة : فمن جهة ، لأجل صالح صيانة الحضارة ، لم تعد القيود الجنسية المتصلبة ضرورية ؛ ومن جهة أخرى ، وفي مصلحة صيانة منظومة تجديد الانتاج الاقتصادي ، يصبح ضرورياً بصورة مباشرة تحقيق « انفراج » في هذه الاخلاقية الجنسية ، التي هي ، في حالة تصلبها ، في منشأ أمراض العصاب الفردية (العصابية العصرية) . وهكذا فمع الأمراض

المصابية ، بل وربما بدلاً من هذه ، تظهر دائماً وبصورة أكثر تواتراً أشكال ذهانية لأمراض سببتها الحضارة .

إن منحرفي عهد الانهيار هذا قد رفضوا ، ونعبر عن ذلك مانحين إياه طابعاً مثالياً ، أن يظلموا كلياً بالحالات الارغامية للحضارة وأخلاقيتها الجنسية . وهذه القدرة على المقاومة أكسبتهم مكافأة . فقد استطاعوا أن « يوفروا على أنفسهم حالات وعمليات الكبت » . وكثيراً ما يسميهم فرويد أبطال الحضارة ؛ وحين لا يكونون سجناء انحرافهم ، فهو يستطيع أن يقدمهم بمثابة (أشخاص أصحاء لكن غير أخلاقيين إلى درجة غير مرغوب فيها اجتماعياً) (١) . ومؤكداً تماماً أن هذا التقسيم لا يصح إلا بالنسبة لنمط المنحرف المنمنم ، الذي لا يقتصر على كونه أسمى من الاخلاقية الجنسية ومن منتجاتها المصابية ، بل إنه يسيطر كذلك بصورة ما على انحرافه هو نفسه ، ولا يصبح عاجزاً عن السيطرة على الواقع .

إن المعجز ، الذي يظهر في زمن مبكر جداً ويبقى ، لاحقاً ، عن الحد من الرغبة الجنسية ، ولكن على الأخص المعجز عن تحويلها أو نقلها إلى غرض آخر وذلك بصورة عامة من أعراض الانحراف ، وهو يجعل أولئك المصابين به عاجزين عن تحمل الواقع ومجاهته ، وهو أيضاً من أعراض حالات الانهيار الذهاني في سن الرشد ولكن على الأخص في سن الحداثة ، أي مختلف أشكال داء الفصام والذهان الهذيان ، ولدى إعطاء مخطط أولى يمكن القول عن جميع هؤلاء الأشخاص : إن أمرتهم لم تمنحهم الطابع الاجتماعي بصورة كافية ، ولم يكن لديهم أمثلة متجانسة ، كان باستطاعتهم أن يتعلموا انطلاقاً منها تحويل الرغبة الجنسية وضبطها وتوجيهها ، وإعطاء هذه الرغبة الجنسية نوعيتها الحقيقية ومختلف أشكال السيطرة على الذات . وهذه المزايا والصفات تفرض لاحقاً

(٢) Freud. Die Kulturelle... المرجع المذكور .

(بصورة مبالغتة) من جوانب العالم المحيط (المهنة ، المدرسة ، جماعات الفتيان ، والنضوج الجنسي ، الشريك من الجنس الآخر) مع المزيد من حالات الارغام والضغط . إن الشخص ، النهار نفسياً واجتماعياً ليس على مستوى متطلبات الواقع هذه المبالغتة ، ولذلك فهو يضطر لأن يحل محلها عملية دفاع غريزية - جنسية ، تبدأ باكراً جداً وتظل بدائية جداً . إن حالات الانهيار العصابية ليست سوى التعبير الأكثر ظهوراً عن مختلف أشكال السلوك الفوضوي الذي يمكن أن يتراوح بين الانحراف الجنسي الظاهر والذهان السريري . وتحديث حالات الانهيار هذه بعمد له دلالتة عند الأطفال والأحداث المنبثقين ، إما من عائلات كانت فيها العلاقات بين الأبوين - والاولاد قائمة على أساس الزنا الصريح ، وإما عن عائلات كانت فيها الام مفرطة العاطفة والحنان إلى درجة مَرَضِيَّة - ولكن مع تناقضات في هذه العاطفة - وإما أيضاً من عائلات يقدم فيها الوالد والأم إلى الولد عروفاً لتحديد الشخصية ، متناقضة الى أقصى حد ، وغير متلائمة ، بل ان الأبوين يتنافسان في عروضهما ، وهؤلاء الأولاد ليسوا ملحين بالقدرات التي لاغنى عنها (التحديد المتجانس للشخصية ، واختيار الغرض ، وتطوير وظائف الأنا وتحقيق استقراره ، الخ) للسيطرة اللاحقة ، على الواقع . إن جميع عمليات وتفاعلات المهمة هذه المفضية الى الانحراف الجنسي أو الى داء العصاب تبدو متصفة باختلال في تطوير الطفولة المبكرة وقبل زمن طويل من المرحلة الأوديبيَّة ، وعلى وجه التخصيص في المرحلة الفموية والشرجية لتحديد الشخصية ، والحصول على اللذة ، وبلوغ الغرض ، وتكوّن الأنا .

وإذا كان يمكن ، بشكل من الأشكال ، أن تتطابق المراحل الفرويدية للحضارة مع أنماط مختلفة من اشباع الرغبة ، على الصعيد الاجتماعي والفردي والجنسي على حد سواء ، فإن المرحلة الاولى يمكن أن تطابق النظام الاقطاعي ، والثانية مرحلة الانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية ، والثالثة : الرأسمالية ،

المتصفة بالفرقة البيوريتانية . وبالتالي ، يمكن اعتبار أننا بلغنا اليوم « مرحلة رابعة » ، حيث حدث انفراج في الاخلاقية الجنسية التي تسمح فقط بالتناسل المشروع بصفته الهدف الجنسي الوحيد ، لكن هذا الانفراج لا يتنازل تماماً مع حرية تتجاوز أغراض التناسل ، لكنها ارتداد إلى الوراء ، إلى ما قبل العلاقة الجنسية التناسلية القسرية . وهنا يمكن الحديث تاريخياً عن انقسام جماعي (انحلال) للبنية التناسلية لدى الرغبة الجنسية ؛ ومن وجهة اقتصاد الرغبات الجنسية ، في وضعها على مستوى الشخص المنزول ، فإن المرحلة التناسلية للحياة الجنسية لم تعد تُبلِّغ أو هي لا تُبلِّغ إلا بصورة غير كاملة ، وعلى هذا الأساس ، يلاقي العرقلة بصورة خاصة التقدم من « العشق الجنسي الذاتي » إلى الحب الغرضي - حب الشخص الآخر - ومن استقلالية المناطق المولدة لشهوة الحب الجنسية إلى اتحادها في تنظيم من الشهوة الجنسية الشديدة الواعية الموجهة نحو الغرض ، ذلك لأن عملية تطور الجمعة التي لا غنى عنها ، يتزايد ضعف عملها أكثر فأكثر ، أو أنها تختفي كلياً ، وذلك لأن نزعات متعارضة تثور ، قبل ذلك ، يختلف الصور ، وتعمل بصورة أكثر فمالية . إن تجليات وتجددات طباع فردية واجتماعية تتكون على هذا النحو ، وما يطابقها من ممارسة جنسية ، تقدم وجوه شبه هامة مع أنماط السلوك العصابية .

النضوج الجنسي الدائم والحركية الجنسية

إن « الاستيعاب أو الاندراج - الانزعال » للأفراد ، الذين عاجلنا أوضاعهم في الفصل السابق ، يرتكز قبل كل شيء على ثلاث ظاهرات نفسانية : (١) على إضفاء الطابع الوثني على الأغراض الاستهلاكية ، والأغراض الجنسية ، وأغراض الاستهلاك « اليومي » (الجاري) (٢) وفي الوقت نفسه على لامبالاة عامة إزاء هذه الأغراض (٣) على قلق غير محدد لكن راهن دائماً ، من فقدان

هذه الأغراض^(١) . وهذا القلق يبدو أنه العنصر الذي يقوم باستيعاب الأفراد المنزولين ، مبقياً على عزلتهم .

جميع هذه الظواهرات تحيلنا إلى وضع خاص لعملية تطور الشخص ، وهو يتصف ، في وقت معاً ، بالقلق وباللامبالاة بالفرض : الطفل الصغير تابع إلى أقصى حد ، وهو في حاجة إلى كثير من الحماية . وهذه التبعية هي ، في حد ذاتها ، خاصة بالطبيعة البشرية ، وينبغي أن يكون هدف التربية تخطي هذه التبعية ، وأن تجعل من الولد رجلاً راشداً بالغاً أشده ، وواعياً ، وقادراً نسبياً على أن يحدد ذاته . لكن الطفل ليس تابعاً فقط ، بل هو أيضاً أتانى وغير اجتماعي وهو لا يجب إلا ما يضمن له إشباعاً مباشراً لرغبته ، دون اعتبار لماهية الفرض . ان الجهاز العضوي للطفل ، كما يقول فرويد ، ذو درجة عالية من شهوة - الحب - الذاتية والطفل يستخدم لكي يشبع رغباته الجنسية الشهوية - الغرامية - الذاتية ، مصادر اللذة (المناطق المولدة لشهوة الحب الجنسي) المتنوعة جداً . ومؤكد أن الولد الصغير لا بد وأن يلاحظ مبكراً جداً أنه لا يستطيع دائماً أن يشبع رغبته دائماً بذاته (مثلاً : إن الثدي ، مصدر اللذة ، هو ملك أمه ، وليس له) بل ان أشخاصاً يظلمون بذلك ، الذين هو تابع لهم ، بالتالي . ان عملية التطور التي يدرك في نهايتها الطفل أنه تابع ، تتوافق مع تكون نواة « الأنا » الأولى (تكون الوعي) . وإثر ذلك ، هذه التبعية يجب تجاوزها بفضل مكتسبات وانتصارات متزايدة للأنا . وكيفية حدوث عملية التطور ،

(١) قام بإبراز هذا العامل جيداً و . ف . هوغ : المرجع :

(Warn - Asthetik und Argst) in Das Argument. No 28.
année 1964. p. 27.

« (...) إن نط عمل الدعاية القائمة على التكيف التضليلي : أنه يحدد ما هو مرغوب فيه ، ويكيف ويستخدم على هذا النحو القلق الكامن من فقدان الحب » .

سيكون لها تأثير حاسم على صحة أو مرض الحدث المراهق ، والشخص الراشد البالغ أشده ، بالنسبة لمعايير حضارة معينة .

إن عملية التطور هذه ، أي التربية ، الهادفة إلى تحقيق استقلال الولد ، تمرقلها مراجع جديدة للمجموعة خارج العائلة . ودون علم العائلة ، مع استخدام تأثير هذه ، تُدخل هذه المراجع في الجهاز النفسي للشخص آليات مضادة تهدف إلى إبقاء الفرد على مستوى التبعية القابلة للضبط ، والتوجيه ، وللتكيف التضليلي . وواقع أن الأشخاص حالياً يتفقتون ، في وقت مبكر ، أكثر من العائلة ، لا يناقض وجهة النظر تلك ، بل إنه ، بالعكس ، يفسرها . ويبدو أنه يشير إلى نهاية الوظائف التقليدية للعائلة ، لا سيما إذا كان هذا الاستقلال المبكر ليس النتيجة الحقيقية الصادقة للتربية العائلية ، بل إذا كان ، بالعكس ، انتصار التربية الخارج - عائلية على العائلة ، وإذا ما تبين من جهة أخرى أن هذا الاستقلال هو تبعية متزايدة إزاء مراجع أخرى .

وهكذا فإن التطور النضوجي - الجنسي ، وهو هدف تسمى إليه الحضارة تقليدياً ، لا يعود يتحقق ، بل بالعكس فإن الشخص يجري إبقاؤه في حالة نضوج جنسي دائمة . وكما سبق أن رأينا ، ففي مرحلة النضوج الجنسي يجب أن يتحقق هذا الهدف ، أقصد ، إتباع جميع مصادر الإثارة والتهيج الجنسي إلى أولوية المناطق التناسلية الجنسية ولعملية اختيار الغرض . ويُعرف هذا الغرض بصفته قائماً على ممارسة علاقة مع شخص من الجنس الآخر ، وخارج أفراد العائلة (أي أنه قائم على غير أساس الزنا بالهرم) ؛ وتتطلب حضارتنا أن لا يتصور المرء سوى غرض واحد ، في وقت مما . لكن الإتياع للعملية الجنسية التناسلية وامتلاك غرض مقابل ، لا يمكن نجاحها إلا إذا كان المائلة الأولى مع شخصيتي الأبوين ، وهي مائلة متعددة الوجوه والقوى (مؤلفة من حب وبغضاء) وهي خاصة العلاقات بين الأبوين - والأولاد أثناء فترة الكون ، يُستبدل بها انفصال إزاء الأهل ، هذا إذا كان ذلك ممكن الحدوث ، أي إذا كان باستطاعة

الفتى والفتاة بلوغ الاستقلال والوعي ، لدى الصراع الذي يضمهما في مواجهة الأم والأب ، إنه ضعف سلطة الأبوين ، المحدد اقتصادياً وتاريخياً (لا سيما في ألمانيا أثناء عهد الفاشية) يبدو أنه يهتل حالياً ، من حيث الوجوه الخارجية ، عملية الانقلابات ، لكنه يجعلها أكثر صعوبة ، من حيث وجوهها الداخلية . وفي هذا الصدد يكتب أ. وم. ميتشيرليش قائلين : « بتدني سلطة الطاعة إزاء الأب في العائلة ، تناح المولد إمكانية أكبر بكثير منها في الماضي للتجسيد الخارجي لنزعاته الأوديبيية . وعملية التطور هذه لا تأتي فقط بجرية أكبر . ولكن يمكن أن تكون نتيجتها أيضاً ضياع أكبر ، نظراً لأن هدف الأب أو الأم ، الذي يتحول نحوهما الاحتجاج الصريح ، تتدنى قدرته باستمرار على النقاط وتثبيت المدوان^(١) . وبدهي تماماً ، أن الأبوين إن لم يعودا يستدعيان كثيراً تثبيت المدوان عليها ، فذلك لأنها في وقائع الحياة قد فقدت شيئاً من قدرتها . مؤكداً أنه مازال يمكن مكافحتها ، لكن خوض مجابهة فعلية معها ، واستعمال كل الطاقة والعزم ضدها ، قد أصبح مستحيلاً . في مثل هذا الوضع ، لا يستطيع الآباء والأبناء إلا الارتداد إلى مرحلة طفولية على حد سواء بالنسبة للجانبين . » ويبدو أن كلا من الآباء والأبناء يبحثون عن والد - والد أسمى - ولكن يتخذون منه موقفاً ازدواجياً وهم ليسوا على استعداد لقبوله ، دفعة واحدة ، بمثابة مثل أعلى ،^(٢) .

وإذا كان الاستقلال إزاء الأبوين يجرى تسهيله على هذا النحو من الخارج ، فليس ذلك ، في الأساس ، لكي يتمكن الأولاد ، بصورة أسهل من أن يضطلعوا بـ « دور الأبوين والأهل » ، وأن يصبحوا راشدين واعين وقادرين على أن يحبوا . ومن جهة أخرى ، فهذا الاستقلال يغدو أكثر صعوبة بواقع أن الأبوين

(١) أ. وم. ميتشيرليش . المرجع المذكور . ص ٢٣٠

(٢) ميتشيرليش . المرجع المذكور . ص ٢٣١ .

الضعيفين قد حلت محلها مراجع تجمعة خارج - عائلية ذات قدرة جبارة ؛
والحال ، فإن مقاومة هذه المراجع هو أكثر صعوبة لا سيما وأنها - أي هذه
المراجع - لا يمكن تشخيصها ، تحديدها في أشخاص ، وأن الأولاد لم يسبق لهم
أبدأ أن تعلموا المقاومة ؛ إن ساحة التدريب التي كانت تقدمها لهم عائلتهم لم
يكن لها وجود مطلقاً . وهكذا فما من انفصال أو استقلال حقيقي يحدث - في
هذا النموذج - وجل ما يحدث هو نقل لتحديد الهويات الحقيقية لأشخاص
ازدواجيين ، سابقين لمقدمة أوديب . ويصف ميشيرليس خاصية هذه العلاقة
على هذا النحو : « إنهم - أي الفتيان من الأبناء والبنات - لا يحتاجون ، لكنهم
ليسوا جد متعلقين على كل حال ؛ بل بالمعكس ، فإنهم يذكروننا باليتامى الذين
تصفهم أنا فرويد ، والذين انقطعت لديهم ، بفقد الأم ، الرابطة الطبيعية
بالأم ، منذ زمن مبكر جداً ، دون أن تحمل محلها رابطة أخرى على مستواها ،
ويظهر لدى هؤلاء الأولاد بعد نمو طبيعي أثناء الطفولة ، اضطرابات خطيرة في
فترة البلوغ » (١) .

ولا شك مطلقاً في العوامل الجديدة للمجموعة الخارج - عائلية ، ترفع هي
أيضاً ، إلى مرتبة معايير التكيف ، الصريحة أو المستترة ، ولكن المركزية
دائماً ، المتطلبات التقليدية بصدد التحولات البلوغية - بلوغ النضوج الجنسي - .
وهذه « العوامل » تعمل حينئذ بصورة لا يمكن إلا أن تبقى الفرد في حالة
التوتر الممضة ، حالة البحث عن الغرض ، وفي حالة من التوتر الجنسي غير
المُرْتضية من حيث الميول . وقد وصف فرويد ، بصورة جميلة ،
على هذا النحو « تحولات البلوغ » ، قال : « إن الصفة الطبيعية للحياة
الجنسية بضمنها التقاء تيارين ، متجهين نحو الغرض ، أي الشخص موضوع الحب ،
والهدف الجنسيين : تيار الحنان ، وتيار الحس الشهواني . ويحوي أول هذين

(١) ميشيرليس - المرجع المذكور - ص ٢٣٨ .

التيارين في ذاته ما تبقى من التفتح الأول للحياة الجنسية الطفولية . ويحدث شيء أشبه بشق نفق يجري من الجهتين ، (١) .

ويبدو أن الهدف الظاهر للمراجع الجديدة للمجمعة ، ولعوامل التكيف التضييقي يقوم في أنه يجري الحفر من الجهتين بنشاط محموم ولكن في اتجاهين حتماً لا يلتقيان ، ويبقى بينهما فارق معين ، وإن قليل ، وهما لا يقودان أبداً إلى نور النهار بل يظلان إلزامياً في ظلمات التوتر والقلق والغصة وعدم الشعور بالأمن والسلامة .

هذا التناقض هو على كل حال في أساس مجمل الدعاية المكيفة التضييكية لنشر الإنارة الجنسية بواسطة الأفلام والمجلات المصورة الكبرى (الماغازين) وأشكال التعبير التي تتخذها الآن العلاقات بين الفتيان ، في الأزياء (الموضة) والرقصات ، والموسيقى . ويجري دائماً عرض طائفة مختلطة مشوشة من الأغراض والأشياء الجنسية ، تتوجه بصورة فيتشية (توثينية) إلى الرغبات الجنسية الجزئية غير المتناسقة؛ من هذه الأغراض والأشياء « التي يجب الحصول عليها » ، والتي تعدُّك ، في آن واحد ، بالبهجة وإشباع المتعة والسعادة الأبدية والتي ما إن تحصل عليها حتى تحملك على تمني أغراض جديدة من طرازها .

كذلك كانت حياة الحب البلوغية التقليدية ذات أساس هو مفهوم أن البحث عن الغرض (أو عملية اكتشاف الغرض) لم تنته بعد ، لكن الشخص البالغ يعمل تبعاً لمبدأ « الاختيار الترجسي للغرض » . ومؤكد أنه يقع بإخلاص وشعور عميق في حب جميع الأغراض الممكنة والمستحيلة ، بصورة واضحة ، بل هو يستطيع حينئذ حتى أن يتردد بصورة مدهشة بين اختيار غرض من نفس الجنس ، أو من الجنس الآخر . ويبدو أن « نقص الجدية » الذي يُنسب عادة

(٢) فرويد « ثلاث دراسات » المرجع المذكور ، ص ١١١ - ١١٢ .

إلى هذه العلاقات الغرامية يقوم تماماً في واقع أن الفتیان والفتيات ينجحون بسرعة لا يعرفها الراشدون الناضجون ، في سحب حبههم أو عبادتهم أو إجلالهم لشخص أو لشيء ، لكي ينقلوها بكاملها إلى شخص آخر أو شيء آخر . وبصدد صلات العشق هذه كتبت أنا فرويد تقول : « هذه العواطف المفعمة وجداً وحرارة ، والعبارة جداً ، ليست مطلقاً علاقات غرضية بالمعنى الذي يعطيه هذه الكلمة الأشخاص الراشدون ، بل هي فقط ميول للعشور على النفس في الآخرين ، ومن النوع البدائي جداً ، وهي مماثلة لتلك التي نستطيع العشور عليها في المرحلة الأولى من نمو ولد صغير ، قبل ظهور أي حب غرضي . ومن جهة أخرى ، فإن عدم الثبات الخاص بمرحلة البلوغ يكف عن أن يسجل لدى الذات تغيراً للحب أو القناعة ، بل بالأحرى فقداناً للشخصية نتيجة لتحقيق جديد للذاتية في العشور على غرض جديد » (١) لكن هذه الصلات الغرامية التقليدية ، في مرحلة البلوغ ، تقدم درجة عالية من العفوية والإخلاص ، تخلو منها بصورة مؤلمة جداً الصلات الغرامية - الاستلامية في أكثر الأحيان - بين الأشخاص الراشدين .

والحال ، فإن الصلات الغرامية المحددة بمفهوم « مرحلة البلوغ الدائمة » تخلو من الثبات والنضج ، المميزين لعلاقات الراشدين الغرضية ، مثل خلوها ، على حد سواء ، من الصراحة الغامرة في مرحلة البلوغ . ويبدو عليها منذ البدء عجزها عن الامتلاك الحازم للغرض ، وأنها غير قادرة على القيام بعملية امتلاك شهوانية - غرامية - ذاتية (نرجسية) ناجحة ، تكون ضرورية للتوصل الى صلات غرامية بلوغية ، مخلصه ودفاقة ذاتياً ، معروفة سابقاً . وهؤلاء العشاق لا يستطيعون أن يتجاوزوا مرحلة البلوغ ، وذلك قبل كل شيء ، لأنه تنقصهم

(١) أنا فرويد . « الأنا وآليات الدفاع » مكتبة التحليل النفسي - المنشورات الجامعية

الفرنسية - باريس - ١٩٦٩ . ترجمته عن الألمانية أنا بيرمان . ص ١٥٧ - ١٥٨ .

الركائز النفسية والانفعالية الماقبل البلوغية ، التي لا غنى عنها لكل نمو وتطور صحيحين لمرحلة بلوغهم . وتصل إلزامياً ، بهؤلاء إذا كانت لديهم علاقات حقاً ، إما إلى اضطرابات عصبية - عابرة على الأقل - (كالخُدار المهبطي عند المرأة ، مثلاً) ، وإما إلى مواقف أشبه بالمنحرفة تطابق تلك ، كنزعة الدوجوانية عند الرجل ، مثلاً (الباحث عن الغواني dragueur) .

هذا الشكل المُكَيَّف من الانحراف يمكن تفسيره انطلاقاً من مثال الدوجوانية التقليدية أو الجديدة ، على حدٍ سواء . هؤلاء الدوجوانات ليسوا فوضويين ، ولا متمردين ، ولا ظاهري المرض (عصابيين بالمعنى الاجتماعي) ولا حق منصرفين ، بالمعنى الدقيق للكلمة . إن الدوجوانية التقليدية هي ، في النموذج التحليلي - النفسي ، سيرة تنتمي إلى ميسل الشخص نحو أفراد من نفس جنسه (اللواط - السحاق) ، بصورة كامنة . والمصاب بها - أي النزعة الدوجوانية - قدر له أن يمر ، بصورة فاشلة ، بعملية مماثلة ذاتية (وجود الذات في شخص آخر والتعلق به) في شخص الأب . وحين يأخذ فيما بعد ، بالركض المستمر ، وراء تنوُّر نسائية مثالثة الخ ، ويحبل ويشتهي خلال بضعة أيام أو حتى بضعة ساعات فقط كل امرأة من اللواتي يظفر بهن ، ثم يتركهن يغصن في شقاء المصيبة بعد أن يستجبن لرغباته ، فإنه في الواقع ، يركض للحصول على والدته ؛ وفي اضطراب جبري على التكرار ، يُلحِقُ بها الألم الذي ألحقته به أثناء المرحلة الأوديبيية ، حيث كان في مرتبة أدنى كلياً في عملية المنافسة التي كان يحابه بها أباه ، بحيث أنه كان محظوراً عليه - أي الابن - حتى القيام بعملية مماثلة (الحب الوجودي للذات في الآخر) - هذه المماثلة التي كانت تجعل ممكناً الميل إلى نفس الجنس (اللواط - السحاق) بشكله الصريح . لكن هذا الدون-جوان التقليدي « يعاقب » على سلوكه « المشوائي » بأعراض داء العصاب ، الممثلة في المعجز عن الانتصاب وعن قذف المني ، وهو يظل بذلك في مواجهة ذاته . وهو يعاني آلاماً مبرحة من جراء ذلك . إن دوريان جراي ، بطلس قصة

أوسكار وابلد المعروفة ، هو ، في وقت مءاً ، واحد من هؤلاء الدرئجوانات ، وشخص « يعيش في فترة بلوغ دائمة » ، (يبقى فقئ شاباً على الدوام) مؤكد أنه لا يوصف لنا لديه أي عرض ظاهر من أعراض داء العصاب ، لكن الواقع هو أنه يتناول المخدرات باستمرار ، ويكون مآله أن يصبح قاتل ذلك الذي يكشف له عن سر « فتوته الدائمة » وعيشه مرحلة البلوغ المستمرة .

إن الأشكال الراهنة للدونجوانات تبدو أنها تنجو من « عقاب ، الإصابة بالعصاب . ففي الرأسمالية المتأخرة زمنياً ، يعطى طابع المؤسسة حالياً لنظام من الدرئجوانية « كاملاً تماماً بحيث سيزيل دائماً أكثر فأكثر مع مرور الزمن الأوجاع التقليدية التي كانت تسببها الحضارة (الأمراض العصبية التي كان يعيها المصابون بها) . وقد جرى الحديث حتى الآن عن ذلك النظام ، بصفته مجالاً اتساعياً جديداً ، منحته الطبقة السائدة ، للحركة الجنسية ؛ إلا أن هذه الحركة ليست سوى الوجه الخارجي لتحول « يس » ، للمرة الثانية في تاريخ الرأسمالية « ركيزة الطباع الاجتماعية » ^(١) . إن هذا التوسع سوف يزداد اشتداداً مع الزمن ؛ وهو منذ اليوم موضوع دعاية متزايدة باستمرار . وسنرى عما قريب أن المجالات المصورة الكبرى المخصصة للأحداث المراهقين تقدم لنا مؤشرات « علائم » هي أكثر بلاغة أيضاً في الولايات المتحدة .

هذا النظام يرتكز ، في جملة مرتكزاته ، على انفراج بالنسبة لحالات امتلاك الغرض ، أو بالأحرى على توجيه جديد للجمعة ، يستبعد كل امتلاك غرضي

(١) هذه الصيغة الجميلة : « An den Grund der sozial-charactere rührt »

هي لماكس هوركهايمر في دراسته بعنوان ؛

« Die juden und Europa » in Zeitschrift für sozialforschung, année VIII. Paris 1939 . p. 118

دائماً . وتبعاً لوجهة النظر هذه ، ينبغي أن تمرى الأمراض العصبية التي ما زالت تلاحظ في أيامنا ، والتي هي في الواقع ، متواترة جداً (كثيرة الحدوث) والنزاعات الجنسية الأخرى الحادثة ذاتياً ، في شطر منها ، إلى بقاء معاند للقدرة القديمة على امتلاك غرض ما ، ومن جهة أخرى إلى التناقضات والتطور الموضوعي غير المتزامن ، لمختلف المؤسسات التربوية ؛ وهذه المؤسسات تعطي الفرد ، في أفضل الأحوال ، فكرة غامضة عن تناقضات مجتمعنا التنافسية . والواقع أننا ننطلق ، من أجل عملنا السياسي ، من تناقضات المؤسسات هذه ، مع اختيارنا بمثابة موضوع للعمل التربوي السياسي ، ظاهرات مختلفة مثل التآلي * l'automation في المؤسسات والمصانع ، والبنية الاقتصادية للجامعات ، وتزايد فقر مواردها المالية أو القمع الجنسي في المؤسسات المدرسية .

اختيار الغرض الفرجمي والحب ، والدُرْجة (الموضة) واللذة التمهيدية الدائمة .

إن الآليات والتطورات التي عاجلناها حتى الآن تصف نزعاً من نزعات الحياة الجنسية في مجتمعنا . وهكذا فنواصل القول : لا يصبح الأفراد عاجزين عن أن يتزوجوا ، وأن يحبوا في إطار الزواج الأحادي ، وإنجاب الأولاد وتربيتهم ، وأن يفصلوا بصرامة ودقة الحياة الجنسية عن العمل ، النخ ، بل إن من واجبهم أن يحققوا كل ذلك . لكن هذه القابليات تفقد تلاحمها ، وبذلك نفسه تفقد ما كان لها أساساً في المجتمع البورجوازي من قوة الاستيعاب والادماج الاجتماعي - وإن كان هذا لم يتحقق إلا نادراً جداً - . وبدلاً من هذا التلاحم تظهر ضغوط وحالات قسر وإرغام وحرابات ظاهرية محويزة

(*) راجع قاموس « المنهل » ،

(مقسمة بمواجز عديدة cloisonné) ومجزأة إلى مصالح متباينة تقوم بين كل منها جدران فاصلة ولا تاريخية ahiastorique - تتكامل فيما بينها مع ذلك. ويمكن أن تستخدم حينئذ الحريات المتزايدة لتبرير تزايد عمليات وحالات القسر والإرغام . لناخذ مثلاً بسيطاً: إذا كانت توجد في الزواج حريات اتخذت تقريباً طابع المؤسسات ، تلزم الزوجين على ضبط علاقاتها اقتداءً ببدا العلاقات الخارج - زواجية ، غير المزعجة ، أو حق الضرورية ، فإن الارغام الاجتماعي المتجسدة خصائصه في الزواج والمفروض بصورة دائمة يصبح أخف عبثاً ، وأكثر شرعية ، وأصعب على كشف القناع عنه ، ويفرض المعنى الجديد ، للزواج ، نفسه بسهولة أكثر ، بصفته عاملاً متميزاً للتكيف المباشر . ولكي نستطيع أن نفهم بصورة أفضل الشيء الذي يضمن تماسك نظام التكيف المباشر ، هذا ، وعلى أية عوامل متميزة يستطيع أن يرتكز ، علينا أن ندرس بضعة آليات أخرى لهذا النظام ، مرتبطة مباشرة بما عالجناه في المقطع السابق .

إن النرجسية le narcissisme ليست مماثلة بصورة مباشرة للشهوة والحب الذاتيين بمقدار ما أمكن أن يبدو حق الآن . ففي وقت مبكر جداً ، ينمو ابتداءً من هاتين الرغبتين ، في الوقت نفسه مع تطور « الأنا » ابتداءً من الوحدة الأولية في الطفولة الأولى للأنا وللانفعال اللاواعي le ça (١) .

(١) يسأل فرويد في كتابه « الحياة الجنسية » - مكتبة علم التحليل النفسي ، المنشورات الجامعية الفرنسية ، باريس ، ١٩٦٩ ، ترجمة دنيز بيرجيه وجان لا بلانش ، في الفصل الخامس من الكتاب ، وعنوانه « لأجل ادخال النرجسية » : « ما هي علاقة النرجسية (...) مع نزعة الحب الشهوانية - الذاتية ، (...) . من الضروري الاقرار بأنه لا يوجد منذ البدء ، في الفرد ، وحدة يمكن مقارنتها بالأنا ، ويكون على الأنا ان تخضع لنمو وتطور . لكن الرغبات الجنسية للفرايمية - الشهوية الذاتية تكون موجودة منذ البدء ، لذلك ينبغي ان يأتي شيء ما ، نشاط أو عمل نفسي جديد ، يجب ان يأتي ليضاف الى نزعة الحب الشهوية الذاتية لأجل اعطاء شكل للنرجسية . (ص ٨٤) .

وفي رأي البناء التحليلي النفسي ، أن الفرد يتلقى ، أثناء تكون الأنا لديه ، غرضين جنسيين بدائيين : « نحن نقول إن لدى الكائن البشري غرضين جنسيين أصليين : هو ذاته ، والمرأة التي تعنى به ؛ ونحن نفترض مسبقاً ، في هذا ، وجود النرجسية الأولية عند كل كائن بشري ، هذه النرجسية التي يحتمل أن يؤول بها الأمر الى أن تتجلى بصورة مهيمنة في اختياره للغرض (١) ، ولدى تحليل فرويد مصير هذين الغرضين الجنسيين في الطفولة الأولى ، يصل فرويد عبر ذلك إلى أن يميز نمطين من اختيار الغرض لدى الطفل والراشد ، وهو يسمى النمط الأول اختيار الغرض عن طريق الدعم ، وهو يقصد بذلك ، بصورة أساسية ، ما حاولت وصفه بواسطة مقولة تركيز الغرض النفسي (ونموذج عملية الدعم هذه هو تبعية الطفل نحو الأم ، مصدر اللذة) ويسمي فرويد النمط الثاني اختياراً نرجسياً للغرض (أن يعتبر الشخص ذاته غرضاً لحبه (٢)) . ويقوم هذان النمطان على أساس فرضية « النرجسية الأولية » ، ويقصد بذلك وضع لشهوة الفرد الجنسية الزاخة le libido ، حيث تنجعه منه نحو الخارج دفعات ورغبات جنسية شهوانية قوية (مثلاً : يحب الفرد شخصاً آخر) . ويتصف النمط الثاني بواقع أن هذه الدفعات الجنسية - الشهوانية القوية موجهة بصورة أساسية نحو شخصه هو ذاته ، لذلك يسمى أيضاً هذا السلوك « نرجسية ثانوية » .

كان باستطاعة فرويد أن يطبق هذا التمييز على اختيار الغرض « المذكر » و « المؤنث » نموذجياً . وكان هذا يطابق ، على حد سواء ، الممارسة الجنسية

(١) المرجع ذاته - ص ٩٤ .

(٢) فرويد - المرجع المذكور - ان التمييز بين هذين النمطين يقوم على أساس التمييز ، من الزاوية الاقتصادية ، بين رغبات الأنا والرغبات الجنسية ، وهو تمييز تحلى عنه فرويد فيما بعد لصالح مزدوج غريزي هو : الرغبة الجنسية - التدمير . الا ان التمييز بين هذين النمطين لاختيار الغرض هو صحيح ومضبوط .

لدى الفئة العليا الميسورة من المجتمع^(١) ، وهي وحدها التي قام بتحليلها فرويد كما يطابق المعايير العامة للعلاقات الجنسية واختيار الشريك في أنظمة السيطرة الرأسمالية والأنظمة السابقة :

« ان المقارنة بين الرجل والمرأة يظهر حينئذ أنه توجد في علاقتها بنموذج اختيار الغرض فوارق أساسية ، وإن لم تكن طبعاً ذات انتظام مطلق . إن الحب الممتلئ للغرض حسب النموذج عن طريق الدعم هو شيء يميز للرجل بصورة خاصة . وهو يظهر الإفراط المدهش في التقدير الجنسي ، الذي منشأه بالتأكيد في نرجسية الطفل الأولية ، ويستجيب ، إذن ، لعملية نقل هذه النرجسية إلى الغرض الجنسي . هذا التقدير الجنسي المفرط يتيح ظهور حالة الافتتان Verliebtheit الخاصة تماماً^(٢) تكون أشبه بحالة إكراه أو إرغام عصائي ، تنحدر على هذا النحو نحو افتقار الأنا في الشهوة الجنسية الزاخمة لصالح الغرض ، ويختلف عن ذلك تطور النموذج المؤنث الأكثر انتشاراً وربما الأشد نقاءً والأكبر صدقاً وأصالة . وفي هذه الحالة ، يبدو أنه في فترة التطور البلوغي ، يستثير تكون الأعضاء الجنسية الانثوية ، (التي كانت حتى ذلك الحين في حالة كمن) ازدياداً للنرجسية الأصلية غير ملائم لحب غرضي منظم يرافقه تقدير جنسي مفرط . وتقوم لدى الأنثى ، لاسيما في حالة تطور نحو الجمال ، حالة تكتفي المرأة فيها بذاتها ، مما يعوضها عن حرية اختيار الغرض ، هذه الحركة التي يعارضها فيها المجتمع . مثلات هذه النساء ، عند الكلام بدقة ، لا يحببن سوى ذواتهن ، تقريباً بنفس شدة حب الرجل لهن وشغفه بهن .

(١) يستعمل فرويد هذه الصيغة في مقال قائم على التأمل والتفكير الانتقادي بصدده الحدود الاجتماعية لتحليل النفسي بصفته علماً علاجياً . انظر :

Wege der psychoanalytischen Therapie. tome XII. p 192.

(٢) نفصل هذا التعبير على عبارة « الوجد الغرامي » التي استعملها لابلانز (ملاحظة من المترجم الفرنسي) .

وحاجتهن لا تجملهن ينزغن إلى الحب ، بل إلى ان يكن هن موضوع الحب ،
ويروق هن الرجل الذي يحقق هذا الشرط ، (١) .

إن هذا يدعم الفرضية القائلة بأن أنماط اختيار الغرض ، المنتجة والسائدة
حالياً ، يتدنى أكثر فأكثر تحقيقها لشكلي اختيار الغرض ، الصافين ، أي إما
الشكل المحب لسواه ، وإما الشكل النرجسي الذي يريد أن يعجب . وبالعكس
ف لدى الجنسين - أو بصيغة أكثر سوسولوجية - لدى أفراد متزايدى العدد
باستمرار ، يبدأ ظهور (مزيج) من هذين الشكلين : فهؤلاء الأشخاص يقعون
نرجسين تماماً كالمرأة البورجوازية ، ولكن دون أن يستطيعوا الاكتفاء بأنفسهم
كما تفعل تلك المرأة . وهم يحبون كما يحب الرجل ، ولكن (بدون ما يملك من
قدرة على إزالة حالات الكبت ، وتصحيح حالات الانحراف الجنسي) (٢)
وهم أيضاً أقل حظاً من هذا الرجل في بلوغ تغير لاقتنائهم إلى حب حقيقي .
ذلك لأنه في الحد الأقصى ، لا يبقى ثمة شركاء ، قادرون على الحب ، بل يبقى
فقط أشخاص أصبح أمرهم يقتصر على التماس اتساع نرجسي لأنهم الضعيف .

إن حالة افتتان entichement الرجل البورجوازي ، هذه الحالة التي قام
بتحليلها فرويد، تتصف بتدفق الشهوة الجنسية الشديدة (أو شهوة الأنا الجنسية
الزاخمة) النرجسية على الغرض . وهكذا ترفع الشهوة الجنسية الشديدة الغرض
الجنسي إلى مرتبة مثل أعلى جنسي . وبالمقابل (وتبعاً لنمط اختيار الغرض
النرجسي ، يحدث حينئذ حب ما كانه الشخص وما فقده ، أو أنه يحب من
يملك الصفات الكاملة التي ليس لدى الأول أي شيء منها) (٣) ، وفي الحالة

(١) فرويد - « الحياة الجنسية » - المرجع المذكور - ص ٩٤ .

(٢) فرويد - « الحياة الجنسية » - المرجع المذكور - ص ١٠٤ .

(٣) المرجع ذاته .

المثالية تملك (المرأة) هذه المزايا ، وهي في غنى عن الركض وراء (مثل أعلى للأنا) ، ويكفيها أن تجد نفسها راضية عن ذاتها في الحب الذي يكن لها . إذن حسب وجهة النظر هذه ، ينبغي أن نميز بوضوح وجلاء بين أن يحب المرء ، وأن يكون محبوباً ، (إن الحب ، في ذاته ، بصفته رغبة ملتتهبة وحرماناً يحط من شعور الاعتزاز بالذات) ، أما أن يكون المرء محبوباً ، فهو ، بالعكس ، يعطي هذا الاعتزاز بالذات ، حتى لو كان المرء لا يحب (حقيقة) والوضع الذي تتطابق فيه الحالتان ، يجري تعريفه حينئذ بصفته حباً سعيداً حقيقياً ، الشخص يحب ، وهو محبوب - وهو (وضع أولي أصيل) في رأي فرويد ، - وفي رأينا أنه حالة طوبارية من نسج الخيال - (حيث شهوة الغرض الجنسية الشديدة ، وشهوة الأنا الجنسية الزاخمة ، لا يمكن تمييز إحداها من الأخرى) (١) .

وبدلاً من هذا الحب السعيد الحقيقي - الذي يتصوره فرويد على هذا النحو ، بصورة لا تخلو من مفالة حماسية - تظهر في أيامنا ، حالات متزايدة باستمرار ، وبوضوح أكثر أشكال افتتان عصابية جديدة ، تتصف بفقدان القوة ، على حد سواء ، لأجل امتلاك غرض ما ، أو التمكّن من دعم أنا يمر في حالة ضعف ويكون الدعم بتوجيه الشهوة الجنسية الشديدة نحو الخارج ، كما تتصف بمعجز الشخص النرجسي أن يكفي نفسه بنفسه (على نحو ما هو مصنوع في أيامنا هذه) . إن نقطة الانطلاق التي كان « الفرد البورجوازي » يوجه منها شهوته الجنسية الزاخمة نحو الخارج ، كانت الأنا القوي . وأثناء التربية واستيعاب الشخص من جانب العائلة والمجتمع ، تعلم هذا النمط المثالي للفرد أن يوفق بين متطلباته الفريزية الجنسية (الانفعالية اللاواعية) وبين العالم الخارجي والقواعد الخلقية والمعنوية لمثلي التربية المستبطين (الأنا - المثالي) ، هكذا تكون الأنا القوي

(١) المرجع ذاته ص ١٠٣ - ١٠٤ .

إلى هذه الدرجة أو تلك إن درجة معينة من قوة الرغبة الجنسية وتأجيل اشباع الفرائز الجنسية المباشرة (وتحمل الكبت حتى درجة عالية) وكذلك تحوُّل الرغبة الجنسية (التصعيد أو التسامي sublimation) تشكل جزءاً من موقف الأنا القوي ، المستقل ذاتياً هذه العلاقة التي ذكرناها حين قلنا وضع الشهوة الجنسية الشديدة (أو القدرة على السيطرة على الغرض) أو أيضاً (الحياة الجنسية التنازلية للراشدين) يبدو حالياً ، كما أشرنا إلى ذلك في المقطع الأخير ، يتغير ، بصورة ثابتة ، ولكن لا ينبغي أن نرى في هذا التغير تطفيفاً عاماً وبعثاً للحدود المفروضة على الفرائز والرغبات الجنسية ، على نحو ما يخلص إليه ميتشير ليش ، حين يتحدث عن (الاشباع اللامحدود للرغبات) لدى الشبيبة الراهنة ، إذ يقول : (إن الاشباع اللامحدود للرغبات كانت نتيجة أن أصبح الفتيان والفتيات في وقت مبكر جداً قابليين للتدجين والخضوع للسيطرة ، وذلك بسبب تجارب اللذة التي لا يتعلمون السيطرة عليها .. ونفتم المناسبة لنقول إن ما يقدم لهم بمثابة حرية ليس سوى التشجيع المعطى لسلوك ، ظهر في وقت مبكر ، وهو الآن مجمد وأشبهُ بسلوك شخص تعاطى مخدراً فالحياة الجنسية تغدو ، إذن ، مخدراً ، ولا تخدم ، حينئذ ، بالمعنى الضيق للكلمة ، إلا الاشباع - الذاتي للرغبات ، وليست مرتبطة بأي تبادل للمشاعر ، أو بأي معرفة حميمة للغير^(١)) ومؤكِّد أن نتيجة ذلك تكون (الانحراف المكيف) . لكن الأمر لا يكون حينئذ إشباعاً لا محدوداً للرغبات ، وإنما إشباعاً موجهاً مقدوداً عن بعد . إن القاعدة التي يجرى على أساسها التكيف التضييقي لاشباع الرغبة ، هي ما يسميه ميتشير ليش (ضعف أنا الفرد إزاء متطلبات الرغبة الجنسية ومتطلبات حالات الارغام الاجتماعية^(٢)) . إنه أنا غير متكون اجمالاً ، بصورة كافية لكي يلعب دور الوسيط بين (الانفعال اللاوعي le ça من جهة ، والأنا المثالي

(١) ميتشير ليش ، المرجع المذكور ، ص ٢٩٠ .

(٢) المرجع ذاته - ص ٢٨٦ .

والعالم الخارجي ، من جهة أخرى . ويتعرض الأنا حينئذ لهجمات شديدة من الخارج ، وذلك على حد سواء من متطلبات الرغبة الجنسية أو من قبل حالات الارغام الاجتماعية . إن البنية الفريزية - الجنسية لهؤلاء الأشخاص قد أعدت إعداداً ضئيلاً (أولوية العملية الجنسية التناسلية) . ولكن إذا كانوا يسلكون سلوك الأشخاص الذين تعاطوا مخدراً ، فلا يبدو أن ذلك هو بسبب حدٍ غير كافٍ للرغبات الجنسية ، بقدر ما هو بسبب نقص تكوين الرغبات الجنسية ، و نقص في تكوين الأنا (وعلى وجه التحديد نقول إنه لا ينبغي الجمع بين هذين النقصين الأخيرين كما لو كان صمود أحدهما يستتبع إضعاف الآخر) . هؤلاء الأشخاص يظهرون (عن قصد) مزودين بأنا ضعيف ، وقد جرى إبقاؤهم منذ سن الحداثة في حالة من الطاعة ، وذلك بواسطة تمارين تطليفي جنسية ، ترمي إلى هدف محدد تماماً . إن (عمليات التطليفي) هذه - وهي ليست كذلك كما هو بدهي تماماً ، إلا من وجهة نظر تاريخية - مرتبطة بتكوين للرغبة الجنسية غير كافٍ ، أي أنها مرتبطة بالمعجز عن مركزة الرغبات الجنسية الجزئية . وليس باستطاعتي أن أعين كيف يرتبط بقاء الرغبات الجنسية هذا وهي في مرحلة طفولية (غير مركزة) ببقاء وظائف الأنا على مستوى تطور طفولي (تابع وضعيف) . ومؤكد أن هؤلاء الأشخاص ينزعون إلى الانهيار تحت عبء (أولوية العملية الجنسية التناسلية) ، هذه الأولوية التي تفرضها عليهم الحضارة ، حين لا تبقى سوى واجهة خارجية ، توضع باستمرار موضع التشكيك والمحاكمة وإعادة النظر من قبل تعديلات سابقة للرغبة التناسلية . ويسلك أولئك الأشخاص حينئذ سلوكاً - وإن كان متكيفاً اجتماعياً ، ومستتراً - لكنه مماثل لسلوك المنحرفين الذين درس فرويد (١) حالاتهم ، أو المجرمين الجنسيين الذين قامت

(١) في هذا الصدد انظر - فرويد : Ein kind wird geschlagen. tome XII. p. 213.

• كثيراً ما نجد لدى هؤلاء المنحرفين جنسياً أنهم هم أيضاً كانت لهم ، أثناء سن البلوغ ، عادة ، بداية لنشاط جنسي طبيعي . لكنها لم تكن قوية كفاية ، وجرى التخلي =

بدراسة حالاتهم جماعة كنسي في تقريرها (المسمى « الجاهل جنسياً » (١) . هؤلاء الأفراد ، بعد بدئهم محاولات (طبيعية) للاتصال الجنسي بأفراد من الجنس الآخر ، في فترة ما بعد سن البلوغ ، يتراجعون إلى مرحلة طفولية ظاهرة لإشباع الرغبة الجنسية ، حين يصطدمون بمحالات المعارضة ، الأولى ، التي تناهض بنيتهم الجنسي ، الطفولي أساساً .

هؤلاء الأفراد ، ذور البنين الجنسي التناسلي الظاهري ، ينبغي لهم ، ابتداء من سن معينة ، أن يقدموا دون انقطاع البرهان على قدرتهم الجنسية التناسلية بممارسات علاقات جنسية مع أفراد من الجنس الآخر ، أو نزهة الجماع لكي يُعترف بهم اجتماعياً . لكنهم عُزل تجاه هذه الممارسة ؛ إنهم ، في الواقع ، عاجزون عن اختيار الغرض ولدهم بنين طفولي نرجسي ، دون أن يكونوا ، رغم ذلك ، حائزين على استقلال النرجسين الذين يكفون أنفسهم بأنفسهم ، فلدى أولئك الأفراد ، المذكورين في أول هذه الفترة ، بنين لما قبل الممارسة الجنسية - التناسلية ، وهم ، رغم ذلك ، يمارسون علاقات جنسية تناسلية باستمرار ، وفي حالات كثيرة ، وكأنما بالأكراه ، يجب أن نبين إلى أي حد

== عنها أمام العقبات الأولى التي لا بد لها أن تظهر . وحينئذ يعود الفرد نهائياً ، الى نبات على موقف جنسي طفولي .

(١) انظر في هذا الصدد جيهاردرس وآخرين ، 75 p - New - york 1955 .

« (...) حين كان طفلاً ، كان يمارس ألعاباً لما قبل سن البلوغ ، تشبع رغباته ، لكنه في الأونة الأولى لما بعد سن البلوغ ، اضطر لأن يتبين أن الوصول الى وظيفاته الفتيات أصبح أقل سهولة بكثير ، لقد مضى زمن عمليات الاستكشاف والألعاب المتبادلة ، الحالية من الحجل . لقد أصبح للفتيات الآن مطامح اجتماعية ، وغداً هن سلوك راشد ، بصورة ما ، إزاء الحياة ، الجنسية - كان الشاب يحس بالارتباك والضييق حين يكون بين فتيات في مثل عمره ، وهو وضع نموذجي لدى الفتيان ، لكن رده على هذا الوضع لم يكن رد فتى نموذجي ، لقد كان يعود نحو فتيات قاصرات ، لا يصلن إلى سن البلوغ ، وكان ذلك يقوده الى أول انتقال يتعرض له .»

يصف مدرك conlt « الشخص الواقع تحت تأثير المخدر ، هذا السلوك . هذا المدرك يصف عملية استعباد غريزي - جنسي مَرَضِي خاص بأكثر من حالة من حالات الانحراف الجنسي ، إلا ان الأخرى ان نسمي الأشخاص الذين ينطبق عليهم هذا النموذج الذي أرى فيه نزعة اجتماعية ، أشخاصاً عقلاء ، حكاه (بالمعنى الذي تقصد إليه انا فرويد) . لكن ما يميز هؤلاء ويحدد خصائصهم وصفاتهم ، بالتأكيد ، شأن كثيرين من المنحرفين جنسياً ، هو إصرار على ممارسة اللذة التمهيدية ، الأولية ، وثبات فيها ، وعجز عن إشباع الرغبة الجنسية في ذروة المتعة النهائية ؛ وبعبارة أخرى ، فهم متعلقون ، وكثيراً ما يكون ذلك دون وعي منهم له - بحالة توتر جنسي دائم . فماذا نقصد بذلك ؟

إن نظرية التحليل النفسي ، استناداً إلى دراساتها بصدد مسار نشوء الأمراض العصابية ، توضح وجهة النظر التالية : إن حالات التوتر الجنسي ، بصرف النظر عن موضع ظهورها وعمما يستثيرها ، إنما تتصف بشعور من الكدر والانزعاج (توتر غير ملذ) ، ويعمل هذا الشعور بمثابة محرك (تغير الحالة النفسية) . وتكون حينئذ (اللذة القصوى) أي ذروة المتعة الجنسية ، تبعاً لشدة اللذة ، هي الأكبر ، لأنها أكبر انفاق للطاقة ؛ ويأتي بها بكاملها انفراج ؛ إنها لذة تستند إلى إشباع الرغبة ، وبها يختفي ، إلى حين ، توتر الشهوة الجنسية الشديدة (الليبدو) (١) . إن السير المميز لعملية إشباع الرغبة الجنسية يتيح

(١) فرويد « ثلاث دراسات .. » المرجع المذكور سابقاً ، ص ١١٤ . وقد جاء فيه بصدد طابع اللذة - الكدر ، النم - : « مهما كانت الخلافات في وجهات النظر ، التي نجدتها في علم النفس ، المصري ، فإنني أصر على القول بأن شعوراً متواتراً له دائماً طابع كدر وغم ، طابع لا لذة وما يحملني على إقرار ذلك ، هو أن هذا الشعور يتضمن حاجة لتغيير الحالة النفسية ، وذلك غريب تماماً عن اللذة ، ولكن منذ اللحظة التي نصف فيها التوتر المستثار من قبل التهيج الجنسي ، بين مشاعر الكدر ، فإننا نستخدم بواقع أن هذا التوتر ، يحس به الشخص ، ولا شك مطلقاً ، بصفته لذة وحيثما كان ، في جميع عمليات التطور الجنسية ، نجد ، في وقت معاً ، التوتر واللذة (...) » .

لنا أن تتميز في داخلها ، بواسطة آلية اللذة - الكدر ، اللذة التمهيدية الأولية ، من ذروة اللذة ، النهائية .

(يبدو لي أن هناك مبرراً لتأكيد هذا الفارق بين اللذة المستثارة بواسطة تهيج مناطق مولدة للذة الجنسية ، وبين لذة قذف المواد الجنسية التناسلية ، ويتم ذلك التأكيد باستخدام مصطلحات مختلفة . ويمكن الإشارة إلى أولى هاتين اللذتين بصفتهما لذة أولية تمهيدية ، في مقابل اللذة النهائية . اللذة الأولية التمهيدية هي نفس ما يمكن أن تؤدي إليه الرغبات الجنسية الطفولية ، وإن بكيفية بدائية . والشئ الجديد الذي يظهر هو ذروة اللذة ، النهائية ، التي هي بالتالي ، وحسب كل الاحتمالات ، مرتبطة بشروط معينة لا تظهر إلا في سن البلوغ . ويمكن أن نورد على النحو التالي صيغة الوظيفة الجديدة للمناطق المولدة للشهوة الجنسية وميول العشق : (إن هذه المناطق تخدم ، بواسطة اللذة الأولية التمهيدية ، المحرزة كما كان يحدث الأمر لدى الطفل ، تخدم في إحداث لذة إشباع الرغبة الجنسية ، التي تشكل الدرجة العليا ^(١)) .

مؤكد انه لا ينبغي أن نعتبر القدرة على بلوغ ذروة اللذة ، النهائية ، كما لو كانت مرتبطة آلياً بتكون أعضاء جنسية أولية . إن فرويد لا يؤكد ذلك هو أيضاً ، حين يجعل بلوغ ذروة اللذة النهائية تلك مرتبطة وظائفاً بـ (قذف مواد جنسية - تناسلية) . إن تواتر حالات العجز الجنسي أو البرودة الجنسية النفسية المنشأ ، يثبت أن القدرة الفيزيولوجية ليست سوى شرط ضروري ولكن غير كاف لبلوغ حالة الانتعاش ^(٢) (الخاص بمن الرشد) .

وهكذا ، إذن ، فإن العلام الجلية لـ (ضعف الجنسي التناسلي) ليست

(١) المرجع ذاته .

(٢) حالة الانتعاش - بلوغ اللذة النهائية .

سوى التعبير الأكثر ظهوراً عن واقع أن شدة ذروة اللذة النهائية هي ذاتها تتوقف على مجموعة تنوعات العوامل النفسية . إن غياب الانتعاش كلياً ليس سوى النقطة القصوى لـسَلْم تكون النقطة المقابلة لها ، في نظراً ، (اكتمال) لذة إشباع الرغبة . ويوجد بين هاتين النقطتين مجموعة متغيرة جداً من تنوعات حالات ذروة اللذة النهائية يجري الاحساس بها ، بكيفيات مختلفة ، ومؤكد أن كثيراً منها لا يستحق تلك التسمية . ومهما يكن ، فإنه يمكن الشك في أن الانتعاش الأعلى لا يحدث إلا في اتحاد الأعضاء التناسلية - كما يؤكد ذلك ، مثلاً ويلهلم رايش في نظرياته الجنسية التناسلية ^(١) ، أو أنه لا يحدث إلا في نوع ممارسة العلاقة الجنسية بين فردين من الجنسين لهذا الاتحاد ، ومن جهة أخرى ، فإن اللذة الأولية التمهيدية ليست بمثابة (مداعبة الجنسية التمهيدية) تلك التي درسها كنسي مثلاً ، لأجل إثبات فوارق في ممارسة الأشخاص الجنسية مع الأخذ بمثابة معايير ، مدة المداعبة التمهيدية التي تسبق الاتصال الجنسي بين شخصين من جنس واحد ، أو من جنسين ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، ونوعية وتقنيات هذه المداعبة التمهيدية ، وبالعكس فإن المداعبة التمهيدية هي عنصر تكويني من عناصر العمل الجنسي ، مندمج فيه ، كائنة ما كانت التقنيات المستخدمة أثناء ذلك ، حسب الحالات ، لكن بعض التقنيات الممكنة ، المستخدمة بمثابة مداعبة تمهيدية ، يمكن أن تنفصل عن الممارسة الجنسية التناسلية تماماً كما تنفصل اللذة التمهيدية عن ذروة اللذة النهائية . ولا يمكن ، والحق يقال ، الكلام عن مثل هذا الانفصال - النكوصي ، المنحرف جنسياً - بصدده الطابع الجنسي للواجهة الجنسية - التناسلية ، لأن لدى هؤلاء الأشخاص ممارسة فعلية للحياة الجنسية التناسلية ، مهما كانت سطحية .

(١) على كل حال ، فإن كتابه « وظيفة الانتعاش » (منشورات l'Arche ١٩٥٢ - انظر الفصلين الثاني والخامس من كتاب رايش هذا) لا يسمع بتفسير آخر .

بديهي أن فرويد لم يستطع أن يصف ، بالنسبة لمصره ، سوى نموذج الشذوذ الجنسي « الحقيقي » الموصوف بصدق وأمانة . يقول فرويد :

« إنه العلاقة التي أثبتناها ، منذ قليل ، بين اللذة التمهيدية وحياسة الطفل الجنسية ، إنما يدعمها العمل المرض ، الذي يمكن أن تمارسه هذه اللذة . ويمكن بصورة ظاهرة تماماً خطر معين ، في الآلية التي تشكل اللذة التمهيدية جزءاً منها ؛ وهذا الخطر ، المتعلق بنهاية العمل الجنسي الطبيعية يتجسد بصورة جلية منذ اللحظة التي تصبح فيها اللذة التمهيدية ، في مرحلة ما ، من العملية التمهيدية الجنسية ، كبيرة جداً ، في حين يظل مقدار التوتر ضعيفاً جداً . في هذه الحالة تضعف القوة الجنسية ، بحيث أن العملية الجنسية تمجز عن الاستمرار ، وتقتصر الطريق الواجب اجتيازها ، ويحل العمى التمهيدي محل الهدف الطبيعي للممارسة الجنسية . ويفترض هذا ، حسب التجربة ، أن تكون المنطقة ، موضوع الحديث ، المولدة للشهوة الجنسية ورغبة الحب ، قد سبق لها خلال حياة الطفولة ، أن أسهمت بصورة مُشددة في إحداث اللذة . وإذا كانت تضاف إلى ذلك فيما بعد ، ظروف معينة تنزع إلى إيجاد ثبات ومركزة ، فإن حالة إرغام سوف تظهر ، وستعارض مع اندماج اللذة التمهيدية في الآلية الجديدة . وفعلاً فإن حالات انحرافات عديدة تتصف بمثل هذا التوقف عند الأعمال التمهيدية ^(١) . »

وبصدد النموذج الجنسي التناسلي ، ظاهرياً ، ليس بديهيماً بالتأكيد أن الرغبة الجنسية الجزئية المطابقة ، قد أسهمت بمقدار كبير جداً ، منذ الحياة الطفولية ، في الحصول على اللذة . ولا وجود ، في الواقع ، لأيّة تجربة طبية سريرية *une expérience clinique* من شأنها أن تدعم ذلك . ولكن لا وجود ،

(١) فرويد - ثلاث دراسات .. المرجع المذكور - ص ١١٨ .

مطلقاً ، لسادي شرجي ، أو لفتيشي متوله تولها أعمى باللباس الداخلية مثلاً ، أو بالأحذية ، أو الأقدام بمعنى الكلمة الكلاسيكي . إنه يمارس جيداً العلاقات مع أفراد من الجنس الآخر ، بل وفي أكثر الأحيان تؤدي تلك العلاقات إلى نتيجة هي بلوغ ذروة اللذة الجنسية . إن الشخص المنحرف جنسياً ، كما يصفه طب التحليل النفسي ، قد أخفق في تحطيه لمقعدة أوديب وذلك بسبب تجارب ما قبل المرحلة الأوديبية (١) . وفتيشه يذكر الفتيشي ، باستمرار ، بقضيب المرأة ، هذا القضيب الذي رفض في دخيلته هذا الشخص في المرحلة القضيبيّة أو ما قبل القضيبيّة الاعتراف بعدم وجوده . وهو يتصور أن عدم وجود قضيب لدى المرأة يهدده هو أيضاً بأن يصبح نخصياً ، مثلها تماماً . لذلك يحتاج هو إلى فتيش القضيب النسائي لبلوغ إشباع الرغبة الجنسية « رغم كل شيء » ، بواسطة هذا الحافز الطفولي والمرتبط بذكرى ما قبل المتعة . وشرطه أن يعزو الفتيشي ، في استيهاماته ، الفتيش إلى غرضه الجنسي أو أن يجدده مجدداً لديه ، فإنه يستطيع التوصل إلى تبعية قوية جداً إزاء الغرض تبعاً للنموذج الما قبل الأوديبى .

والأمر مختلف بالنسبة للنمط الراهن لواجهة الممارسة الجنسية التناسلية . أكيد أن هذا الشخص يعيش أيضاً وسط خشية دائمة من الخضاء ، كما بين ذلك بيتر بروكز في تصويره للجو الجنسي الذي كان سائداً أثناء (الصيف القائظ) في برلين (٢) لكن على هذا النمط من الأشخاص أن يغير باستمرار صفاته الفتيشية ،

(١) انظر فرويد « الفتيشية » الجزء ١٤ ، ص ٣١٢ « إذا قلت ان الفتيش يحمل محل القضيب عضواً للذكر ، فمؤكد أنني سوف أستثير خيبة الأمل ، لذلك أسارع وأضيف أنه لا يحمل محل أي قضيب كان ، بل محل قضيب محدد تماماً ومعين بذاته ، يكون له في الطفولة المبكرة مدلول كبير ، لكنه يتلاشى فيما بعد . وبصورة طبيعية ، كان ينبغي التخلي عنه ، لكن الفتيش يكون ماثلاً هنا بالضبط ليقبه من الزوال . وللتعبير بوضوح عن ذلك ، أقول إن الفتيش يحمل محل قضيب المرأة (الأم) (...)

(٢) بروكز ، المرجع المذكور ص ١١٢ .

وكذلك أن يغير ، عند الاقتضاء ، الأغراض الجنسية التي ينسب إليها هذه الفتيشية . ونحن على كل حال ، ملزمون ضرورة بهذا الاستنتاج ، من قبل السلوك الجنسي المُعتمد ، أمباشراً كان أم غير مباشر ، على نحو ما توصي به عوامل التكيف التضليلي ، والدرجة بخاصة . إن الدرجة المكيفة المضللة ، التي لا يمكن مطلقاً تشبيهها بالدرجة في معناها التقليدي ، تقدم النموذج لسلوك هؤلاء الأشخاص ، سجناء اللذة التمهيدية . فالدعاية لا تميّن لهم فقط نوعية الملابس والمساكن ، المهيئة بهذه الملابس ذاتها ، والشهونة الغرامية الجزئية (المني - جوب ، أو الماكسي - جوب) اللذين ينبغي له ولشريكته أن يتزيّنا وأن يحيطا نفسيهما بهما ، لكي يكونا موضوعين الرغبة . بل إن الدعاية تعين للشخص لون بشرته وشمعه ، وتسريحته وطريقة حلاقته وشكل عمرته (التي تحول الشكل الطبيعي لرأسه) ، ومشيته ، ومسلكه الذي ينبغي له أو شريكته أن يعتمداه للقيام بنشاطات خاصة - تدخين السيفار ، الامالك بكأس ويسكي ، ممارسة الحب ، السير في الشارع - بحيث يتم الاحتفاظ بقيمة هويته الراهنة ، في نفس مسارها . لقد جرى خفض جميع السمات الشخصية المميزة ، والتي كانت تجعل الغرض ، في الماضي ، شيراً للرغبة ، بحيث لم تعد تلك السمات سوى لواحق ثانوية ، وقد أضفي عليها في الوقت نفسه الطابع الفتيشي . ويمكن عند الاقتضاء أن تُغير اللواحق الثانوية بين يوم وآخر ، نط تعبيرها أو أن تتحول إلى عكسها . فمط الطباع المذكور ليس ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، منحرفاً جنسياً ذلك لأنه مع غرضه الجنسي أو مع أغراضه الجنسية التي تتناوب وفق مشيئة الاعلانات ، يتوافق دون تحفظ ، وجميع معايير إقامة العلاقات مع شخص من الجنس الآخر (وربما مع معايير الممارسة الجنسية مع شخص من نفس الجنس) . وهو لا يبدو كونه شخصاً فتيشياً عديم الاستقرار ، على الدوام . والسرعة التي تتغير بها فتيشاته هي في خاتمة المطاف تبع لسرعة تداول

الرأسمال . هذه النقطة أثبتها أدورنو هورخايمر منذ أكثر من عشرين عاماً^(١) .
إن السرعة التي تتغير بها الدرجة في أيامنا هذه ، والطابع القسري لظهور
هذه الدرجة القائمة على أساس التكييف التضليلي ، يمكن أن يقدم البرهان
التجريبي على هذه الوظيفة .



(١) في المرجع المذكور : ((Dialektik der Aufklärung)) .

بعض تجسّدات الممارسة الجنسية في الرأسمالية المتأخرة زمنياً

لن نختار في هذا الفصل ، بمثابة أمثلة ، سوى بضعة نماذج تُستخدم لتكثيف السلوك الجنسي اليوم . ونذكر بأننا لا نعتزم وضع كتاب للتربية الجنسية ، بمعنى الكلمة ، الضيق ، التطبيقية قبل كل شيء . لذلك لا ينبغي الخلط بين الممارسات الجنسية التي سوف ندرسها ، والتقنيات الجنسية للتشديد وتكثيف اللذة معاً ، وتقنيات منع الحمل ، والبحث عن شريك الحب ، الخ . وبديهي أن مؤلفات ، على غرار كتابنا هذا ، تنطلق أيضاً ، ودائماً ، بصورة ضمنية على الأقل ، من مفاهيم سياسية وسوسيلوجية ، وتتوصل على الأقل إلى فرض مفاهيم عميقة لنظام سياسي واجتماعي محدد ، ولدى الأخذ في الحسبان الفوارق الحقيقية القائمة اليوم في التعبير اللغوي ، وفي فهم المحيط الاجتماعي للتطور الاقتصادي ، وفي الفكر التأملي الاستنباطي ، وعلى الأخص في الممارسة الجنسية ذاتها ، يمكن الاستنتاج بأن المؤلفات الانتقادية ، للتربية الجنسية ، هي ذاتها أيضاً يجب أن تكتب « تبعاً للتقسيم الاجتماعي » . ولعل التربية الجنسية أن تتخذ في تلك اللحظة خمسة أشكال مختلفة ، حسباً تكون موجهة : إلى فتيان وفتيات الفئات الدنيا ، أم إلى فتيان وفتيات الفئات الوسطى ، أم إلى راشدي

الفئات الدنيا أو المتزوجين أفراد هذه الفئات ، وإلى الراشدين والمتزوجين من الفئات الوسطى ، وإلى جماعات المثقفين ذوات الروح الانتقادية ، قبل كل شيء - على هذا النحو سوف تشمل تلك التربية الجنسية ، الفئات الاجتماعية غير المتناحرة ، ولكن التي توجد بينها ، رغم ذلك ، فوارق اجتماعية . حينئذ يمكن أن نكل قائلين : إنه لأجل تحقيق إدماج سياسي (وإدماج للحياة الجنسية) هذه الفئات الاجتماعية ، فإنه ينبغي البدء بتفكيك اندماجها الفعلي ، لقد استخلص ويلهم رايش ، بالنسبة لعصره ، هذا الاستنتاج ، لكنه فعل ذلك (ويمكن إثبات ما نقوله) ، مرفقاً ببعض المنظورات الحتمية ، في نظريته وممارسته على حد سواء ، لا تبرزها المقتضيات الضرورية لتبسيط كتاباته ونشرها على نطاق جماهيري واسع . إن الرابطة ، التي لا غنى عنها اليوم ، والتي بدأت تتحقق ، بين عمل التربية السياسية ، وعمل التربية الجنسية ، لا تعني من الضرورة ، التي لا تناقض الأولى ، ضرورة أن تفهم بأكثر ما يكون من الصحة والضغط ، آليات التطور المقعدة ، وتقنياته واتجاهاته ، والتي كثيراً ما يصعب إدراكها ، وهي تقوم اليوم بتوطيد السيطرة الاقتصادية والاجتماعية .

الممارسة الجنسية الجماعية ، مكمل للزواج

يوجد ، في مجتمعنا ، عملية فصل متكررة الحدوث ، وإن لم تكن منهجية ، بين الحنان ، والحس الشهواني . لكن هذين الأمرين ينبغي لهما أن يتطابقا ، بداهة أساساً ، في الزواج الأحادي . وذلك ما هو قائم ، كما يبدو ، اليوم في نسبة وسطية أكبر منها في العائلة البورجوازية (لا البورجوازية الصغيرة) الكلاسيكية ، التي استخدمت بمثابة نموذج وغرض للتقيد من قبل التحليل النفسي ، أو في العائلة الأرستقراطية ، التي كان باستطاعتها الاستغناء عن تلك القيم ، بما يملك ذور السيطرة المطلقة من قدرة على السخاء . ولم يكن في وسع

الرغبات الجنسية أن تجد إشباعاً لها ؛ في إطار مؤسسة الزواج البورجوازي ، الاقتصادية قبل كل شيء ، إلا في حالات وظروف سعيدة استثنائية . لم تكن تلك الرغبات الجنسية مقبولة لدى المجتمع ، وفي الوقت نفسه لم يكن في وسعها أن تلجسد إلا في شكل احتجاج . ولم تكن تجد مكاناً لها في المؤسسات الرسمية ، بل كان عليها ، بالعكس ، إن تلجأ إلى حضيض المجتمع المقعم بؤساً ، إلى المواخير ، والحياة البوهيمية . هذا الرفض التقليدي لإشباع الرغبات الجنسية في إطار الحياة الزوجية ، قد ادخل شيئاً فشيئاً ، مع خطى تقدم الرأسمالية ونجاحاتها ، إلى الزواج - وذلك ليس دون أن يطرأ عليه تحول يميز : فقد جرى الانتقال ، من عدم إشباع ، تام ، للرغبة الجنسية ، إلى شبه إشباع . وقد أدخل الماخور المكان ، من جهة ، لاقامة بغاء على أرصفة الشوارع ، أو في السيارات ، التي لم تعد سوى مكان وظيفي للإفراغ الجنسي ، ومن جهة أخرى ، لامكانات ، أرفع فعلاً ، لإشباع الرغبة الجنسية قبل الزواج ، وفيه . وعند الضرورة ، فإن وظائف الماخور ، المميزة ، لعملية الاثارة الجنسية أصبحت مقبولة في الزواج ذاته : الأدوات والمتوجات ، التي لم يكن بورجوازي أو آخر القرن التاسع عشر يستطيع أن يتصورها إلا وراء ستائر ماخور ما ، تجسد اليوم مكانها في غرفة النوم الزوجية ، ويجري صنعها الآن بالجملة وتوزيعها من قبل مؤسسة Beate uhse - أو في صيغة أكثر سادية من قبل مخازن متخصصة شبه سرية ، تقوم ببيع تلك الأدوات والمنتجات بصورة شبه سرية أيضاً .

والمقصود بـ « شبه إشباع الرغبة الجنسية » أن تقنيات التكيف الجنسي ، من جهة (انظر الأمثلة التي أخذناها من مجلة « ايلترن » وأرردناها في الفصل الثالث من هذا الكتاب) تستخدم على نطاق واسع ، لكن هذه التقنيات هي من جهة أخرى ، خاضعة ، بقوة الأشياء ، لوضع ميثوس منه بالنسبة لتكيف الزوجين . وينبغي لها أن تندرج في النية المحددة باللذة التمهيدية المتعذر إشباعها ، والمفروضة على الأشخاص قبل الزواج (وطبعاً أثناء الزواج أيضاً) .

ومؤكد أن عليها الآن « أثناء أجل سني حياتها » ، أن يفيدا من الوضع أفضل فائدة ، أي أن عليها أن يعطيا في الزواج أفضل ما في كيانها ، على الصعيد الجنسي ؛ لكن هذا « الأفضل » يجد حواجزه شبه الطبيعة في أمور يتعذر توفرها كلها دائماً : الجمال ، والصبا ، والنضارة ، والنجاح ، هذه الأمور التي تُنظرها باجلال الكليشات الدعائية ، والتي ترغم أيضاً الأشخاص المتزوجين على القيام بعملية تقليد مستمرة لا انقطاع لها . وللقيام بوظيفة التربية الاجتماعية هذه ، نشأ أدب خاص ومجموعة مطبوعات مكرسة لهذا الغرض . وفي فهرست المبيع الذي بعنوان « سعداء - طوال الحياة » الصادر عن مؤسسة Beate uhse ، حيث يوجد كذلك ، في عداد محتوياته ، هذا النوع من المطبوعات ، نستطيع أن نقرأ ما يلي في مقطع « ماذا عن الجنس في الزواج ؟ » : « إذا ما آلت العلاقات في زواج ما ، إلى الفتور ، فذلك لأن المرأة ، بعد أن تحوات إلى زوجة وإلى ربة منزل ، كثيراً جداً ما تكون قد أهملت أن تعنى بمؤهلاتها الجنسية نفس عنايتها بمنزلا . إلا أن الحياة الجنسية هي في مثل أهمية زاوية التلفزيون ، أو قطعة اللحم المشوي يوم الأحد (١) . وتبين الإشارة إلى « زاوية التلفزيون » ، وهي رمز لمرتبة اجتماعية معينة ، أن عملية التكيف هذه تتوجه (أو تريد أن تتوجه) إلى الجمهور الواسع من الأشخاص المتزوجين المنتمين إلى فئات وسطى - دنيا ، والفئات التي تحتها ، وليس إلى الفئات الوسطى ، حسبما كان يمكن أن يظن تبعاً للتحليلات التي أجريت حتى الآن على التكيف الجنسي التضييلي .

ولكن سيكون من الخطأ أن نرى في عمليات الارغام هذه الملازمة للدعاية التكوينية التضييلية - أي الجنسية sexualisation في الحدود الضيقة للذة

(١) انظر فهرست :

Beate Uhse versandhaus fur Ehehygiene : Gluklich - ein
Leben lang. Flensburg. 1967. p. 38

التمهيدية المتعذر إشباعها - عمليات الإرغام الوحيدة التي تواجهها عملية التكييف الزوجي المصري . وأهم من ذلك بكثير هي اضطرابات الوظائف النفسية ، الناتجة مباشرة عن مكان العمل ، والتي هي ولا شك شديدة الخطورة إلى حد تعجز معه الحياة الجنسية عن القيام بوظيفتها في شغل أمسيات الفراغ ، أو وظيفتها في حق الامتلاك بلا منازع ، الممنوح لها تقليدياً في المجتمعات الرأسمالية . وقد سبق لاحصائيات راينوتر (١) أن أعطتنا فكرة وجيزة عن الواقع ذي الدلالة ، واقع أن الأشخاص الأكثر استلاباً بسبب عملهم كثيراً ما يصيرون ، بكل بساطة ، عاجزين جنسياً ، في علاقاتهم الزوجية . فإذا ما أخذنا في الحساب استمرارية نشر الجو الجنسي ، بصورة دائمة ، في الميادين الأخرى للحياة ، فلا بد أن يؤدي ذلك إلى قيام تناقض في مؤسسة الزواج ، وهو تناقض يمكن أن يولد صعوبات غير مرغوب فيها اجتماعياً ، بالنسبة للتكيف الزوجي . والأزواج الجاري تكييفهم تضيلاً على هذا النحو واعون ، بهذه الصورة أم تلك ، لتلك الصعوبات ، لكن هذه الصعوبات تجعل منها جزءاً لا يتجزأ من عملية التكييف الزوجي هذه ، التي تتكلم جهاراً عن هذه القضايا ، وتدعي أن تلك الصعوبات لا يمكن حلها إلا بصورة إفرادية ، قطعاً . وهكذا فإن التحقيقات التجريبية القليلة جداً - والمشكوك فيها ، من جهة أخرى ، من حيث الطريقة المستخدمة - التي في حوزتنا عن الجمهورية الاتحادية الألمانية ، تشير إلى استقرار مؤسسة الزواج . وهكذا ، فعسب استفتاء قام به معهد ألبنباخ ، كان عدد الذين تزوجوا في الستينات أكبر منه في مطلع الخمسينات ، ويعلن أولئك « رضام » عن زواجهم (٢) . وهذا الرضا ينمكس أيضاً في عدد حالات الطلاق ، الذي لم يتغير خلال السنوات الأخيرة (٣) . وبدهي أن هذا الاستقرار لا يطابق ،

(١) انظر اللوحين ١ و ٢ .

(٢) انظر Schwarzenauer المرجع المذكور .

(٣) انظر Statistis-ches Jahrbuch Fur die PRD p. 58

بالضرورة ، إشاعاً أعلى ، للرغبة الجنسية ، وهو أيضاً أقل من ذلك مطابقة لقولة « السعادة الزوجية » الايدولوجية هي ذاتها ؛ وعديدة هي الأسباب التي تنزع إلى إثبات أن هذا الاستقرار هو نتيجة رقابة اجتماعية مشددة ، أي نتيجة لعجز عن رؤية شر موضوعي في عذاب ذاتي . وينشأ لدى المرء انطباع بأنه يقرأ رواية « سوداء » من روايات العلم - التخيلي حين يتصفح أوصاف السلع المختلفة ، الواردة في الفهارس المذكورة ، والمخصصة ليس فقط لاعادة القابلية إزاء السعادة ، التي أنقصها القسر في العمل ، بل أيضاً عدم القابلية على الاعتراف بعذاب ذاتي ، بصفته كذلك . إليكم ما يقوله إعلان عن منتج « سيتيرا - كوكيتيل » المثير للشهوة : « إذا كان جو منزلك يسوده « السأم والرتابة » وإن كانت مشاعركم لم تصبح ، بعد متناغمة ، وإذا كنتم تتمنون الاتحاد وسط جو من البهجة والغبطة الغامرتين ، إذن ، ارتشفوا كأساً صغيرة من « سيتيرا » ، إن (سيتيرا - كوكيتيل) تزيل جو السأم والرتابة اليوميين ، وتذيبها في الرغبة الممتعة ، وتجملكم تتحدون في بهجة عميقة (١) . »

ومع ذلك يبدو كل هذا انه معاكس لممارسة العمليات الجنسية بصورة جماعية ، هذا صحيح ، فلا ينبغي أن نعتبر بصفته نزعة إلى الممارسة الجنسية الجماعية التواتر المتزايد باستمرار - خلال الخمسين عاماً الأخيرة - للعلاقات الجنسية خارج السرير الزوجي ، ذلك لأن هذا التواتر يقف عند حدود « بورجوازية » تماماً ، في الولايات المتحدة (٢) وفي الجمهورية الاتحادية الألمانية على حد سواء (٣) . وبصرف النظر عن الكثرة التي تمارس بها هذه العلاقات ، خارج السرير الزوجي ، يجب أن نضيف إلى هذه العلاقة ، شكلاً نوعياً من

(١) Beate Uhse katalog المرجع المذكور ، ص ٣٩ .

(٢) كنى - المرجع المذكور ص ٣٣٩ .

(٣) Schwarzenauer المرجع المذكور .

اختيار الغرض ، بحيث يصبح هذا السلوك يستحق اسم « الممارسة الجنسية الجماعية » ، والمقصود به لامبالاة معينة ، أو مطلقة إزاء الغرض . ويعرف قاموس كنور Knauer « الممارسة الجنسية الجماعية » بأنها « خليط من الأشخاص بدون قاعدة ولا تمييز داخل جماعات كاملة » . ومؤكد أن هذا الشكل من العلاقة الجنسية ليس مرتبطاً بؤسسة الزواج . لكن من المؤكد كذلك ، من الناحية التاريخية ، أن هذا الشكل من العلاقة يتدخل بمثابة رد فعل على الزواج الأحادي ، ويمارسه حالياً أشخاص متزوجون .

إن الصيغة الأكثر رواجاً لعملية تكيف الزوجين الجنسية ، تنشر مراراً متزايدة أكثر فأكثر أشكالاً معينة من العلاقة الجنسية خارج السرير الزوجي ، وينتظر من الشريك الزوجي ، إن لم يكن التشجيع ، فتسامح ظاهر جلي ، على الأقل . والمثال الكلاسيكي لهذه الصيغة تقدمه لنا كتب أ . إبليس ، التي كثيراً ما تستشهد به في مقالاتها المجلات المصورة الكبرى^(١) . ويستند إبليس ، عن خطأ ، إلى فرويد ، وبشيء من الصواب تقريباً إلى كنسي وويلهلم رايش . ولاقتراحات إبليس شبه واضح بالممارسة الحديثة للعملية الجنسية الجماعية ، ولكن يفارق أن هذه الممارسة الجنسية الجماعية تمضي إلى أبعد بكثير مما تدعو إليه اقتراحات إبليس . ولكي تتمكن من أن نفهم الشكل « الجديد » لتكيف الزوجين ، يبدو لنا شيئاً جوهرياً القيام بدراسة عملية ممارسة الجنسية الجماعية التي تمارس اليوم .

وللقيام بذلك ، لا يوجد في حوزتنا سوى التحقيق الصحفي بعنوان (حول أنواع السلوك الجنسي للجماعات في الولايات المتحدة) وتقرير لاينغ الشهر^(٢) ،

(١) أنظر ، أولاً ، ألبرت إبليس . Handbuck der intelligenten Frau . Flensburg, 1967.

(٢) ميخائيل لاينغ . - Leigh - Report - sexuelles Gruppenver - halten in der U. S. A. Bad Godesberg, 1965.

الذي لا يقتصر عيه على أنه مشوش ، بل أيضاً أنه لا يحتوي على أي معطى إحصائي . وهو يقدم ، عوضاً عن ذلك ، مقداراً وافرأ من المواد ، يمكن تصنيفها وفقاً للموضوعات التالية :

(١) يصف التقرير سلوكاً جنسياً في أغلب الأحيان لأشخاص متزوجين ، يمارسون بكثرة قدر الامكان علاقات جنسية مجتمعين (وبصورة استثنائية ينفرد الزوجان لممارسة الجنس) وذلك مع أكبر عدد ممكن من الشركاء ، وبأكثر ما يمكن من التنوع ، ولا أهمية للجنس (ذكوراً كانت الممارسون أم أناثاً) ، ولا لكونهم متزوجين أم لا (انظر ص ١٣) .

(٢) هذا السلوك نجده في جميع أنحاء أميركا الشمالية وكندا ؛ ولا نعرف ، لا الأرقام المطلقة ، ولا النسبة المئوية لممارسي هذا السلوك بين السكان . وقد تمكن لاينغ وحده ، في أقل من ستة أشهر ، من الاتصال بأكثر من ٥٠٠ رجل متزوجين ، عرض كل منهم على لاينغ زوجته ، وهي موافقة تماماً . وقبل ذلك المهدي ، لم تكن لديه مطلقاً أية تجربة لتقنيات إجراء الاتصال (انظر ص ١٩) يضاف إلى ذلك ، عدد أدنى قليلاً ، من الرجال والنساء العازبين .

(٣) هذا السلوك تمارسه ، على الأخص ، الجماعات المهنية من القطاع الثالث^(١) (ولكن ليس فقط الجماعات ذات الحركية الكبيرة) وبخاصة ، الفئات الوسطى وما فوقها . وأبرز هذه الجماعات المهنية ، في هذا المجال من العلاقات ، هي التالية : المهندسون المماريون ، والمرضات ، والمهندسون المتعدود الاختصاصات والتجار ، وموظفو الدولة (ص ١٤) .

(٤) إن الأشخاص الذين يمارسون العمليات الجنسية المشتركة ، ولا سيما

(١) القطاع الثالث : فئة من السكان تعمل في التجارة والخدمات والتأمينات الخ (المترجم نقلًا من « النهل ») .

الشركاء المزدوجين ، هم بصورة وسطية ذور تكيف جيد مرموق على الصعيد الاجتماعي . والنسبة بين الشركاء ذوي الأولاد والشركاء الذين هم دون أولاد هي نفسها لدى المتزوجين الأحاديين .. » (...) في جميع الحالات الأخرى ، كان الرجال يملكون تبادل علاقات جيدة أو يشغلون مراكز حسنة الراتب ؛ وكانوا يعملون من بيع الصور الخلاعية الداعرة ، صورهم وصور زوجاتهم نوعاً من الهواية ، إذا صح التعبير ، على هامش نشاطهم » (ص ٨٣) . (...) إن الزوج والزوجة اللذين التقيت بهما في الأوريفغون لم تكن لديهما أية تجربة جنسية في فترة ما قبل الزواج . وكانت حفلة زفاف الشاب والفتاة تكرر ذروة حب نشأ في الجامعة [...] . وبسبب من إعلان ما ، في مجلة مصورة كبرى ، استثار فضولها ، فقد غاصا دفعة واحدة في عالم تبادل الجنس وممارسته على نطاق واسع ، مثير . وكل منهما هو الآن في زهاء الأربعين من عمره ، ولديها غلامان في حدود السادسة عشرة من عمرهما ، ويقوم الزوج بإدارة مؤسسة يملكها . وهما يذهبان إلى الكنيسة بانتظام . [...] ، (ص ١٠٣) . وهما لا يجهلان أي شيء في هذا الميدان ، ورغم ذلك فهما يريدان دائماً وباستمرار أن يسمعا شخصاً آخر ما يعرفانه منذ زمن طويل بل ويستظهرانه عن ظهر قلب . إنهما يريدان أن يحصلوا في كل مرة على التأكيد بأنهما ليسا وحدهما ، ويريدان أن يثبتا لنفسيهما بأنهما طبيعيتان ، [ص ١١٤] . ويؤكد لاينغ عن هؤلاء الأزواج والزوجات أنهم يربون أولادهم « بصورة ممتازة » (ص ١٤) لكنه يستند فقط إلى - معلوماتهم هم أنفسهم .

٥) هؤلاء الأشخاص لم يصوغوا لأنفسهم ، في أغلب الحالات ، سوى أيديولوجية جزئية ، مضادة للبيوريتانية . ويقتصر انتقاد الوضع فيها على إدانة للاخلاقية الجنسية البيوريتانية ، مبغضة البشر ، والمنافقة ، التي يبشر بها في الولايات المتحدة .

٦) كثيرون من هؤلاء الأشخاص يمارسون تقنيات سادية - مازوخية .

ويدعي بعضهم أن ذلك ليس بالنسبة إليهم سوى هواية - لم يعد باستطاعتهم على كل حال الاستغناء عنها - وانهم لا يتصرفون هكذا تحت ضغط إكراه أصلي (قسر أو إرغام) . ولتموين هؤلاء ، نشأت صناعة متخصصة ، وهي ليست مدينة على كل حال بمنشأها للممارسة « العائلية » الجماعية للعمليات الجنسية . وهناك فهرست خاص للسادية « العائلية » عنوانه « الى جميع هواة القويود وعمليات العقاب العائلية » يقترح في باب « الجلد » الأصناف التالية : « كامات ذات سيور جلدية ، قيود جلدية ، أصفاد للمراقيب ، أصفاد للقبضتين ، خوذات جلدية ، قفازات جلدية ، جزمات جلدية طويلة ، رشيقات جلدية ، أردان من الجلد ، أغطية جلدية واقية للذراعين ، أطواق جلدية ، سوط ذو سيرجلدي ، أحزمة بكارة ، تنانير جلدية ، أقتعة جلدية » (ص ٧٧) وسمر كل صنف من هذه الأصناف يتراوح بين ١٠ و ٤٠ دولاراً .

(٧) لقد التقطت صور فوتوغرافية لكل شيء ، دون استثناء ، تسجيل النشاط الجنسي بواسطة صور فوتوغرافية ، وأفلام ، وتبادل الصور الخلاعية التي تصور « المنزل من الداخل » ، وتأمل هذه الصور ، وإرسالها بالبريد ، كل هذا يبدو أنه عنصر لا غنى عنه من عملية الممارسة الجماعية العائلية المختلطة ، وينشأ لدى المرء أحياناً الانطباع ، بأن هذا النوع من الصور الفوتوغرافية ، قد حل ، بكل بساطة ، لدى الأزواج المذكورين ، محل ألبوم العائلة ؛ ولكن بصورة عامة ، فإن الاضطرار إلى التقاط الصور الفوتوغرافية وعرض هذه الصور بشكل ، بقوة ، جزءاً من هذه الهواية أكثر مما نجد بالنسبة للعائلات العائلية التقليدية - هناك زوجان رفضاً عرضاً خاصاً مكتوباً لأنه لم يعد يمكن التفكير تقريباً ، بالنسبة للزوجين ، في أن ييلغا المتعة الجنسية بدون مشاهد آخر ، أو بدون صوت تكتكة آلة التصوير ، (ص ٥٨) . إن الأزواج والزوجات والذكور والاثاث الآخرين الذين يمارسون ما يسمى العقاب المنزلي لا يكتبون بتبادل صور فوتوغرافية مع آخرين من أمثالهم ، بل إنهم ، بالعكس ،

يحبسون بالرغبة الغريبة في إشراك عدد متزايد باستمرار ، في ذلك [...] ،
 (ص ٧٦) . وقد أجاب زوج على أحد الاعلانات قائلاً : « [...] نحن عملياً
 نحب كل شيء ، ولكن على الأخص ما يشذ عن الحالات العادية . إن لدينا آلة
 تصوير للتظهير الآني قدمت لنا حتى الآن خدمات كثيرة أثناء حفلاتنا ، (ص
 ٩٤) . ولكن هذا الهوس الإرغامي في التقاط الصور الفوتوغرافية وجمعها
 ليس مجرد شكل منفرد من أشكال النزعة التلصصية^(١) أو الاستمرائية^(٢)

٨) كثيراً ما يفعل هؤلاء الأشخاص مختلف أنواع الأمور الممكنة ، كلها ،
 ما عدا واحداً . وهذا « الشيء » ، يختلف كثيراً تبعاً للحالات ، ففي أكثر
 الأحيان تمارس ثمة علاقات بين أفراد الجنس الواحد ، بصورة عامة ، وفي حالات
 أكثر أيضاً الإيلاج الشرجي السليبي ، وفي بعض الأحيان تمارس عمليات خاصة
 معينة ، مثلاً هذان الزوجان كان لدهما اشتمزاز من الشعر ، وقد وضعا طريقة
 لتف الشعر ، تضمن إزالة كل نفور من الأشياء التي تحمك ، .. وكانت لدهما
 حلقة واسعة من الأتباع ، لكن كان ثمة بينهم كذلك أزواج يحبون آمالهم ،
 ومرة - الكلام هنا لزوجين دون أولاد - أفسد كل لذتنا صباح أولاد الزوجين
 الآخرين : « فلدَى الزوجين الآخرين ، اللذين كنا نقضي معهما الليل ، كان ثمة
 ثلاثة أولاد مشاغبين يرددون في الغرفة المجاورة ، كان ذلك مزعجاً جداً
 (ص ١٠٦) .

٩) يدعي أصحاب العلاقة ، عادة أ) أن الجنس والحب هما شيئان مختلفان
 تماماً . ب) أنهم متحابون ج) أنهم لأجل تبادل الحب فعلاً ، يحتاجون إلى

(١) التلصصية : voyeurisme . نزعة التلذذ بالنظر الى مشهد غرامي مثير (المترجم
 - نقلاً عن قاموس « المنهل ») .

(٢) الاستمرائية exhibitionnisme . نزعة مرضية الى اظهار العورة (المترجم
 من قاموس « المنهل ») .

مجموعة كبيرة من التنويمات والتجارب الجنسية - هذه المرأة كانت ، بموافقة زوجها ، تسمى باستمرار لاشباع رغبات وجني متع جديدة . لقد جربت مرة الاتصال الشرجي ، لكنها لشدة تضايقها ، فقد بقيت دون إشباع رغبتها . ومع ذلك ، فقد ظلت تحتفظ بالرغبة الملتهبة في « تجربة كل شيء » ، بحيث أنهما اتفقا على أن الشخص الكندي يقوم بتدريبها في ميعاد مقبل ، نظراً لأن حجم قضيبه كان أكثر تواضعاً من حجم قضيب زوجها [...] . وتلك المرأة الاخرى كانت مجنونة بالحيوانات [...] . وتقول معلقة ، في جملة آخرين : « [...] لقد حصلنا على اللذة . أجل ، لقد قلت ، حصلنا ، أي نحن كلانا . وكان في مثل شففي واحتدام عواطفني [...] كم كان ذلك مثيراً ! » (ص ١٠٧) . وحسب قول امرأة اخرى ، فإن جميع الاشخاص الممنيين قد أجمعا على أن موقفهم إزاء العلاقة الجنسية كان أصح وأكثر غنى وتعدد وجوه وأصبط من العلاقة الجنسية لدى أغلب الأزواج الآخرين ، ذكوراً وإناثاً ، وقد أكد الأولون أنهم اجتنبوا على هذا النحو كثيراً من حالات الطلاق وكانوا مقتنعين بأنهم يعيشون حياة زوجية وعائلية أكثر سعادة بما لا يقاس . وكانوا يدعون أنهم لم يكونوا يعرفون أي نوع من أنواع الكبت أو الحرمان أو (موجات الفتور) التي يعانيها الأزواج الآخرون ، ولا الوضع اليائس في حالات الزواج العادية ، حيث أحد الزوجين يتأجج رغبة ، في حين يكون الآخر بارداً ، وقد أكد فيما بعد أنه (لا يوجد أحد من الأشخاص الممنيين يخدع الآخرين) « (ص ٤٣) .

(١٠) يرى لاينغ الخطر الخاص لانتشار هذا السلوك في « انتشاره الوبائي ، إذا أمكن الاعتياد جنسياً على شريك معين ، فسوف يمكن إثر ذلك الاعتياد على جميع الشركاء » ، (ص ١٠٢) . وسيكون في ذلك حينئذ تقويض وجود الحضارة الغربية . وهو يوصي ، بمثابة أفضل وسيلة للقمع ، بتطبيق صارم للقوانين ، ولا سيما الرقابة على البريد .

إن تقييم لاينغ ليس ملائماً جداً ، و « نظريته عن الرباه » سطحية ، بلا شك وهي توحي للمرء ، كما هو ظاهر ، بأن السلوك يستجيب لضرورة اجتماعية معينة ، فهل يمكن القبول فعلاً بهذه الضرورة الاجتماعية ، وبعبارة أخرى ، النزعة لانتشار أنواع السلوك الجنسية هذه « دونما تمييز » ؟ يصعب أن يُبْت في الأمر بصورة قاطعة ، بما أن المواد المتوفرة ، حتى مواد علم الإجرام الجنسي^(١) ، لا تتيح أن تستخلص منها استنتاجات ، لكن المؤكد أن مقولات علم الأمراض الجنسية التقليدي لا تقدم أية مساعدة لأجل الحكم على مثل هذا السلوك . ذلك لأن هذه المقولات من شأنها الإقرار - وهذه وجهة نظر فرويد - بوجود عدد معين في المجتمع من الأشخاص غير الطبيعيين ، يخضعون لرغباتهم بأكثر من النسبة الوسطية ؛ ويشكل هؤلاء المكمل الذي لا غنى عنه للمعيار ، خارج جميع التدابير الاجتماعية حول مصير الرغبة الجنسية ، وتلك المقولات تفترض لكل مجتمع نسبة وسطية دائمة من الجرائم ، وحالات الانحراف الجنسي ، وأمراض العصاب ، الخ .

إثناء المناقشة الانتقادية ، وفي المؤلفات الاشتراكية غير الجامدة عقائدياً ، جرت المطالبة ، مراراً عديدة ، بالممارسة الجنسية الجماعية المختلطة ، بصفتها شكلاً مطابقاً للممارسة الاشتراكية . وقد ارتبطت هذه المطالبة دائماً بالرغبة في التغلب على المتطلبات القمعية ، للافتتان والحب والزواج ؛ البورجوازية ، أي ببدأ الغاء الملكية الخاصة . والواقع ، أن الافتتان والحب وجميع مفاهيم الزواج والمائلة ، الماضية والحالية ، على حد سواء ، تفرز علاقات امتلاك . وينبغي أن نتساءل إذا كانت علاقات الامتلاك هذه تطابق دائماً العلاقة القمعية القائمة بين الملكية الخاصة وعاقبتها وهي الفساد التقييدي ، للطبقات الاجتماعية والشخصية ، أم أن ثمة أشكالاً « للامتلاك » ، مطابقة لملاقة الغرض المستقل

(١) حتى المواد المستخدمة في sex-offenders لاتقدم لنا أية معلومات في هذا الصدد.

ذاتياً والواعي ، ممكنة التصور ، ومشروعة . وحتى في عمليات المطالبة الأكثر تشوشاً وغموضاً ، والأكثر خلواً من التفكير ، التي كانت تطالب بتغطّي التنظيم الجنسي القمعي ، لم يكن الأمر يتعلق ، كما يبدو ، بأشكال مماثلة من الانتصار على الثالث القمعي : الحب - الممارسة الجنسية - القمع . إن الممارسة الجنسية الجماعية المختلطة التي يشير إليها هؤلاء الاشتراكيون ذور الإرادة الطيبة ، والفكر المحدود ، هي في حد ذاتها قمعية إلى أقصى حد ، وتسهم في تحقيق الاستقرار للتنظيم الاجتماعي المتخلف المتسلط . فالحالات التي وصفها لاينغ ، مثلاً ، تتصف كلها بواقع أن الأفراد المذكورين يحاولون شفاء كل الضيق الذي يحسون به في حياتهم ، بنوع من الانتصار الرياضي الدائم . وحتى حين يعتادون هذه الممارسة اعتيادهم على المخدر ، وذلك ما يحدث بصورة عامة ، فإنهم لا يدركون أن حالتهم كخاضعين لتأثير المخدر هو التمييز عن حالة عدم الرضى التي تبعثها فيهم حياتهم ؛ والأصح القول إنهم يرون في ذلك ممارسة رياضية مشطورة . فالشكل الأكثر انتشاراً للعلاقة الجنسية ، وهو التعلق القسري بشريك ، أو بممارسة أفضل الاستعمال القسري لشريك ، المفروض بمثابة واجب ، لا يأنى إلا ظاهرياً خارج جميع القواعد والتمييزات ، القسرية على غرار ذلك هي أيضاً ، في السلوك إزاء جميع الشركاء . ذلك لأن « فقدان كل قاعدة » هذا يخضع بالمقابل إلى قواعد وتمييزات محددة بدقة ، مرتبطة ، بالنسبة لعلم الأمراض ، بالحالات الارغامية لمجموعة شروط الزواج الأحادي .

هؤلاء الأشخاص متكيفون إلى درجة عالية جداً ؛ وقد وجدوا هذه الممارسة « ممتعة مسلية » تخفف عنهم كآبة الحياة اليومية ورباتها ، وهم يمشون لقضية « تروق » لهم . ولدى القيام بذلك ، يكونون مدفوعين باكرام على التكرار ، ناتج عن أذى أصيبوا به في المرحلة ما قبل الاوديبية . وكأنما هم يقولون : إذا لم يكن يحق لي أن أكون سعيداً مع الفرض الأوحده المهبوب ، إذن فالحب لا يساوي شيئاً ، وأريد أن أعلن جميع الأشياء غرضاً للحياة

الجنسية ، وهكذا أنتقم من غرض الحب ، المستحيل المنال . هؤلاء الأشخاص هم أيضا ينصبون واجهة جنسية تناسلية صارخة ، على نحو مفرط ، لكنها لا تنشأ هنا إلا لاختفاء الأمراض ذات المنشأ ما قبل الجنسي - التناسلي . وتكون نتيجة ذلك أن الحياة الجنسية قد حُوِّلت إلى سلع رأسمالية ، تجسد تجسيدها الأكثر انطباقاً في القيم الاعلانية وازدياد الاستهلاك بمقدار غير محدود . وتزايد الاستهلاك ، هذا ، ينقل إلى مقولات الحياة الجنسية : إن مختلف السلع لا تأتي على بأي إشباع لرغبتني . وهي تبقيني على جوعي ، ذلك لأن عملي يقتصر على استهلاكها ، دون أن يكون لي الحق باستخدامها . وحينئذ أريد على الأقل ، أن استهلكها « إلى النهاية ، وحق الأعماق ، وأعطيتها الحد الأقصى من القيمة المتبادلة ، والقيام بالديانة لها ، وتصويرها ، وجمعها في مجموعات ، ومعاملتها بصورة سادية ، الخ . ويمكن إعطاء فكرة عن شكل فتيشية السلمة هذا بواسطة مثال لا يميزه شيء استثنائي ، وهو مثال مأخوذ من « تقرير لاينغ » :

« كان العدد الاجمالي ست عشرة صورة فوتوغرافية ، اثنتان منهما تمثلان الذكر والانثى بمايوه السباحة وبالبكيني ، والصور الأربعة عشرة الأخرى كانت تمثل الزوجين في جميع أوضاع الممارسة الجنسية ، التي يمكن تصورها : الجماع الطبيعي ، ولعنق القضيب والتباطؤ في إجراء العملية الجنسية وإطالة مدة المتعة والتقنيات السحاقية ، ولأجل بعض هذه الممارسات ، طُلبت معاونة سيدة ثانية . وكان الغرض من مجموعة الوثائق الفوتوغرافية هذه هي أن يجري بالنسبة للأعضاء المنتظرين ، عرض مصور لمتعة الحواس ، التي يحق لهم توقعها .

وبينها كانت ثمة صور لمرأة تمثل الرجل والمرأة في أوضاع أشد ما يمكن إثارة ، إذ أن المفاصل الأنتوية بما فيها الأعضاء التناسلية معروضة بكاملها في الضوء ، ومرة أيضا يكون القضيب منتصباً . ثم صور لتفاصيل جسد المرأة وهي عارية إلا من رافعة النهدين و « سليب ، الفرو - المدعي أنه من فرو

الفيزيون - وهناك صورة تظهر المرأة عارية تحت معطف من الفرو ، ومنتعلة الحذاء .

وثمة صورة لامرأة تمتطي كالفارس ، ركبتي زوجها ، وتمارس معه العملية الجنسية ، في حين نجد فتاة سويدية صبية راكعة أمامها - ومنحنية الخشاء صغيرة إلى جانب لكي لا تعترض عدسة المصور ، صديقها - وكانت الشابة السويدية تشارك يدويًا في جماع الزوجين .

وفي صورة أخرى ، مأخوذة على نفس النحو ، حلت الصديقة محل الزوجة ، في حين كانت هذه ، تساعدها ، بدورها ، يدويًا ، وهي تبسم .. وما كان غير مرئي على الصورة كان موضحاً كتابة ، وكل هذا لتحقيق غرض واحد ، وهو جمع أكبر عدد ممكن من « المنتسبين » ، متزوجين وغير متزوجين ، (ص ١٣٧ وما يليها) .

كانت النزعة الاستعرائية exhibitionnisme الكلاميكية تعبر بحركاتها : في الواقع أنا أخاف من الخشاء ، ولكن انظر ، إنني لست مخلصاً . أو : اخصني ، فلست أخاف الخشاء مطلقاً ، انظر ، انني أستطيع حتى أن أريك قضبي ، وها أنت ترى كم أنا قوي . وبفس الطريقة قام الفتيشي بحماية نفسه من خشية الخشاء بإطلاقهم القضيب نحو المرأة . ويبدو الرجال والنساء الذين يعرضهم « تقرير لاينغ » أنهم يؤرقهم ، على نحو متشابه تماماً ، الخوف من أن يكونوا فاقدي الأعضاء الجنسية . وهم أيضاً ، في تحطيمهم لمرحلة الخوف من الخشاء ، يبقون مجمدين عند مرحلة ما قبل - جنسية - تناسلية . وعليهم ، تماماً شأن الاستعرائي ، أن يبرهنوا دون انقطاع عن أنهم « حقاً » ذور أعضاء جنسية - تناسلية ، لكنهم يعضون إلى أبعد من ذلك أيضاً ، وهم يريدون أن يقولوا ،

بواسطة مجموعة صورهم الفوتوغرافية ، لمن يحيطون بهم : ان متطلبات الزواج الجنسية - التناسلية والحب تجعلنا في حالة شقاء - ولكن انظروا ، ما نحن نمرجر هذه المتطلبات في الوحل بجميع الطرق الممكنة . ولكن لا تتجاسروا على أن تمسوا هذه الواجهة الجنسية - التناسلية للحب والزواج - بل انظروا كيف يتمتعنا ذلك ويستثيرنا .

هذه المعطيات تفسر عملية نتف الشعر الارغامية (لدى العديدين من الذكور والاثاث - كما تفسر موقف الاشتمزاز الظاهر تماماً إزاء الأولاد (هذا الموقف الذي وجد لدى زوجين ذكر وانثى ، في الوقت نفسه مع تطلب نزع الشعر) إن نتف الشعر هو في الوقت نفسه عمل خصاء لدى الرجل والمرأة (انتزاع الشعر وقصه) وهو محاولة لإيجاد حالة طفولية مجدداً (ما قبل الجنسية - التناسلية) مع « بشرة ملساء » يتأسف هؤلاء الأشخاص على زوالها . وحينئذ لا يكون الموقف الدفاعي إزاء الأولاد (« المشاغبين » ، « الزعران الصياحين » الذين يضايقون الرجل والمرأة أثناء عملية الجماع) سوى الدفاع الظاهر تماماً عن رغبة لاوعية ، ومحظورة ، الرغبة في أن يتصرف الراشد هو نفسه تصرف ولد (« أن يصبح » لفرط اللذة) .

توجد ، بصورة رئيسية ، ثلاثة عوامل ، تعارض تكون تنظيم عضوي جنسي تناسلي يجعل الشخص مؤهلاً للذة ولتطوير مؤهلات مطابقة في الطباع :

١) الاعداد غير الكافي للتنظيم الجنسي التناسلي ، في العائلة أو في المحيط الجوار ؛ وبسبب مجموعة كبيرة من التأثيرات الاجتماعية والتقنيات التربوية ، يكون هؤلاء الأشخاص عاجزين تماماً (أو بصورة غير كاملة) عن أن يتمثلوا المراحل الطفولية ، المعينة بيولوجيا ، وللتطور الجنسي (المراحل : الفموية ، والشرجية ، والقضيبية) بحيث يتمركز هذا التطور فيما بعد ، ويكون التنظيم الجنسي التناسلي .

٢) الاستلاب الناتج عن العمل ، والذي يسم الممارسة الجنسية ؛ وهذا الاستلاب لا يظهر فقط بعملية الكبت الملازمة لبدأ المردود ، بل يجب أن نضيف إلى ذلك أيضاً طابع هذا « المردود » ، هذا الطابع الهالي ، المتعذر فهمه : إنه هو الذي يفسد ويحمد حساسية الأشخاص . وهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً آخر للخلاص من ضغوط العمل المرهقة وحالاته الإرغامية ، إلا بتكرارهم في نشاطاتهم الجنسية ممارسات العمل والاستهلاك الإرغامية .

٣) إن متطلبات المجتمع الجنسية التناسلية المفرطة ؛ والدعاية ، وحالات الارغام الاستهلاكية ، ومختلف أشكال التكيف الاجتماعي والجنسي تتطلب من أشخاص ، ذوي التكوين الجنسي غير السكاني أو غير المكتمل ، أن يتصرفوا كما لو كانوا مكونين جنسياً تناسلياً ، بصورة حقيقية .

والعامل الثالث هو ، بالضبط ، الذي يرغب الأشخاص على نصب واجهة جنسية تناسلية يزداد طابعها الصارخ بقدر ما يكون هؤلاء الأشخاص بعيدين فعلاً عن أن يكونوا قد بلغوا ، بعد تطور بيولوجي كامل ، المرحلة الجنسية – التناسلية (المؤهلات الجنسية والطبوعية السلوكية لادماج المراحل الجنسية ، الذي يسبق ، على الصعيد البيولوجي ، المرحلة الجنسية – التناسلية) إن مخرج الممارسات الجنسية الجماعية ، الذي وصفناه في هذا الفصل ، ليس سوى امكانية واحدة لصيانة الواجهة الجنسية التناسلية . وهناك إمكانات اختيار باقولوجية اخرى لإقامة هذه الواجهة ، مثلاً مختلف مظاهر الامتثال المتصلب للأدوار الاجتماعية (مثلاً ، زواج مبكر دون نضج طباعي واجتماعي) وهناك إمكانات اختيار باقولوجية تقوم في عدم إقامة واجهة اطلاقاً ، مثلاً الفرار إلى الانحراف الجنسي أو الى الفصام ، وأولى هذه الامكانيات قد أشير إليها سابقاً والامكانية الاخيرة تظهر بمثابة نموذج في كثير من الحالات المذكورة التي يروها البحث التجريبي حول داء الفصام . ان امكانية

اختيار الممارسة الجنسية الجماعية المختلطة هي ، قبل كل شيء ، في متناول جماعات مهنية « حرة » من القطاع الثالث ، والمنتمين إلى الفئات الوسطى وما فوقها ، أي أنها في متناول اشخاص يتمتعون بسهولة أكبر ، بإمكانية الفرار إلى قطاع واحد (هو الممارسة الجنسية) من حالات الإرغام والقواعد التي يفرضها عليهم دورهم المهني والاجتماعي ، دون أن يلاحظ هذا الانحراف بصورة سلبية أو يُحظَر من قبل الوسط المحيط بهم . وحتى لو لم نسجل إحصائياً تواتراً ذا مدلول (نسبة تكرار كبيرة) لعمليات الممارسة الجماعية المختلطة التي نتحدث عنها فإنها ، رغم ذلك ، مؤشر جيد إلى واقع أن جماعات بكاملها من السكان تنهار تحت عبء المتطلبات الاجتماعية - الجنسية التي لا يستطيع تليتها .

ترتيب مواعيد اللقاء ، إعداداً للزواج dating

« إذا وضعنا القوة الجسدية جانباً ، فإن الخاصتين الأساسيتين المميزتين للشبيبة الأميركية هما النقص النسبي للشعور بمسؤولية إعداد مواعيد اللقاء الغرامية ، ذلك ما كتبه « جيوفراي غورير » في دراسته الانثروبولوجية Dte Amerikaner (الأميركيون) ^(١) أن الملاطفة والمغازلة هما في الولايات المتحدة شكل « طبيعي » من الممارسة الجنسية في فترة ما قبل الزواج ، وذلك بين بدء سن البلوغ ؛ والزواج . وعملية إعداد مواعيد اللقاء تهدف رسمياً إلى إعداد الأشخاص للزواج ، بمد البلوغ ، ولكي « تركز » ، إذا صح التعبير ، تنظيم ممارسة العلاقات الجنسية بين أفراد من الجنسين . هذه الممارسة الجنسية التي أعطيت طابع المؤسسة ، والتي تستجيب لقواعد جد صارمة ، كما هي الحال

Geoffrey Gorer, Die Amerikaner, eine (١)
völkerpsychologische studie. R. D. E. 9 . Hamburg
1956 p. 77 .

في الولايات المتحدة ، هي مجهولة تماماً لدى بلدان صناعية أخرى .

يتصف هذا السلوك بالسّمات التالية :

(١) إن الشطر الأكبر ، من فتيان جميع الفئات الاجتماعية ، يعتمد هذا السلوك منذ بدء سن البلوغ .

(٢) هناك قواعد محددة - يمكن أن تتغير تبعاً للفئات الاجتماعية أو المناطق - لكنها قواعد صارمة ، في حد ذاتها ، يجب أن يتقيد بها أصحاب العلاقة . وتبعاً لدرجة ونوعية التقيد التام بهذه القواعد تقوم داخل الجماعة (فئة النخبة - فئة الأشراف peer group وخارجها المكانة الاجتماعية للأشخاص المعنيين . فإذا كانوا لا يريدون أن يُستَبْعَدوا كلياً من نهم الملاطفة والمغازلة ، فإن عليهم ، على الأقل ، أن يبرهنوا عن حد أدنى ، ثابت في التقيد بهذه القواعد (مثلاً ، تلبية عدد معين من « مواعيد اللقاء » خلال زمن معين) . وتعين هذه القواعد ، بخاصة ، أساليب بدء التعرف إلى الشريك ، والتقدم التدريجي لنوعية « اللقاءات » (تناول العشاء معاً ، الذهاب للرقص ؛ تبادل القبلات ، وتسلق « مبادلات » الحنو والتعاطف) .

(٣) تزداد مكانة الشخص المعني وذلك بنسبة عدد الشركاء الذين يكونون لديه في فترة معينة ، وسرعة التسلق الذي يؤدي إلى مبادلات الود والحنو (بالنسبة للفتيان) ، أو بنسبة طول الفترة التي ينبغي للشريك أن يكافح خلالها للحصول على عطاءات الحنو والود هذه (بالنسبة للفتيات) ، ومع الأخذ في الحسبان موقف الاعتزاز والادعاء وتحقيق سلسلة كبيرة من القواعد « الصعبة » جداً ، التي ، إذا نظر إليها من الخارج ، تبدو طوطمية ، أشبه بالطقوس السحرية لدى القبائل البدائية . ويكتب غورير قائلاً : « جميع الفتيان يستطيعون وينبغي لهم أن يشتركو في تنفيذ تلك القواعد ، ويتوقف على مزايا كل منهم ، المستوى المعين الذي يريد ويستطيع بلوغه ؛ لكن الفتيات المفضلات اللواتي يحرزن أكبر

مقدار من النجاحات هن وحدهن اللواتي يستطعن الافادة من تلك القواعد بصورة كاملة ؛ وتضطر الأخريات إلى الاكتفاء بصدق محدد، أو حتى بصحبة فتى يمتاز نفس الوضع غير السار ... وهكذا فإن عهد الـ dating هو ، بالنسبة لكثير من الفتيات ، فترة من الإذلال ، ومعاناة الصد ، والإخفاق . ومؤكد أنه لا بد لمن التالم بسبب ذلك ، لكن ذلك لا يستتبع عادة جراحاً نفسية مستديمة ، (١) .

(٤) تريد عملية إعداد مواعيد اللقاء أن تكون لعبة ، ومظهراً أشبه بالحياة الجنسية . ولعل المشتركين فيها يرونها بنفس السذاجة التي يرى بها الأهل أولادهم وهم يلعبون لعبة الطيب . « إن عملية إعداد مواعيد اللقاء لصيقة بالطباع ، ومنبثقة عنها ، من نواح عدة ، لكن ذلك ، على الأخص ، من حيث أن صاحبها يلجأ إلى عبارات وحركات غرامية ، وإلى طلب اليد للزواج ، دون إعطاء كل ذلك مدلوله الفعلي والمقصود الحقيقي منه » (٢) . لكن مظهر الملاقة الجنسية هذا يخضع لمعايير أشد قسوة منها في السلوك الاجتماعي والجنسي لكل مجتمع بدائي أو حضارة عُرِفَتْ حتى الآن . « إن عدداً معيناً من الجماعات ، وأشهر أمثلتها المعروفة هم سكان جزر ساموا وتروبرياندا ، يسمعون بفترة معينة من الحرية والتجربة الجنسية قبل الخطبة والزواج ؛ وتكون تلك الفترة هي أعوام إشباع رغبات الحواس والرغبات الجنسية بصفقتها كذلك ، ويحري إعطاؤها ، على كل حال ، بهذه الروح طابع المؤسسة . وإشباع الرغبات الجنسية ، عملية إعداد مواعيد اللقاء على الطريقة الأميركية ، يمكن أن تستخدم لكسب نقاط في اللعبة ؛ لكنه ليس ضرورياً مطلقاً ، وهو ، على الأخص ، ليس الهدف المقصود [...] ، (٣) .

(١) سوفراي غورير - المرجع المذكور . ص ٧٧ .

(٢) المرجع ذاته . ص ٧١

(٣) المرجع ذاته . ص ٧٢

(٥) الهدف الحقيقي لـ dating هو زيادة المكسب الترجسي . وعملية إعداد مواعيد اللقاء تشكل عند الاقتضاء جزءاً من النمط الترجسي لحب الفرس (أن يكون المرء محبوباً ، وأن لا يُحِب) . بل إن الحب هو أعلى تجسيد لحالة الدونية (النقص) ، ويعني من جهة أخرى انتهاء « اللعبة » . وبهذا المقياس فإن عملية إعداد مواعيد اللقاء ليست بأية حال من الأحوال شكلاً تهديداً للممارسة الجنسية الخارجية . وتعرف هذه الممارسة بأنها لعبة حب ، تستبعد ، مع ذلك ، الاتصال الشامل . طبعاً يمكن أن تشكل المفاضلة والمداعبة جزءاً من تلك المواعيد ، لكن ذلك يكون الأول في نظام الثاني ، ولا يعود يستخدم ، في هذه الحالة ، إلا* لتسجيل نقاط إضافية ، على غرار إهداء الأزهار أو تلقيها ، الخ .

(٦) إن عملية إعداد مواعيد اللقاء هي عمل (أو مجموعة أعمال) تجري تبعاً لطرائق محددة ؛ ويمكن مقارنة هذا العمل ، من نواح عدة برقصة من رقصات الطقوس ، ومن نواح عديدة أخرى ، بلعبة مباراة شديدة التعقيد (١) وهذه « المباراة تنتهي بانتصار أحد الشريكين ، أو أنها تنتهي بالتعادل . وفي هذه الحالة الأخيرة ، ينبغي أن ينسحب الشريكان من اللعبة » وقد توطدت عزة نفسيهما وثقتها بذاتها ، « والغالب هو الذي يستطيع أن يحمل الآخر على فقدان السيطرة على نفسه ، دون أن يفقد الأول تلك السيطرة » (٢) . وعند الاقتضاء ، تقوم هذه الغلبة ، بالنسبة للفتاة ، بأن الشاب يتمتع قاذفاً منيه ، في حين أن الفتاة تحتفظ « بالسيطرة على ذاتها » ؛ أما بالنسبة للفتى ، فيقوم انتصاره على « امتلاك » الفتاة يجرها الى ممارسة للملاقة الجنسية . ولهذا السبب أيضاً يصف ج. ر. أودري ، في كتابه الضخم عن الحياة الزوجية ، يصف الـ dating بأنه Zero - sum - play لكنه يدعي أن الـ dating لا يتخذ هذا الطابع من

(٢) جيوفراي غورير . المرجع المذكور . ص ٧١

(٢) المرجع ذاته ص ٧١

الازدراء بالشريك المغلوب إلا لدى الفئات الدنيا ، أو أنه يمكن أن يتخذه ، إذا كان الـ dating قد حدث بين فتى وفتاة ينتميان إلى فئتين اجتماعيتين مختلفتين . « إن الاتصال الجنسي يعني بصورة طبيعية ، في عملية إعداد مواعيد اللقاءات لدى أبناء وبنات الطبقة الوسطى ، النهاية المبكرة للعبة ، لأنه يبين أن الفتاة قد أخذت اللعبة مأخذ الجد . وفي عملية إعداد مواعيد اللقاء لدى أبناء وبنات الطبقة الدنيا وفي عملية إعداد المواعيد لدى أبناء وبنات من طبقات مختلفة بالنسبة للفتى ، يبنى تحقق الاتصال الجنسي وأن الفتاة قد هُزمت وذلك لأنه يجري في هذه الجماعات ، لعبة إعداد مواعيد اللقاء وحضور هذه المواعيد بمثابة مناورة مغالزة « تهدف إلى امتلاك الشاب للفتاة (١) ، .

وما يقوله أودراي عن الفئات الدنيا صحيح وتؤكدته دراسات أخرى (٢) . لكن كما تبينه سلسلة كبيرة من التحليلات والتحقيقات عن الـ dating ، الذي يمارسه فتیان وفتيات الجامعات الأميركية ، فإن تحديد أودراي لممارسة تلك الظاهرة في نطاق الفئات الدنيا هو شيء غير مطابق ، مطلقاً . إن سلوك شبيهة الفئات الدنيا هو فقط أكثر مباشرة في متطلباته الدنيا ، وهو ، وإلى جانب ذلك أيضاً ، أكثر مباشرة في إظهار انتصاراته (على مستوى أقل تعقلاً ، بالنسبة للغة والحركات الإيمائية *la mimique*) .

هناك ثلاثة عوامل اجتماعية - بيكولوجية مرتبطة بظاهرة عملية اعداد مواعيد اللقاء وهي : أ) أن هذه العملية تسهم ، داخل الجماعات المهنية أو الفئات الاجتماعية ، في إقامة فوارق دقيقة في المستوى الاجتماعي . ب) إن نظام عملية اعداد مواعيد اللقاء على الطريقة الأميركية dating يحط من

J. Richare Udrey, the social contest of marriage, (١)
Philadelphie and New-York . 1966 . p. 114.

(٢) مثلاً ، تلك التي قام بها راينور ، المرجع المذكور .

مستوى الحياة الجنسية بمقدار كبير جداً . - ولن نشرح هذه الفكرة ، اجتناباً للتكرار ، إلا في مثال تكييف عملية إعداد مواعيد اللقاء لعملية معرفة الغير . (ج) هناك علاقة دقيقة بين عملية إعداد مواعيد اللقاء والشكل الخاص الكامن ، للنشاط الجنسي مع أفراد الجنس نفسه ^(١) homosexualité . وسيجري تحليل هذه العوامل في موضع تال من هذا الكتاب .

ولكي يستطيع الشريك الجنسي أن يعتبر جذاباً على الصعيد الجنسي ، ينبغي أن تتوفر فيه سلسلة من المواصفات الاجتماعية ، قائمة تماماً خارج الحياة الجنسية وطابعها - وإلا فإنه سيناله الازدراء ، في حالة بلوغ الغاية الجنسية ، من جانب أولئك المنتهين إلى فئة اجتماعية أرفع ، شأن المثال الذي أورده أودراي عن تلك الفتاة (من بنات الفئات الدنيا) التي كانت تمارس عملية إعداد مواعيد لقاء متقابلة (مع أشخاص من فئات اجتماعية متعددة) هذا السلوك ، الذي ينشئ ويحدث مجدداً لدى الأفراد الممنين صفات ومعايير للمردود تحكيمية ومشوهة إلى أقصى حد . لقد أبرز روجرز هافنس ^(٢) بصورة واضحة جداً الرقابة الأولية ، وذلك بواسطة احصائيات تتعلق بتحليل العملية ضرب مواعيد اللقاء .

الدلحة رقم ٤

عملية ضرب المواعيد بين الطلاب (أعضاء الاتحادات الطلابية) وبين

(١) اشتهاء المقابل (عن قاموس «النهل») وهو اللواطه والسحاق homosexualité .

(٢) م . ١ . روجرز ، وأوجين هافنس .

«Prestige Dating and Male Selection on a college campus»
in Marriage and Family Living, No 22, fev - 1960, tableau 3.

الطالبات وغير الطالبات .

جمية أخوية ذات مكانة اجتماعية منخفضة	جمية أخوية ذات مكانة اجتماعية متوسطة	جمية أخوية ذات مكانة اجتماعية عالية	
٦	١٦	٢٩	نادي الفتيات ذات مكانة اجتماعية عالية
٧	١٢	٢٠	، ، ، متوسطة
١٠	٤	١٣	، ، ، منخفضة
٢٥	٢٥	١٤	مجمع للطالبات
٥٢	٤٣	٢٤	فتيات غير مسجلات في الكلية المعنية
%١٠٠	%١٠٠	%١٠٠	المجموع

لفهم هذه الاحصائية (اللائحة ٤) يجب أن نفهم بـ « الجمعية الأخوية » ، جمعيات الفتيات الطلابية ، و بـ Sorority جمعيات الفتيات ، الطلابية . وهذه الجمعيات مائة تماماً لا Burschenschaften الألمانية . إلا أن تنظيم عملية تراتبها - الأولى - leur hiérarchisation تبعاً لوضع الأبوين الاجتماعي ، وما يترتب على ذلك من مكانة ، تتدرج على مجموعة من الأنماط والممارسات ، أوسع وأدق بكثير ، مما هي في ألمانيا . وعلى أعضاء عدد كبير من تلك الجمعيات أن يقدموا البراهين عن تحقيقهم حداً أدنى من « اللقاءات » les rendez-vous الاسبوعية . ونظراً لأن الطلبة ، في الكليات الأميركية ، يكونون بصورة عامة على حرم الجامعة ، فينبغي أن نفهم بكلمة مجمع الطالبات Dormitory ، دوراً للطلبة يكن فيها الطلبة ذوو المكانة الاجتماعية الأكثر تدنياً (أي أولئك الذين لم يقبلوا في دور الجمعيات المرتبطة بحرم الجامعة ، أو الـ « اللامنتسبين » الذين لا يريدون أن ينضموا إلى أية جمعية) .

ولننظر الآن إلى الانحطاط النوعي الذي يحدث في نظام التدرج في ممارسة العلاقات الجنسية بين أفراد من الجنسين ، هذا النظام المعطى صفة المؤسسة ،

والخاص بلعبة تدبير اللقاء ، وقد خلص فيرون وستيوارت ، في دراسة لهما تجريبية^(١) إلى الاستنتاج بأن تعرف شريك إلى آخر يكون أرفع مستوى كلما كان للشريكين « لقاءات » أكثر تواتراً . وهذه النتيجة ليست مدعاة للدهشة . وبالمقابل ، فإن ما يدهشنا ، مع أنه يتفق وافترضاؤنا حتى الآن ، هو أن تراكم عمليات تدبير مواعيد اللقاء (عدد « اللقاءات » مع شركاء متعددين ، في زمن معين) لدى شخص ما ، لا يسهم مطلقاً في زيادة قدرته على التعرف إلى الغير ، بالنسبة إلى الشريك . وبالعكس ، فإن الأشخاص الفائزين بـ « لقاءات عديدة » يظلون على نفس البُعد الانفعالي من شريكهم ، الذي يكون لدى الأشخاص الحائزين على عدد قليل من اللقاءات . ويمكن أن نستنتج من ذلك ، وإن كان المؤلفان بعيدين عن استخلاص مثل هذه الاستنتاجات ، أن الأشخاص لدى خروجهم من نظام الـ dating يكونون على نفس المقدار من الضعف والهزال في الميدان النفسي ، الذي كانوا عليه لدى دخولهم النظام ذلك لعملية إعداد مواعيد اللقاء ؛ ولن يقوموا بإتمام « قدرتهم على معرفة أحدهم للآخر ، إلا » لدى نشوء صداقة دائمة بينهم أو عند قيام خطوبة أو ارتباط (engagement) . إلا أن تطور التعارف ، اللاحق ، يبقى خاضعاً لتجارب عملية إعداد مواعيد اللقاء والانفعالات العاطفية المرتبطة بها ؛ ويظل هذا التطور مشوهاً^(٢) . ويظهر وجه محدود لهذه العواطف في دراسة أخرى

(١) و. ل. ستوارت وغ. فيرون :

« Empty as a Process in the Dating situation » in
American sociological Review, no. 1, 1957. pp 48 - 52

(٢) مؤكداً أنه لا ينبغي أن يوضع على صعيد واحد النتائج الاجتماعية والنفسية dating ومثيلاتها بالنسبة لـ petting . إن عملية petting يمكن أن تحمل تماماً عمل الإعداد لعملية الممارسة الجنسية - ولكن مع الأخذ في الحسبان بعض العواقب النوعية والتضيقات (مثل =

تجريبية لكبير كباتريك وكانان^(١) عن (University Campus Male Sex Aggression on a) عدوان الذكور الجنسي على الطالبات داخل حرم الجامعة) . إن ٥٦ ٪ من الفتيات اللواتي جرى توجيه الأسئلة إليهن قد اعترفن بأنهن أثناء سنتهن الجامعية الأخيرة قد تعرضن للعدوان ، مرةً على الأقل . هؤلاء الفتيات المئة والاثنتان والستون ، اللواتي مورس ضدهن العدوان الجنسي قد تعرضن ، بالاجمال ، ١٠٢٢١ حادثة هجومية ، أي لتصرفات جنسية ، من جانب رفاقهن الذكور ، الذين كن يعتبرنهم غير مرغوب فيهم . إن اللائحة رقم ٥ تبين ، أولاً) ردود الفعل الانفعالية لدى الفتيات ، إزاء هذه التصرفات ، وثانياً) سلوكهن ، البين الصريح - إزاء رفاقهن أو محبطين .

اللائحة رقم ٥

رد فعل الفتيات تجاه محاولات شركائهن الانتقال إلى تصرفات جنسية
« غير مرغوب فيها » .

= الخطر المترادف في المعجز فيما بعد على الحصول على الانتعاش (ذروة المتعة الجنسية في نهاية الجماع)
إلا عن طريق الإثارة الفموية أو اليدوية ، إذا جرت ممارسة الـ petting « زمناً طويلاً جداً »
كشكل وحيد لإشباع الرغبة الجنسية - لمعرفة المزيد من التفاصيل ؛ اقرأ كينيدي) .

C. Kirkpatrick et E. Kanin « Male sex (١)

Aggression on a University Campus in
Americain Sociological review, année XXII,
no. 1, 1957, pp. 52 - 58.

الدوحة رقم ٥

محاوالت إقامة عملية بجامعة أو اغتصاب	المداعبات تحت الحزام	الممانعة والمداعبة فوق الحزام	ردود الفعل عند الفتيات
			١ - رد فعل الفتاة الانفعالي
٣٥	٤٢	٤٨	خوف
٣٨	٢٣	١٩	إحساس بالذنب
٣٨	٢٣	١٥	قلق (تهيّب أو خشية)
٦	٩	١٨	قرف ، خيبة ، ارتباك
%١٠٠	%١٠٠	%١٠٠	المجموع
			٢ - « ماذا كان رد فعلك ؟ »
٣١	٢٥	٣٧	أعمال رفض معينة
١٦	٢٠	٣٤	مناقشة في فرقها الجنسية
٤٩	٤٦	١٩	مثلا في نادي الفتيات
٤	٤	٣	إخفاء الحادثة
٠	٥	٧	محادثة « المعتدي » في الأمر
%١٠٠	%١٠٠	%١٠٠	إبلاغ السلطات الجامعية
			المجموع

لكي نفهم مدلول هذه الإحصائيات، ينبغي أن نتذكر أن النوعين الأخيرين، على الأقل، من مختلف « عمليات الاعتداء الجنسية- (الممانعة ، والمداعبة تحت الحزام ومحاوالت لإجراء عملية بجامعة) لم يمكن أن تجري ، في أغلب الحالات، إلا بعد سلسلة من « المواعيد واللقاءات » بين الشريكين ، أي في لحظة كان

فيها الشاب والفتاة ، على أي حال ، قد أصبحا متعارفين « عن كثر أكثر » .
ومهما كانت المقولات القائمة في أساس هذه الدراسة ، سطحية وغير دقيقة ،
فإنها تلقي الضوء على شيء معين . وهو أن هذا السلوك الجنسي المنوح طابع
المؤسسه هو مرتبط ، بالنسبة لكثيرات من الفتيات اللواتي يمارسنه ، بتجربة
الخوف . وليس بينهن سوى نفر ضئيل قادرات على أن يعملن من هذه التجارب
والعذابات موضوع مناقشة مع شريكهن ؛ وعلى كل حال ، فإن التغيير المستمر ،
والذي أصبح عرفاً شائعاً ، للشريك ، يجعل هذه المناقشة مستحيلة عملياً .
والنتائج تدعو إلى اليأس الشديد لاسيما وأن الفتيات اللواتي وجهت الأسئلة
إليهن هن في عداد الجماعات الأكثر إعداداً من الناحية الثقافية والذهنية ، أي
من الجماعات التي يحق للمرء الافتراض أن في وسعهن الإفضاء بتجاربهن ومعاتنهن .
إن طريقة غورير في الرؤية ، حين يفترض أن الأشخاص المتأثرين بممارسة عملية
إعداد مواعيد اللقاء ، يخرجون من نظام الممارسة هذا ويتزوجون دون آثار
باقية لصدمة نفسية أو جرح نفسي دائمين ، هي ، ولا شك مطلقاً ، ساذجة
جداً ؛ اللهم إلا إذا كان لديه مفهوم سطحي جداً للصحة النفسية .

لدى تعداد أنواع وخصائص العملية الأميركية ، لإعداد مواعيد اللقاء
أغفلنا القول إن النمط « الأعلى » لهذه الممارسة الجنسية هي عملية إعداد مواعيد
لقاء مزدوجة . والمقصود بذلك ، أن صديقين ما ، إذا كانا منتسبين إلى نفس
الكلية ، وربما كانا يسكنان في مرقد * واحد ، يمارسان تدبير اللقاءات مع
فتاتين ، أو مع فتاة واحدة . وينتج عن ذلك أن ينشأ بين الصديقين ، أحدهما
إزاء الآخر ، علاقات نفسية متزايدة الوثوق باستمرار أكثر مما يكون بينهما
والفتاة (أو الفتاتين) ؛ وتستمر صداقة الشابين إلى ما بعد الفترة التي يخرجان
أثناءها مع الفتاة ذاتها . بل يمكن أن يحدث أن تكون للعلاقة الجنسية بين

أفراد من جنسين مختلفين وظيفه كامنه هي توطيد أواصر الصداقة بينهما. وهناك ما يحمل على أن ترى في هذا النوع من العلاقة مؤسسة معينة ، قضت بإيجادها « الحضارة » ، تهدف إلى تحقيق الاستقرار في العلاقات بين الجنسين ، بالنسبة لأهداف الرغبة الجنسية ، هذه الأهداف التي تكون مقلقة ، بعد ، أثناء فترة البلوغ ، أي ثنائية الجنس bisexual . ومثل هذه الوظيفة تحدث أيضاً للصدقات بين الشبيبة في المجتمع البورجوازي . لكن هذا الافتراض يدحضه واقع أن عملية إعداد مواعيد اللقاء المزدوجة يستمر حتى نهاية عملية إعداد مواعيد اللقاء dating ، للشخص ، وأن خطوبة أو زواجاً بحري تقريرهما فجأة هما فقط اللذان يضعان حداً مبالغاً تماماً لتلك الممارسة المزدوجة للمواعيد . في هذا الضوء ، يظهر الزواج بمثابة عامل الاستقرار الاصطناعي لبنة تناسلية للطبقات الجنسية – يتمرد دائماً بلوغها – . هذا الافتراض تقلب المعايير القسرية للعلاقات الجنسية بين أفراد من الجنسين ، في نظام عملية إعداد مواعيد اللقاء وشبه الممارسة الجنسية الجماعية في هذا النظام ، الذي يتيح إقامة واجهة جنسية تناسلية واتخاذ موقف طفولي ، في الوقت نفسه ، إزاء اختيار الفرض . أما غورير ، من جهته ، فيتغلب على العقبة ، بأن لا يرى أي تناقض بين هذه الحالة الفعلية ، وبين « صحة الروح » التي يتحدث عنها بلا انقطاع . بل هو يراها مؤكدة بعنصرين يتميز بهما الجيش الأميركي (الذي يجند فيه الفتيان فوراً بعد سن إعداد عملية اللقاء من بين جميع الجيوش الأخرى) .

(١) جميع الرجال المشتبه بأنهم لوطيون يطردون من الخدمة العسكرية ؛ وإعادة الفحص مقررته بتحديد صريح متبعاً على أساس استبعاد اللوطيين .

(٢) تتخذ تدابير ، بحيث يبقى متيقظاً اهتمام الجندي بممارسة العملية الجنسية مع شخص من الجنس الآخر ، إلى حد أن « الجيش بكامله ، عند النظر إليه من الخارج ، يبدو وكأنه كلياً في حالة من التهييج الجنسي المتشنج » (١) .

(١) غورير ، المرجع المذكور ، ص ٨٥

هذا « التهيج الجنسي المتشنج »، شبه المشاهد الصارخة للأشخاص من الجنسين ، الذين يمارسون العمليات الجنسية *promesquite* الجماعية ، والذين لم يبلغوا ، هم أيضاً ، مرحلة ممارسة العلاقات الجنسية ، البالغة الرائدة ، بين الجنسين . ويتأكد لنا هذا الاستنتاج ، حين نعلم أن « الأميركيين » لا يشعرون ، حقيقة ، باشمزاز أو نفور أو قرف من ممارسة العلاقة الجنسية بين أفراد الجنس نفسه ، على نحو ما يشمر بها البورجوازي ، الذي نجما ، بواسطة هذا التفسير النفسي من أن تظهر جهازاً نزعته التكوينية ، هو ذاته ، وأحد مقومات شخصه وما رغبته الجنسية لممارسة الجماع مع أفراد من الجنس نفسه . الأميركيون يسيطرون عليهم الهلع والذعر أمام ممارسة العلاقات الجنسية مع أفراد الجنس نفسه ؛ إنها تعتبر بمثابة خطر مباشر ، شخصي [...] ولا سيما بالنسبة لاستقامة الشخص المعني ، وهي تستثير رد فعل عنيفاً ، بل موقف ذعر وهلع ، (١) . إن النزعة الى الزواج المبكر في الولايات المتحدة ، وربما أيضاً في البلدان الرأسمالية الأخرى (٢) وبخاصة النزعة ، الملاحظة في الفئات الأميركية الوسطى ، إلى الزواج « المباحث » إذ سرعان ما ينهار لدى التخرج من الجامعة الإطار الخارجي لـ « لعبة » ممارسة العلاقات الجنسية بين أفراد الجنسين بصورة جماعية مشتركة . كل هذا لا يدل على تكوّن طباع جنسية تناسلية «مركزة» ، وإنما يدل بالأحرى ،

(١) المرجع ذاته ، ص ٨٥ .

(٢) يمكن الاعتراض هنا بأن هذه النزعة إلى الزواج المبكر تسجل كذلك في البلدان الاشتراكية ، وإذن ، فهي رهن بعامل قائم خارج تنظيم القوى المنتجة ، والذي هو ، في خاتمة المطاف ، ملازم للتصنيع . لكننا ، لدى إقامة مقارنة دقيقة بين البلدان الرأسمالية والبلدان الاشتراكية العالية التصنيع ، سوف نسجل ، دون أدنى شك ، أن النزعة إلى الزواج المبكر في البلدان الاشتراكية ، رهن بعوامل تختلف عنها في البلدان الرأسمالية ؛ فهذه النزعة تتوقف اليوم ، مثلاً ، في البلدان الأولى ، على الكبح المباشر الممارس ضد الاندفاعات الجنسية ما قبل الزواج ، ثم على الأخلاق والرعاية « الاشتراكيتين » الخ .

على أن البنية الطيباعية structure caracterielle والجنسية تحتاج لحماية ومؤازرة .

الرغبة الجنسية ، الكامنة ، نحو أفراد من نفس الجنس ،
و « عملية المساواة بين الجنسين »

إن علم التحليل النفسي يفرق بين الرغبة الجنسية الظاهرة لدى أفراد من نفس الجنس ، وهذه الرغبة وهي في حالتها الكامنة . فالأولى تتميز بانتقاء نوعي ، حصري ، أو مبهمن ، لفرض جنسي ، يكون غرضاً من نفس الجنس ، لممارسة علاقة جنسية معه . أما مفهوم الرغبة الجنسية ، الكامنة ، لممارسة العلاقة مع أفراد من نفس الجنس ، فيأخذ في الحسبان ، أنه ، عند جميع الأشخاص الطبيعيين ، رغم رغبتهم الجلية تماماً في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس الآخر ، يجرى اكتشاف مقدار هام من رغبة كاعنة ، ولاواعية ، في ممارسة العلاقة الجنسية مع أفراد من نفس الجنس ، (١) .

وتبعاً لهذا المفهوم ، فليس فقط « جميع الأشخاص ، أياً كانوا ، يمكنهم أن يختاروا غرضاً من الجنس نفسه ، وأنهم جميعاً قاموا بعملية الاختيار هذه ، في عقلهم الباطن ، بل يمكن التأكيد بأن مشاعر الرغبة الجنسية التي تتعلق بأشخاص من الجنس ذاته تلعب في الحياة النفسية الطبيعية دوراً هاماً يمثل أهمية المشاعر التي تتعلق بالجنس الآخر ، وأن قيمتها في علم معرفة اسباب الحالات

Freud. Über die Psychogenese eines (١)
Falles von weiblicher Homosexualität , tome XII
p. 300 .

المرّضية هو أكبر من ذلك بكثير أيضاً ،^(١) . ويعني هذا أن الرغبة الجنسية توجد ، في البدء ، بمنزل عن الفرض الذي تتحول نحوه فيما بعد . إن المقولة السكونية المطابقة لهذا المفهوم الديناميكي للرغبة الجنسية في أفراد من الجنس ذاته ، هي « الرغبة الجنسية الثنائية البنيوية » لدى الانسان . ويرى هذا المفهوم أن الرغبة الجنسية لأحد الأشخاص في شخص من نفس الجنس ، أو في شخص من الجنس الآخر ، هي صفات مكتسبة ، أي أنها نتيجة لحضارة معينة . والحال ، فإن هذا الاختيار لفرض جنسي من الجنس الآخر ، وهو صفة مكتسبة بصورة فردية وفي إطار حضارة معينة ، يضاف إلى مكتسب الحضارة هذا الجديد ، الذي يتيح مركزة الرغبات الجنسية الجزئية ، وإخضاعها لأولوية العلاقة الجنسية التناسلية ، وهي نتيجة ينبغي لكل شخص أن يبلغها بدورها ، وبمباراة أدق ، فإن عمليتي التطور النفسيتين في الأشكال التاريخية المعروفة ، تجريان في الوقت نفسه ، مع تبادلها الرقابة والتكامل .

هذا المفهوم لا يستبعد أن اختيار الفرض النهائي لممارسة العلاقة الجنسية إما مع شخص من نفس الجنس ، أو من الجنس الآخر ، يمكن أن يساعده ، بل وأن يستثيره ، لدى الشخص ، عامل بنيوي . وفي جميع مناقشات فرويد السريرية clinique حول رغبة شخص ما في ممارسة العلاقة الجنسية مع شخص من الجنس نفسه ، علق فرويد كثيراً من الأهمية على هذه الحقيقة التي سجلها بعد دراسة وتتبّع . لكن هذا لا يعني القول إن العامل البنيوي للرغبة الجنسية في شخص من الجنس نفسه ، التي على كل حال ، لم يحرّ التعمق في دراستها ، إلا أكثر بقليل ، مما جرى في عهد فرويد ، لا يعني القول إن ذلك العامل البنيوي هو كالرغبة الجنسية الفطرية في أفراد من الجنس نفسه ، على حد سواء . وكذلك ليست ثمة رغبة جنسية فطرية في أشخاص من الجنس الآخر .

(١) فرويد « ثلاث دراسات » ، .. « المرجع المذكور ، ص ١٦٨ .

ولأجل وصف خاصة هذا الوضع ، وتعيين الحتمية الاجتماعية الدافعة إلى اختيار غرض من الجنس الآخر ، صاغ فريديري هذه التسمية التهكمية تقريباً وهي «الممارسة القسرية للعلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس الآخر» (١) وكذلك ينبغي أن نشبه ، عند ذوي الرغبة الجنسية في أشخاص من الجنس نفسه ، «العنصر الشرجي» ولا أي تبلور نفسي آخر ، برغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس نفسه . فهذا العنصر يدل ، بادئ بدء على تبلور لتطور جنسي ، مستقل عن الرغبة الجنسية في أشخاص من الجنس نفسه ، ثم يطابق تبلوراً طبيعياً caractériel مستقل كذلك تماماً عن الرغبة الظاهرة ، في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس نفسه (٢) إن نزعة الرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس نفسه ، المحققة كلياً والمهددة بطابعها كممارسة للعلاقة الجنسية العضوية ، تعرف تماماً ، شأن الرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس الآخر ، الوجهين الأساسيين لاختيار الغرض anacritique الأناكليتي * المظهر والوجه الترجسي Narcissique ، وإن

Sandor Ferenczi zur Nosologie der männlichen (١)
Homosexualität,

المؤلفات الكاملة ، الجزء الأول ، ص ١٦٨

(٢) فرويد « ثلاث دراسات في نظرية الحياة الجنسية » : « إن الدور الجنسي للفناء المحاطي الشرجي لا يقتصر على العلاقات بين الرجال ، والمهيمنة التي يكتبها ليست خاصة من خاصيات الشذوذ » ص ٣٧ .

* الأناكليتيه anacritique اختيار الشخص لمحبوبه الجنسي على أساس مشابهته لما انطبع في الوجدان الطفولي لذلك الشخص من صور الوفاء الأبوي . (معاملة الأوين ، الأم والأب ، الحادبة على الطفل .)

(ملاحظة من المترجم)

كانت توجد لدى ذوي الرغبة الجنسية في أشخاص من الجنس ذاته « نزعة أكبر إلى اختيار غرض نرجسي » (١) .

في إطار تطور الحضارة ، تشكل رغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته ، واحداً من أشكال كبح الرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية العضوية مع أشخاص من الجنس الآخر ، هذه التي يتطلبها المجتمع ، وذلك خلال تطور الرغبة الجنسية الخشوية (المزدوجة bisexualité) ، التي لا يكون لها ، في البدء ، أي اتجاه محدد على الصعيد البيولوجي . هذا مع العلم ، أن عنصر « الممارسة الجنسية العضوية » لا يمكن تمييزها إلا بصعوبة عن عنصر « رغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أفراد من الجنس الآخر » . وهذا التمييز يفتقر مستحيلاً إذا ما استندنا إلى المقولات الفرويدية عن الشخص الطبيعي والمتوازن (Realitätstuchtig) . وكل حالة من حالات رغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص في الجنس ذاته تستلزم انحرافات مَرَضِيَّة معيّنة للبنية الفريزية الجنسية . لكن هذه الانحرافات المرضية لا تتعلق فقط بالمتطلبات الاجتماعية والشخصية لمبدأ الواقع القائم ، بل هي قبل كل شيء نتيجة لعمليات الإرغام النفسية ، التي يفرض بواسطتها مبدأ الواقع هذا معايير أثناء عملية تطور المَجْمَعَة socialisation . إن مجمل مختلف الآليات والكوابح التي ذُكِرَتْ حتى الآن لأجل تفسير منشأ رغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته ، والتعلق الاتحادي الوثيق symbiotique بالأُم ، والنزعة النرجسية الطفولية ، والخوف من الحِصَاء ، والفرار أمام منافسة ذكر آخر ، ليست خاصة برغبة ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته (٢) . ويمكن

(١) Freud, über einige nerottsche Mechanismen bei Eifersucht. Paranoia und Homesexualität . tome XIII , p. 204.

(٢) المرجع ذاته ، ص ٢٠٦

أن تميز هذه الأمور ، على حد سواء ، نقطة انطلاق سيرة ، مرضية إلى هذا الحد أو ذلك ، لرغبة في ممارسة علاقة جنسية مع شخص من الجنس الآخر . وإذا كان قدر للحالات المرضية العصابية ، بأوسع معاني الكلمة (بما في ذلك جميع الحالات غير السريرية ، أن تكون فعلا أكثر عدداً لدى ذوي الرغبات في ممارسة العملية الجنسية مع الجنس ذاته ، منها لدى ذوي الرغبة في ممارستها مع أشخاص من الجنس الآخر ، فسيكون المسؤول حينئذ ، باديء بدء ، التحريم الاجتماعي الذي ينيخ بثقله على الرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته . إن جميع مشتبه المائلين مُخضعون لهذا التحريم ، بهذا التجسيد أو ذلك من تجسيدات التحريم والعزل الاجتماعيين ، والمقاب أو الاضطهاد المستتر أو الصريح ، هذا التحريم يعمل إذن بمثابة « أداة تفجير » لداء العصاب ، لا مثيل لها عند المشتبهين للمغاير (١) .

كل هذا ليس تبريراً لاختيار غرض من الجنس ذاته . ولا يمكن انصافه إلا حين ستجري المطالبة المتشددة ، في مجتمع حر حقاً ، بأن تكف عن أن تكون لها علة للوجود جميع الانحرافات المرضية الخاصة التي تصيب اليوم مشتبه المائل ومشتبه المغاير . ومن شأن ذلك أن يندرج فيه كون التبلور القسري لاشتهاء المائل ، بصفته سيرة حياة ومصيراً . ولن يمكن أن يجري نقاش تجريبي تحليلي

(١) راجع في هذا الصدد ادورنو :

Adorno « Sexualität und Recht heute » in *Ein gri ffe* .
 Francfort, 1936 . p 112 :

حيث يقول في الكتاب المذكور : « إنني إذا وثقت بنتائج عمليات الرقابة الدراسية التي قمت بها ، أرى أن من المدعش بصورة خاصة أن نلاحظ ، لدى مشتبه المائل ، الموهوبين ذهنياً ، المرائق النفسية التي تحد من انتاجيتهم ، وعجزهم عن تحقيق ما يمكن أن يكونوا قادرين تماماً على تحقيقه ، إن اللغز الذي يضغط عليهم ، وما يعانونه من نبذ ، الذي يلهم التشريع وهذا التشريع بتعزيزه النبذ ، في الوقت نفسه ، يلعب دوره في هذا المجال أيضاً » .

في هذا الصدد ، إلا بعد بلوغ ذلك التبلور هذه المرحلة من التنظيم الاجتماعي ؛ وستكون المسألة هي معرفة ما إذا كان يمكن أن يكون ثمة تطور شبه طبيعي نحو اشتهاة المغاير ، في حالة تركيز الرغبات الجزئية ، وخضوعها لأولوية النشاط الجنسي العضوي التناسلي على نحو غير قعبي ، وحيث يكون اختيار الفرض حراً قدر الامكان ، بصدد الشروط النفسية والاجتماعية على حد سواء ، أو إذا لم يكن في الامكان عمليات اختيار لأغراض جنسية - مزدوجة دون أن يستتبع ذلك ، في الوقت نفسه ، تهقراً للحضارة . على هذا الأساس فقط ستمكن معرفة ما إذا كانت نزعة اشتهاة المائل ، في مجتمع حر ، « سوف قضمحل وتزول » . في تلك اللحظة فقط ستصبح البيانات عن « المكافأة للذة اشتهاة المغاير ، و « العوامل البنوية لاشتهاة المائل » ، التي كانت قد ظلت حتى ذلك الحين نظرية أساساً ، ستصبح تلك البيانات مؤسسة على تجربة واقعية فعلية وتستفيد بحرية من عملية التطور الفردية لمجمعة الطفل والأحداث المراهقين .

ونظراً لأن رغبة اشتهاة المائل الظاهرة تماماً مخضعة لتحريم اجتماعي مشدد على ذلك النحو - لا تعبر عنه العقوبات القانونية إلا جزئياً - فإن الرغبات الجنسية الكامنة ، في اشتهاة المائل و « المشاعر الجنسية التي تتعلق بأشخاص من الجنس ذاته » لا يمكنها كذلك إلا أن تقوم بدور مزدوج في إقامة علاقات العلاقات الجنسية الشديدة الزخم مع الفرض . إن المظهر الغالب في مجتمعنا ، الذي يظهر به اشتهاة المائل ، الكامن ، هو دائماً مظهر اشتهاة مكبوت للمائل . و اشتهاة المائل ، السجين في حالات التوتر القائمة بين الرغبة اللاواعية ، والارغبة الواعية (النفور ، الاشمزاز ، الخوف ، عدم الاهتمام) وبين التحريم الاجتماعي ، فإن اشتهاة المائل يتحول إلى عملية كبت جماعية ؛ وبذلك نفسه يمكن أن تخدم عملية الكبت الجماعية هذه بمثابة قاعدة اجتماعية - نفسانية لتصرفات عدوانية ومدمرة جداً ، على الصعيدين الشخصي والجماعي على حد سواء ، ولتطور حركات سياسية مطابقة . لقد أسهم شكل تاريخي خاص

لاشتهاء المائل، الكامن، اسهاماً كبيراً في ولادة وتلاحم الحركة الفاشية الجماهيرية في ألمانيا. وقد وصف اريخ فروم عام ١٩٣٨، هذه الظاهرة في كتابه «Autoritat und Familie (السلطة والعائلة)» بأنه «طبع مازوخي»^(١) تحكي: «ينبغي التذكير هنا، بصورة عامة، بأن السادي - المازوخي يسير جنباً إلى جنب مع ضعف نسبي للشهوة الجنسية المتجهة نحو أشخاص من الجنس الآخر. وتكون لهذا نتيجتان: الأولى هو أن الرغبات الجنسية السابقة لممارسة العلاقة الجنسية العضوية، والشرجية على الأخص، تكون متطورة بقوة لا بأس بها، وتتجسد في الظواهر الطباعية: الترتيب والدقة والانتظام، وحب التوفير والاقتصاد، هذه القيم التي تلعب دوراً بدهياً جداً وهاماً جداً على الصعيد الاجتماعي بالنسبة للطبوع البورجوازي الصغير التحكي، والنتيجة الثانية، هي وجود رغبات جنسية لاشتهاء المائل، فبأي مقدار ترتبط بنية الرغبة الجنسية السادية - المازوخية برغبة اشتها المائل، هذه قضية لم يحير إيضاحها إلا قليلاً، من نواح عدة... إن الحياة الغرامية التي من هذا الطراز تشكل انفصاماً غريباً. فالرجل المتسلط المتوسط هو، من الوجهة الوظيفية (الفيزيولوجية) مشته للمغاير، لكنه من الوجهة النفسية مشته للمائل، وبعبارة أخرى، فإنه إزاء المرأة قوي قادر وذلك بالمعنى حين يشبع رغباته الجنسية، وعن تلك الطريق ذاتها، بمعنى حد أدنى من ممارسة العلاقة الجنسية من أشخاص من الجنس الآخر، ضروري لتأسيس عائلة وانجاب أولاد. لكن ذلك الشخص هو، من وجهة النظر النفسية، مشته للمائل، وهو يتخذ إزاء المرأة، موقفاً معادياً وقاسياً، هذا الجانب من اشتها المائل كثيراً ما سيتحول، لدى عدد كبير من الأشخاص، إلى رغبة ظاهرة صريحة في ممارسة العلاقة الجنسية مع أشخاص من الجنس ذاته بمعنى الكلمة الدقيق؛ والبني المتسلطة المتطرفة،

(١) مازوخي: انحراف جنسي يلتمس فيه المرء اللذة بالعذاب (قاموس «المنهل»).

الحديثة جداً ، تقدم لنا عن ذلك مقداراً كافياً من الأمثلة . إلا أن حالات اشتهاء المائل ، الصريح الظاهر ، ليست هامة على الصعيد السوسيلوجي . وما هو أهم من ذلك كثيراً ، في المقابل ، هو التعلق المازوخي الحنون والغرامي للرجل الأضعف بالرجل الأقوى ، هذا التعلق الذي يشكل عامل تلاحم تتزايد أهميته وضرورته ، بصفته لاغنى عنه ، لاسيما وأن هذه العلاقة ، بسبب حقيقة الوضع الاجتماعي الواقعي ، هي غير عقلانية وتناقض المصالح الحقيقية للشخص الأضعف (١) .

وبالنسبة لهذا التحليل ، نسجل ، في الفترة الراهنة من السيطرة الرأسمالية ، تغيراً لوظيفة اشتهاء المائل ، الكامن . إن عملية تطور الجمعة الراهنة ، بواسطة حركة الاعلان ، والتكيف مع عملية الاستهلاك بصورة خاصة ، ولكن منذ زمن قريب ، حتى عملية الجمعة العائلية الموجهة عن بعد (٢) لم تعد تؤدي إلى تكون صفات شرجية نوعية متصلة شأنها في الماضي . وتظهر الرغبات الجنسية الجزئية أيضاً في مجملها موجهة - أي محررة جزئياً ، لكي تغدو إثر ذلك محيطة معطلة الفعالية اجتماعياً بواسطة الإرغام بإقامة علاقة جنسية عضوية تناسلية وذلك ما يزيد من اضعاف هذه العلاقة ، لكن اشتهاء المائل يبدو أنه يفقد قليلاً من طابعه التهديدى ، مستثيراً من جانب الشخص السادي - المازوخي ، ودود فعل شديدة الخوف والمدوانية (إزاء المرأة) . ويتحدث أدورنو عن هذا التطور الراهن بالفكرة - التي لا يميضي قدماً في المزيد من تطويرها - وهي أن

Erich Fromm, in *Autorität und Familie*, tome 5 des (١) *Schriften des Instituts für Sozialforschung* (éd par Max Horkheimer) Paris , 1936 , pp 125 ss .

(٢) راجع مثلاً مقال « ايلترن » Wann hat der Toph ausgedient عد

• - ٢ - ١٩٦٨ ص ٢٢ وما يليها .

المثل الأعلى الجنسي المشتبه ، يصبح في القرن العشرين ، وذلك كما يبدو تماماً ، بسبب انتشار حالة اشتها المائل ، بصورة لاواعية ، في المجتمع ، يصبح المثل الأعلى الجنسي المشتبه ، طفولياً ، أي مثلاً أعلى كان يُسمى منذ ثلاثين عاماً ، بارتعاش شبة ، المرأة - الولد ^(١) ، وعلى هذا الأساس ، فإن عبارة انتشار حالة اشتها المائل homosexualisation غير دقيقة ولا تفي بالمرام ، من حيث انها تحفي موقفاً محايداً بصورة مفرطة ، تجاه التطور المذكور . ويكون الأمر دائماً أن اشتها المقابل يقوم في ممارسة قضيبية وجنسية وعضوية ؛ يمكن تماماً أن تطابق بنية طبيعية للأنا المتناسق الميول المتناغم syntone (اندماج الأنا) . وبالمقابل فإن الرغبات الجنسية الكامنة ، المشتبه المائل هي مندرجة في واجهة ممارسة العلاقة الجنسية العضوية التناسلية الخالية من التناقض ، إذا صح التعبير . إن غرض الجنس الآخر ، الذي لا يحس إزاءه الطبع المتسلط المازوخي أنه على مستواه ، وذلك بسبب ضعفه في ممارسة العلاقة الجنسية العضوية ، هو الآن بذاته مزين بخصائص « لواطية أو سحاقية » بصورة ظاهرة (السلوك والتصرف) وتوابعهما (المشية ، والملابس ، وطريقة الكلام ، والحركات) .

ولكن ها كم ما يمكن تقديمه اليوم بمثابة « خصائص لرغبة اشتها المائل » : الشعر الأطول ، والمشية ذات الصفة الجنسية أكثر ، بالنسبة للرجل ، ولوازم الدرجة (الموضة) الخاصة بالذكور ، للمرأة (في شتاء ١٩٦٧ ، سلاسل ذات حلقات بمثابة حزام على فستان أو بنطال ، وجزومات طويلة تصل إلى الركبتين وقبعات مكسيكية ذات زناقات ^(٢)) وأخيراً تشابه الدرجة للذكور والإناث بالنسبة لـ Evrens بصورة عامة (الفتيات والفتيان يشترون من محال

(١) Adorno, Sexualtabus und Recht المرجع المذكور - ص ١١٣ .

(٢) زناقات (جم زناق) وهو رباط من الجلد تحت الحنك (عن قاموس « المنهل ») .

السلع الرجالية) إن جميع هذه المميزات ليست سوى السطح « الاشتهائي للمائل ، لبنية طفولية . وهي تخفي في الواقع توحيد مستويات التوتر بين الجنسين ، وهذا المفهوم يشير إلى التقهر الجماعي نحو مراحل الطفولية ويقوم بوصفه ، من الزاوية التاريخية ومن وجهة النظر الانتقادية من جانب الأيديولوجيات ، بمثابة تفكك للحياة الجنسية التناسلية البورجوازية وخصائصها للذكور والإناث . ويفسر بيتر فورث عملية توحيد المستويات هذه في مناقشة له مع هربرت ماركوز : لأن هذا التوتر حين يضعف ، يمكنه أن يتخذ أدواراً جديدة ، مطابقة لحالة الضعف هذه ، وحينئذ يمكن أن يحدث بالضبط ، ما سبق لنا ذكره مرة أولى ، أي قمع يمارس بصورة غير مباشرة ، وقد كف عن أن يمارس بواسطة التحريمات التي تستثير التناقض . وهذا القمع غير المباشر لم يعد يدرك حسياً وبصورة واعية ، بل هو مقبول من الجميع ، دون معرفة من الشخص إذا صح التعبير ، ودون أن يتمكن من الكفاح ضده ، إذن على هذا النحو ، فإن القمع يكون أكثر خفاء واستتاراً ، وبالتالي أكثر فعالية - ولهذا له كل المصلحة ، رغم ارتكازه على تناقضات ، في أن يفعل كل ما في استطاعته لأجل تحقيق تلطيف ظاهري لما تستثيره هذه التناقضات من توتر (١) .

هذا النموذج لحالة خالية من التوتر في الارتياح العابر الذي يشعر به الطفل (بعد الرضاعة) ، ويمكن أن يطابق هذه المقولة التاريخية ، التي تُظهر زوالاً للتوتر بين الجنسين ، وهي تشابه تقريباً المفهوم القائل بأن « كلا من الجنسين يفقد نوعيته » . هذه الطفولية هي التي يقصدها أدورنو ، حين يقول إن المثل الأعلى الجنسي الشهواني يغدو طفولياً . هنا أيضاً يمكن القول إنه يجري ، بعد

Peter Furth et Herbert Marcuse « Emanzipation der (١)
 Frau in der repressiven Gesellschaft » in Das Argument ,
 No 23, 1962 , p 10 .

فوات الأوان ، فرض دور جنسي واجتماعي وتنازل عضوي على أشخاص ذكور وإناث ما يزالون في مرحلة الطفولة ، ، ذلك لأنهم غير متميزين نفسياً ، وذلك لكي ينفذوا من المستطاع ، بواسطة هذا التمييز والتصنيف الاصطناعيين ، الحفاظ على مواقع السيطرة التقليدية (تفوق الرجل) هذه المواقع المتخاطة اقتصادياً وكذلك حالات التحريم الجنسية ، المطابقة لها (منع اشتها المائل) .

وفي الوقت نفسه فإن الالغاء التدريجي للفوارق الاجتماعية ، الظاهرة في الأدوار الجنسية ، يعلن عملية تفرد *individualisation* أصبحت أخيراً ممكنة ، بالنسبة للذوق ، والصفات النوعية لشخص ما ، وازدهار الشخصية ، وهي آفاق طوباوية بعض الشيء . وفي رأي بيتر بروكز ، أن أحد أكثر مظاهر كومونة برلين رقم واحد تقدمية كانت أنها أمنت القدرة على الإدراك الحسي ، بصورة واعية لأدنى الفوارق (الإدراكية) (١) . إن الأنا المتطورة تظهر بوضوح تام درجة تمايزه في تمييز أدق فوارق الإدراك الحسي . لقد أعطي التوتر بين الجنسين طابعاً مفرطاً على الصعيد الاجتماعي ، وجرى الابقاء عليه بعمليات قسر مفرطة هي أيضاً ، في جميع الحضارات المعروفة حتى الآن . فإذا ما بلغ تطور الأنا درجة عالية جداً مطابقة لدرجة حضارة ليست أقل ارتفاعاً ، ولا يمكن تسميتها سوى حضارة اشتراكية ، فإن التوتر بين الجنسين لن يفقد قدرته ، حتى ولو كف عن أن يتميز بعلائم مميزة خارجية - تحريم اشتها المائل ، وتمييز الثياب تبعاً للجنس ، وتسريحات الشعر ، والايماثيات *les mimiques* ، والحركات ، والسلوك الاجتماعي في مجمله - سيمنح طابعاً متفرداً ، بمقدار ضخم ، للعلاقات بين الجنسين ، وسيؤنسن علاقاتها أخيراً .

(١) بيتر بروكز - المرجع المذكور - ص ١١٤ .

ما المقصود بـ « إعادة الاعتبار

إلى التسامي » Sublimation

إن مفهوم الدفاع تابع ، في وقت مما ، إلى ميدان المعارك السياسية ، وإلى ميدان المعارك النفسية « وحينئذ يجري تقييم عنصر التحرر بصور مختلفة . فهو ، بصفته مفهوماً سياسياً ، يُعرّف أشكال كفاح الطبقة المُسَيَّطَر عليها ، ضد الـ « اغتصابات » التي ارتكبتها وترتكبها ضدها الطبقة المسيطرة ، ويكون ذلك في الحالات حيث تتصف المنازعات الطبقيّة بواقع أن الطبقة المقهورة تكون معتادة قليلاً جداً على إظهار مصالحها المادية ، إلى حد أن هذه الطبقة لا تدافع بالضبط عن نفسها إلا ضد الانتهاكات الخطيرة إلى أقصى حد لمصلحتها من قبل الطبقة المسيطرة ، وذلك دون أن تناضل الطبقة المقهورة بوعي ودون هوادة دون مجمل النظام القائم في أساس هذه « الانتهاكات والاعتصابات » . إن ما يميز النضالات الدفاعية في المصانع - الاضرابات الضارية ، والاحتجاجات ضد إقفال الآبار ، وإضرابات الإنذار ، الخ . - هو النضال من أجل الحفاظ على مستوى الأجر أو الحفاظ على عدد الاستخدامات والفوائد الاجتماعية . هذه

النضالات الدفاعية ليست مجردة ، منذ البدء ، من أهمية سياسية ، ولا أنها لا توطن النظام . فإذا كان عمال صناعة المطاط في منطقة هيس ، يؤكدون لدى الموجة الأخيرة من إضرابات شتاء ١٩٦٧ ، يؤكدون دون انقطاع على الطابع اللاسياسي لإضرابهم ، « هذا الإضراب لا علاقة له بالسياسة ، فينبغي أن نرى جيداً أن هذه العبارة ، التي تكشف عن نقص وعيهم السياسي والاقتصادي ، تحتوي في الوقت نفسه على بذرة جنينية حاسمة من الوعي الطبقي ؛ ينبغي أن نفهم في النهاية هذه العبارة بصفتهما رد فعل دفاعي إزاء إدارات المؤسسات والصحافة العاملة في خدمتها ، التي كانت تتحدث عن « تحريك شيوعي مضلل ، لهذه الإضرابات ؛ وبرفضهم هذا التأكيد ، كان الشغيلة يريدون التعبير عن أنهم هم أنفسهم يقومون بالإضراب »^(١) . إن أمثال هذه النضالات الدفاعية ، في المصانع ، هي وحدها ، كما يظهر ، القادرة حالياً على استيلاد بذور جنينية لوعي طبقي وتطوير أشكال صراع طبقي ؛ وتبعاً للمفهوم التقليدي لصراع الطبقات ، فإن هذه النضالات النقابية (الترادنيونية) تكون دائماً ممهدة للصراع الطبقي . ولكن ينبغي أن لا ننشأ لدينا أو هام حول النجاحات غير المؤكدة لهذه النضالات الدفاعية ، وتناقضات تلك النجاحات . إن تجذّر عمليات المطالبة والنضالات في الروهر ، الناتج عن إفعال الآبار ، يبدو أنه يوجه الجو السياسي ، بادىء بدء ، نحو اليمين أكثر من توجيهه له نحو اليسار^(٢) . ففي بعض النضالات الدفاعية ، كثيراً ما لا يجرى الدفاع سوى عن امتيازات النخبة العمالية ، أو عن فئة معينة متميزة من الشغيلة ، ولا يجرى النضال لأجل تحسين الوضع الاجتماعي

(١) انظر ، Express International العدد ٥٣ - كانون الثاني ١٩٦٨ :
« Streik und Bewusstseinsbildung »

(٢) طر كل حال هذا ما يبرز من مختلف أبناء الوكالات والصحف خلال شتاء

لهمل الطبقة (١) - وحتى هذا سيكون تحديداً نقابياً بصورة ضيقة ، وليس اشتراكياً على الاطلاق .

إن النشاطات الدفاعية أو الهجومية ، المنعزلة والمحدودة بانعزالها ، والخاصة بالمصانع وبالميادين الصناعية speci بمعنى الكلمة الدقيق ، تلك النضالات المتعلقة بسياسة الأجور والسياسة الاجتماعية ، هي عنصر ضروري لكل سياسة للصراع الطبقي ؛ وفيها تجد تعبيرها الحسي المنازعات الطبقيية . لكن أشكال الدفاع هذه لا تكون إيجابية في مجملها إلا إذا كانت ممثلة بصورة دائمة في حركة سياسية ، وموسطة على مستوى الوعي في هذه الحركة - سواء أ كانت هذه الحركة حزبياً أم تنظيمياً أكثر مرونة ؛ بهذا الشرط وحده تستطيع أشكال الدفاع أن تصبح حقاً العنصر الوسيط الذي يمنح في الوقت نفسه للطابع الدفاعي لهذه النضالات طابعاً تحرورياً . ويطابق هذه الوساطة السياسية وساطة نفسانية يمكن وصف خصائصها بمفهوم تحليلي نفسي يطور البعد البسيكولوجي للأحداث السياسية . فالفاشية لم تقم فقط بتصفية جسدية للقادة الواعين للجماهير الكادحة ، وهي لم تحرم فقط هذه الجماهير من منظماتها ، بل لقد جردتها كذلك من مثال الأنا الجماعي الذي كانت تملكه في الفترة الماقبل الفاشية . إن وعي الحركة العمالية والمساندة التي كانت تلاقه لدى الجماهير ، التي لم تكن مندرجة بصورة نشيطة ودائمة في منظماتها ، ليسا سوى التعبير « الواعي » عن هذا المثل الأعلى للأنا . والمثل الأعلى للأنا هذا قد أتاح لتلك الجماهير أن تقوم برد فعل إزاء التناقض القائم بين اضطرارها هي ذاتها ، من جهة ، والهزائم التي كانت تعاني تجربتها

(١) ذلك ما حدث مثلاً لدى الإضراب الضاري ، في مؤسسات شركة فاير ، شلايشر . وأوفنباخ ، في تشرين الثاني ١٩٦٦ ، وهو واقع ذكره اليسار الاشتراكي بثابة مثال . انظر :

Heinz Jung, « Analyse des abwehrkramphes inter Betriebsbeløgshaft » in Marxititsche blätter , ne. 1' Janv. - Fev. 1967. pp. 57 ss.

بصورة ملموسة ، بلا انقطاع ، ومن جهة أخرى مطالب النظرية الماركسية ، وعودها السياسية ، أن تقوم برد فعل إزاء ذلك كـه بموقف تحد ، بالقوة ، وبالتضامن ، وليس بالرضوخ . إن الوعي الذي تستلزمه هذه الفكرة ، لسوف تنتصر مؤكداً في النهاية ، يعبر جمعياً عن هذا المثل الأعلى للأنا ، وكان يضمن كذلك للحركة العمالية دعماً وجدانياً إزاء جميع انتصارات الرأسمالية « العابرة » و « المؤقتة » . إن إضفاء الطابع المثالي على الفئة التي ينتسب إليها المرء ، وعلى مفهومه للحياة ، كان يخدم بمثابة وقاية من الموقف الازدرائي من جانب الطبقة المسيطرة التي كانت تهر دائماً الاستئثار الاقتصادي والاستئثار السياسي بنسبتها العجز شبه البيولوجي إلى الطبقة العاملة عن المشاركة في الحضارة وكذلك بإنكارها عليها كل نزعة إنسانية .

إن عمليات إضفاء الطابع المثالي على الحركة العمالية الاشتراكية قد جرى تدميرها تدريجياً في السنوات التي سبقت قيام الفاشية . و عملية التدمير هذه تتجسد في وضع البروليتاريا وتربيتها العائليين ، وفي مختلف التكتيكات الانشاقية للمنظمات العمالية وحتى في العبارات المتزايدة الجذرية للافتات والمناشير . لكن المثل الأعلى للحركة العمالية هو أيضاً الذي يتجسد في جميع مناشير ذلك العهد ولافتاته ومواكبه وتظاهراته ؛ وهذا المثل الأعلى لم يستطع أن يتكون إلا خلال التقدم الظافر ، الموضوعي ، والسهل الملاحظة ، ذلك الذي حققته الحركة العمالية ما بين عامي ١٨٨٠ - ١٩٣٠ . إن مثل الأعلى الأنا هذا كان أضعف كثيراً من أن يستطيع الدفاع عن نفسه ضد الفاشية . ولكن اذا ما فكر في الوسائل النفسانية والاقتصادية التي استطاعت الفاشية الاستناد إليها ، والتي لم تكن في متناول الحركة العمالية الاشتراكية لأسباب بنوية ، نجد أنفسنا مضطرين للقول : ان مثل الأعلى الأنا لدى الحركة العمالية كان قوياً بمقدار كاف من القوة بحيث استطاع أن يدافع عن نفسه كل هذا الزمن الطويل ضد الفاشية . ان « المثل الأعلى للأنا لا يمكن اعتباره مماثلاً تماماً للأنا - المثالي le sur moi .

بل إن الأول في الأصح هو وظيفة للأنا المثالي ، الذي لا يمكنه التطور إلا على أساس أنا نسي مستقل ذاتياً ، وليس ممزقاً بين الانفعال اللاواعي والأنا-المثالي . وقد كتب فرويد يقول بصدد الأنا- المثالي : « إنه كذلك حامل المثال الأعلى للأنا ؛ الأنا يقاس به ، ويطمح الى بلوغه ، ويجهد لتلبية متطلباته من التحسين الدائم . ولا شك مطلقاً في أن هذا المثل الأعلى للأنا هو الشكل الجديد الذي تتخذه التصورات القديمة التي كانت لدى الولد عن أبويه ، وإعجابه بهذا الاكتمال الذي كان الولد يعزوه لها حينئذ ، ^(١) . إن هذا الإعجاب لا اكتمال الأبوين هو في الطفولة المبكرة سلوك مطابق وعقلاني : وهو يعطي حوافز دائمة الأمد لطموح الطفل إلى الاستقلال الذاتي ، هذا الطموح الذي يبعث على هذا النحو ترجيبته المرحوحة بقوة أبويه ، ويتوصل بذلك إلى تصعيد نزعاته النرجسية هو ذاته . وإن لم ينقل هذا الإعجاب الطفولي بالأبوين بكل بساطة إثر ذلك ليرتكز على مواضيع إعجاب أخرى ، بل بالعكس ، جرى هذا النقل في اتجاه أمثلات جديدة نوعياً ومطابقة للشخص الراشد ، فإن الأنا- المثالي الذي يعبر عن هذه الأمثلات يكون ذا وظيفة إيجابية بالنسبة لاتجاه الفرد ، الشخصي والاجتماعي ؛ وتسمى هذه الوظيفة : المثل الأعلى للانا . إن الجهاز الحزبي ، المستبطن في الأنا- المثالي المتصلب للموظف الشيوعي والاشتراكي الديمقراطي ، يعبر بصورة طبيعية عن واقع أن الإعجاب القديم بالأبوين قد جرى فقط تمييزه لقاء إعجاب على نفس الدرجة من التعلق إزاء سلطة الحزب ، دون أن يتم مع ذلك تخطي عناصر عدم الاكتمال للإعجاب القائم على التعلق والتبعية . والأصح الحديث هنا عن إنجاز تحكيمي للعبارة ، الذي لا يحتاج اليه الأنا- المثالي لوظيفة المثل الأعلى للأنا ، وعلى كل حال فإن تطلب الأنا للاكتمال المتواصل لا يتصف به هذا

Freud, Die Zerebeugung der psychischen (١)
 Persönlichkeit , tome XV. p. 71 .

السلوك. ففي الأمثلات الجماعية للحركة العمالية يجري التشديد على هذا المطلب: وفي تضامنه ، الذي ينبغي أن يتيح التغلب على تبعية السلطات؛ وفي انضباطه ، المفروض بصورة جماعية على الأنا ، الذي ، وهو منزول ، يظل ضعيفاً ؛ وفي وعيه للانتصار ، وهو تعبير جماعي عن الطموح الى الكمال . وبدهي أن هذا المطلب المشدد لم يتم إنجازه إلا بصورة غير كاملة ؛ ولو كان الأمر بخلاف ذلك ، لما كان باستطاعة تصفية منظمات الحركة العمالية أن تستلعب تدميراً ساحقاً لاحقاً وعلى الأخص سريعاً جداً للمثل الأعلى للأنا لدى المنتسبين إليها . وبعد الفاشية ، لم يبق من الممكن حتى إعادة إيجاد العناصر الأولية لتكون هذا المثل الأعلى للأنا . هذه الواقعة التاريخية تكشف بصورة حادة التداخل بين التنظيم الجسدي وإسهاماته الفيزيولوجية الحسية وبين الأمثلة idealisation (الوعي الطبقي) ، وهي ظاهرة حتمية بالنسبة لعصرنا .

إن المثل الأعلى للأنا هو ، بمعنى ما ، أقرب الى الأنا من الأنا المثالي . وحين يكون موجوداً ، فهو يظهر حينئذ أن الأنا المثالي يولد فعلاً ، في الحالة المثالية ، من الأنا ، وليس منضداً فوقه تنضيداً وحسب - نحو ما يبدو الأمر أكثر فأكثر في التكوينات الحالية للأنا المثالي . وحينئذ فإن المثل الأعلى للأنا هو الذي يصوغ بصورة مباشرة الوظائف التي ينبغي أن يمارسها الأنا : انتصارات الوعي ، والرقابة على الواقع ، وضبط الرغبات الجنسية ، وتوزيعها الخ . بهذا المقياس تتوقف مباشرة قوة الأنا على نوعية المثل الأعلى للأنا ، بخلاف نوعية الأنا المثالي .

لقد أثبت إريخ فروم في كتابه Autorität und familie أن تكون الأنا ، في عملية تطور السيطرة ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً ، بالوضع الاجتماعي للشخص المعني ، « إن الطبقة التي لديها ، من حيث دورها ذاته كدورة حاكمة ، الرؤية الأكثر شمولاً للأشياء ، تكون كذلك في ذروة سيطرتها ، والأكثر تقدماً

في تطور الأنا لديها « son moi » . لكن إريخ فروم استخلص من هذا المعطى المضبوط والمدعوم بصورة صحيحة بالتجربة، فرضية سوسولوجية حول التحول الاجتماعي الذي لم يتأكد حتى الآن إلا في شطره الأول - السليبي - والذي ينكشف شطره الثاني - الأيحابي - اليوم ، بوضوح متزايد أكثر فأكثر أنه خاطئ . كلما ازدادت التناقضات الاجتماعية تعمقاً ، كان النظام السائد أقل مستوى من مهمته بمعنى عقلائي وتقديمي ، وسيستتبع دور الحكام الاجتماعي بمقدار أقل ، توطن « أناهم » (الأنا لديهم) غدت عملية نمو الأنا ستجري في جماعات اجتماعية أخرى . إن هذه الجماعة الاجتماعية كانت ما تزال ، في رأي فروم أيضاً عام ١٩٣٦ هي البروليتاريا ، التي ستتولى الحكم كطبقة وستتلقى من سالفها ، الطبقة البورجوازية ، أئمن عناصر تطور الأنا لدى هذه الطبقة ؛ وطبقة البروليتاريا سوف تستعيد هذه العناصر ، كما تموضعت في الحضارة ، بتشجيعها بذلك نفسه تميمتها الجماعية الخاصة للأنا . هذا النموذج هو نقل جد تبسيطي لمجرى التطور البورجوازي الى مجمل الوقائع النفسية والنفسية الاجتماعية التي ترافق الثورة الاشتراكية الجاري العمل لتحقيقها . وسأعمد الى نقد هذا النموذج لـ « نقل صفات الأنا ، المكتسبة بواسطة المجتمع ، الى الطبقة الثورية » ، وذلك بتلخيص النزعات الى الدوبان الجماعي لصفات الأنا ، وهي النزعات المعالجة في الفصول السابقة انطلاقاً من وجهات نظر خاصة . وفي الرأسمالية المتأخرة زمنياً، يحل هذا الأنا محل أنماط استقرار السيطرة الاجتماعية - الاقتصادية ، والسيطر عليهم ، والمسيطرين ، بظهورهم ، لا يبقى أمامهم منذ ذلك الحين أن يمتلكوا قوة الأنا إلا بمقدار صغير ، وذلك مع عدم تعرض نظام السيطرة هذا لأي خطر كان .

وللتعبير عن ذلك بصورة إيجابية ، ينبغي القول إن الطبقة المسيطرة تفقد ولا شك لدى سيطرتها بعضاً من قدرات الأنا لديها ، التي سبق أن طورتها

البرجوازية الصاعدة - ولكن في الوقت نفسه ، وجزئياً لهذا السبب^(١) - تكون ما تزال على مقدار كاف من القوة بحيث أن النتائج الموضوعية لانتصارات الأنا هذه القديمة لا تنتقل الى الطبقة المقهورة (المسيطر عليها dominé) ؛ بل ان هذا ضروري لا غنى عنه لكي تستطيع الطبقة الحاكمة الحفاظ على سيطرتها. هناك نتيجة ، ذات دلالة كبيرة جداً من وجهة النظر الاقتصادية والسوسولوجية ، لهذه الطريقة المستخدمة للحفاظ على السيطرة ، وتقوم في أن جزءاً كبيراً من الموارد الثقافية المحتملة pote ، والتي امتلكها المجتمع في الماضي ، يجري خنقها ، ويكف تطويرها أو على الأقل تكف عن أن تكون مجدية على الصعيد الاجتماعي. من بين هذه الموارد المحتملة ينبغي أن نذكر مؤهلات (الأنا) الخلاقة . أي أن العديد من طرائق المتعة واشباع الرغبات المتجسدة منذ زمن طويل في الواقع ، والمستحدثات الاجتماعية ، وعقلنة عمليات العمل وبصورة خاصة في الفئات الدنيا اقتصادياً ، يجري قمعها في الوقائع . وهذا الثمن ينبغي دفعه ، مهما كلف الأمر ، لأن اتساعاً لهذه المؤهلات ، بل وربما مجرد واقع التخلي عن تشويها الدائم ، من شأنه أن يشكل خطراً جدياً بالنسبة لنمط تجديد الانتاج القائم في النظام الاجتماعي - الاقتصادي الرأسمالي. لهذا السبب يرفض كلوس أوف ، لدى تحليله ، هذا الوضع على الصعيد السوسولوجي ، الاعتراف لأنظمة اليوم الاجتماعية الرأسمالية ، حتى صفة « مجتمع المردود ! » لأن هذا التعريف محايد جداً بحيث لا ينطبق على مجتمعات يجري فيها بصورة جماعية قمع النمو الفردي للمؤهلات والقدرات على زيادة المردود ، (الخلاق) .

إن انتصارات الأنا ، المطلوبة اجتماعياً بالنسبة للفئة الوسطى العليا ، في هذه

(١) دون فقدان الجماهي لمؤهلات كالشرف . والإنسانية ، والتسامح البرجوازي ، والحساسية ، ما كان باستطاعة الطبقة الحاكمة أن « تضم » البربرية والوحشية الجماعيتين على نحو ما تحدثان مثلاً في حرب فيتنام .

المجتمعات ، تستخدم بمثابة معايير بالنسبة لجميع الفئات الاجتماعية ، كما أن سلوكه الجنسي - أي الأناء - يرفع إلى درجة معيار القاعدة القضائية للحق الجزائي ، وقبل كل شيء إلى ممارسة السلطات القضائية الجزائية . إن واقع إقامة معايير لصفات محدودة الأنا ، وهو واقع قمعي ، في حد ذاته ، يمكن إثباته وذلك بطرائق صياغة حاصل ذكائي موحد (ح ذ) لأجل قياس قدرة مردود جميع الفئات الاجتماعية ؛ إن حواصل الذكاء تستند ، فقط تقريباً ، إلى التحليل الذي يجري ابتداء من الفئات الاجتماعية الوسطى . إن الانتصارات « النافعة اجتماعياً » هي وحدها التي يجري قياسها في هذا النظام ، وبخاصة المزايا المطلوبة لمن الفئات الوسطى ، وقد أثبت تجريبياً أن « حواصل الذكاء ، تنبذ ، نوعاً ما ، المؤهلات الخلافة ، ولا تتنازل للنظر إلا إلى قدرات الشخص المهددة للإنتاج ^(١) . والحال ، وبسبب هذه الحدود الصحيحة أيضاً بصورة مزدوجة بالنسبة لأفراد الفئات الدنيا ، فإنهم الأقل قدرة على تقديم علائم المردود التي يمكن اعتبارها اجتماعياً . ووضعهم الاقتصادي المتدني تزيد حينئذ من تدنيه عمليات تطور اجتماعية تقوم على أساس الانتقاء . والفئة الوسطى تشترك فعلاً في ممارسة السيطرة الاجتماعية وذلك بمقدار ما ترتفع الصفات الاجتماعية والنفسية لمردود تلك الطبقة ، إلى مستوى معايير ، بالنسبة لمجمل المجتمع . وهذا الواقع سجل كذلك على كل حال ، بصورة غامضة ، من قبل الفئات الدنيا ، وذلك في اعترافها الراضخ بنقصها . ويبدو أننا حينئذ بإزاء سلوك يشبه ولو على نحو ما زال بعيداً الاتجاه بالنسبة لمثل أعلى للأنا ، وذلك بصورة جوهرية حيث يفسر أفراد الفئة الدنيا تظاهرات المعارضة السياسية من

(١) برهن أرفومات على ذلك . المرجع المذكور : وقد قدم أرفومان عرضاً لدراسة أثبت فيها أن « القدرة على الإبداع » وحاصل الذكاء الذي جرى تحليله ، ليس بينهما سوى ترابط بسيط جداً » (ص ١٧٩) .

قبل الفئة الوسطى بمثابة تظاهرات أبناء بورجوازيين (طلبة ، مثقفين ، طفيليين) وترفض هذه التظاهرات بصفتها كذلك . لكن تعلقاً عنيداً بمعايير الطبقة الوسطى بشكل ، بالضبط ، نواة هذا الدفاع ، وأحرى بنا أن نتحدث حينئذ عن اتجاه متصلب بالنسبة للأنثى - المثالي للطبقة الوسطى ، من أن نتحدث عن مثل أعلى لأننا جماعي خاص بالفئة الدنيا ^(١) إن التشابه بين تقنيات الدفاع المستخدمة حينئذ ، وآليات الدفاع الجماعية والذهانية (عمليات التقمقر والانطلاق الاستهيامية Fantosmotiques) يميز التعبير النفساني عن التكون الراهن لوعي خاطيء . إذ أن هذا الدفاع يضع نفسه سياسياً في الجانب السيء أي إلى جانب صفات الآنا ، أمثال المردود المتصلب ، والقسر ، والطاعة ، التي تشكل معايير قمعية كذلك بالنسبة للفئة الوسطى . ومن وجهة النظر هذه ، فإن الفئة

(١) مؤكداً تماماً أن هذا الاتجاه المتصلب من جانب الطبقة الدنيا بالنسبة لمعايير الطبقة الوسطى ليس قائماً في جميع بلدان الرأسمالية المتأخرة زمنياً ، وليست له قيمة مطلقة في أي من هذه البلدان ، وحتى في الولايات المتحدة ، حيث نجد هذه الظاهرة ، ولا شك ، الأكثر تطوراً ، توجد أمثلة مماكسة ينبغي تفسيرها ، بالأحرى ، بمثابة بقايا أكثر منها بمثابة بدايات وهي طبقي وهكذا يدرس بيتر ماريس العوامل الاجتماعية لشروط السكني .

(Report on Urban Renevral in the United States in L. I Duhl Céd) . the urban Condition p 37)

وفي حي سكني ، متلاحم اجتماعياً تلاحماً جيداً ، مخصص للطبقة الدنيا والذي أعلنه « slum ومدكوكسا من أساساته » لو كان الأمر هكذا كلياً ، إذن لكانت الثقافة التحتية « الباطنية » باهتة على نحو ما تظهر لكثير من المراقبين التقليديين ، منفرة ، ضائعة ، امثالية ، عديمة التسامح ، خالفة . غير أن الاخلاقية المعاكسة للتيار ، والتي هي اخلاقية تلك الفئات الدنيا هي قادرة في الواقع على الحفاظ على الفضائل التي هي بالذات ، الاصبغ قبولاً للشمسي مع المعايير الاميركية ، هذه الطبقة الدنيا تضع اخلاصها فوق المزاومة ، والعلاقات الشخصية فوق الاهداف غير الشخصية ، والاسراف في الانفاق فوق نزعه التوفير ، ومتعة الحاضر فوق مشاغل المستقبل . . .

الوسطى هي فئة مقهورة شأن حال الفئة الدنيا تماماً ، ذلك لأنه لا يُسمع ، بالنسبة إلى الفئة الوسطى ، هي أيضاً ، ولا يشجع ، ولا يكافأ سوى صفات الأنا المحدودة جداً .

لكن في هذا الصدد ، فإن الفئة الوسطى في أيامنا هذه هي الضحية الكبرى . ولديها ، أقل من الفئة الوسطى ، إمكانية التوصل إلى هوية الأنا ، هي وإن كانت قمعية ، إلا أنها تفرض نفسها رغم ذلك فردياً وهي باستطاعتها وحدها أن تكون قاعدة لمثل أعلى للأنا الجماعي . إن المحاولة الدراسية التي قام بها هايد بيرندت تحت عنوان - psychiatrie - cher Erkrankungee - Zur Soziogenese (المنشأ الاجتماعي للأمراض العائدة للطب النفسي والعقلي) يلقي ضوءاً ساطعاً جداً على هذه العلاقة . إن حالات الانهيار الذهانية (ولا سيما الأمراض الفصامية) في الفئة الدنيا الأميركية ، هي وسطياً أكثر تواتراً منها في الفئات الاجتماعية الأخرى . وتعالج هايد بيرندت ، انطلاقاً من هذا المعطى العام الذي سجله ، المسألة المطروحة ضمنياً في مجموعة المؤلفات الأميركية للطب العقلي والنفسي التجريبي وهي : لماذا يشبه تمييط الأدوار في عائلات الفئات الدنيا شيئاً كبيراً ، آلية دفاع جماعي للعصاب الاستحواذي^(١) ، وهي تتوصل من ذلك ، بالإضافة إلى آخرين ، إلى الاستنتاج بأن أعضاء الفئة الدنيا ، في جهودهم لشق طريقهم اجتماعياً واقتصادياً ، هم مضطرون لتمثل قيم الفئة الوسطى . لكن نظام معايير وتربية الفئة الدنيا ، الذي ينبغي أن تجري عملية التكيف بالاستناد إليه ، يكون تابعاً للأنظمة المطابقة لدى الطبقة الوسطى . وإذا كانت تنتج عن متابعة هذا الهدف عمليات انهيار ذهانية كثيرة ،

Heid Bernat Zur Soziogenese psychiatrischer (١)
Erkrankungen. op. cit. p. 473 .

فذلك لأن أعضاء الطبقة الدنيا ليسوا مكونين كفاية (لم يكسبوا الصفة الاجتماعية الكافية) على أساس معايير الفئة الوسطى ، وعليهم لهذا السبب أن يتكيفوا بصورة قسرية مع معايير لا تطابق شروط معيشتهم ولا يمكن أن تكون بمقدورهم . ، إن الانحرافات الذهانية تظهر أنها فقط مجرد انهيار فردي ناتج عن التضيقات الطبقة ، التي تجري محاولات مشددة للتغلب عليها على المستوى الفردي لا الجماعي ، (١) .

إذا ما ترجمنا تعبير « التضيقات الطبقة » بـ « الحواجز الطبقة » وتعبير « المستوى الجماعي » بـ « الصراع الطبقي » ، وإذا ما طبقنا مجمل ذلك - مع جميع التحفظات الضرورية - على الجمهورية الاتحادية الألمانية ، أو على نزعة ملووسة في جميع بلدان الرأسمالية المتأخرة زمنياً ، ندرك أية حقيقة يطابق مفهوم المثل الأعلى للأنا الجماعي . وهنا سوف يُعترض حينئذ بأن معايير الطبقات الوسطى كانت صالحة وصحيحة حتى بالنسبة للطبقة الدنيا في العهد المقبل الفاشي ، وهي معايير لم يكن في وسع كل فرد من أفراد الطبقة الدنيا إلا أن يتبناها . وهذا شيء صحيح بالضبط . إن ويلهلم رايبخ ، ونظرين آخرين للحركة العمالية ، لم يكفوا عن الشكوى المريرة من أن العائلة العمالية وكذلك العائلة البورجوازية الصغيرة تستطيع أن تلعب دور « مصانع للايديولوجية » . فلماذا اذن انتظرت عمليات الانهيار الذهانية الحادثة في عائلات الطبقة الدنيا قد انتظرت هذا الجليل للظهور بهذه الكثرة من الحالات ؟ وفي مواجهة معايير المثل الأعلى الارغامية ، المطابقة لنظام السيطرة ، لدى الطبقة الوسطى ، استطاعت الحركة العمالية ، جزئياً على الأقل ، أن تنشئ ، مثلاً أعلى مناقضاً تماماً ، يحدد ايجابياً قيماً بروتيتارية . وحتى لو أن هذه القيم لم تكن تدخل إلا بصورة ناقصة جداً في العائلة الترولتيتارية ، إلا أنه كان

(١) المرجع ذاته - ص ٧٣

حقاً أيضاً بنفس المقدار أن شعار « إذا كان ساعدك القوي يريد ، فالآلات ستوقف ، Alle Râdre stehen still, wenn dein starken ، arm is welle » كان صحيحاً بالنسبة لدوسسة . وينبغي التأكيد كثيراً على تأثير استقرار هذا المثل الأعلى بالنسبة لتحقيق الذاتية الاجتماعية والصحة النفسية لأفراد الطبقة الدنيا . وحينئذ لم يكن هذا المثل الأعلى ملصقاً كجسم أجنبي ، ولا يعمل بمثابة أنا مثالي تسلطي بل يعمل في اتجاه مثل أعلى للأنا الجماعي ، فقد أطلق غرائز ورغبات جبارة حقاً من أجل صراع الطبقات . إن منظمات كمنظمة « الإسعاف الأحمر » أو « الإسعاف العمالي العالمي » كانت تستطيع ، كما يبدو تماماً ، أن تضطلع بصورة أفضل بتكوين مثل أعلى للأنا الجماعي في الأعوام الأخيرة السابقة لقيام الفاشية ، لأن تلك المنظمات كانت تطابق بصورة أفضل الحاجات المباشرة للجماهير من أجهزة الحزب والنقابة ، المحمّدة ، والتي كانت تسلطية بسبب بعدها عن الجماهير . وقد أنشئت خصيصاً لذلك الغرض حركات مثل السيكسبول sexpol . لقد قام المثل الأعلى للأنا الجماعي بتحريك آليات فعالة للدفاع ، ينبغي الاعتراف بطابعها الإيجابي في النضال السياسي وفي الكفاح ضد حالات العصاب الجماعي . ولا شك في أنها لم يكن بمقدورها قطع الطريق على الفاشية ، التي يمكن اعتبارها ، بالضبط ، من وجهة النظر هذه بمثابة مرض عصابي جماعي . (حتى ولو كان هذا المنظور لا يكفي لتفسير قيام الفاشية) ؛ إن الفاشية التي فرضت نفسها بمواجهة جميع آليات الدفاع المؤيدة للعقلانية والتي أظهرت بدلاً عنها آليات دفاع مُمرضة (مولدة للمرض pathogènes) هي كليا في خدمة أنا - مثالي جماعي مستقل عن الأنا .

طبعاً إن الطبقة العاملة في فترة ما قبل الفاشية كانت طبقة متدنية المستوى إلى درجة أنها لم يكن في استطاعتها التوصل إلى صياغة مثلها العليا الخاصة دون القيام على نطاق واسع بعملية حـد اصطناعية للأنا ، وهي لم تكن في الواقع محرومة فقط من الناحية الاقتصادية تماماً شأن البورجوازية الصغيرة ، بل ،

وبصورة أكثر وضوحاً ، كانت محرومة من الناحية الاجتماعية .

إن فرداً من أفراد الفئة الدنيا كان يمكن التعرف إليه من أول وهلة بصفته كذلك ، أي بصفته بروليتيارياً . وهذا الوضع يتيح لنا أن نفهم كذلك عملية التحديد الايديولوجية التي قامت بها الحركة العمالية بالنسبة للبورجوازية الصغيرة . وكان ذلك شرطاً لا غنى عنه ، لدى تكوين مثل أعلى للأنما الجماعي في ظروف اجتماعية سيئة إلى أقصى حد ، اجتماعياً . وذلك رغم جميع النواقص والعيوب اللاحقة .

إن الظروف قد تدهورت وسامت أثناء عهد الفاشية ومنذ ذلك الحين ، إلى حد لم يعد يمكن حق مجرد الحديث عن بذور جنينية لتكون مثل أعلى للأنما الجماعي في الطبقة المقهورة في الجمهورية الاتحادية الألمانية . ولم يعد ممكناً مطلقاً أن نحدد الآن ، في يقين وتأكيد ، أن متقني المعارضة بتآزرهم مع الشيبة سيتمكنون من صياغة مثل عليا خاصة بهم تتغلب على التراتب الاجتماعي وبذلك نفسه سيتمكنون من صياغة حضارة مضادة *une contre revolution* . وعلى كل حال ، فإن الخطوات الأولى لهذه الصياغة قد حققت اليوم مع اتساع حركة الرفض .

لم يتم سوى مؤخراً جداً القبول بصورة منهجية بمفهوم الدفاع في نظرية التحليل النفسي . ويعود ذلك أساساً إلى أن دور الأنما ونشاطه المتنوع جداً للدفاع ضد الأمراض العصبية وعلى الأخص الذهان لم يعترف بها إلا في وقت متأخر جداً . وهذا المكسب الجديد يعود الفصل فيه ، على الأخص إلى أنما فرويد *Anna Freud* . فهي قد وسعت لتحقيق ذلك فكرة أولية لفرويد تركها في حالة تصميم أولي . تقول أنما فرويد :

« إن فرويد يعود إلى مفهوم القديم حول الدفاع ، وذلك فقط في تذييله لكتابه « الكبت » الأعراض والقلق » (١٩٢٦) والذي أعلن إدراكه للأهمية

الكامنة في إعادة مفهوم الدفاع إلى قيد الاستعمال ، مع تحديد فرويد بدقة «أنه لا يحسن استعماله إلا لتعيين ، بصورة عامة ، لجميع الطرائق التي يستخدمها الأنا في المنازعات التي من شأنها أن تؤدي إلى داء العُصاب ، في حين أن كلمة كبت تدل ، من جهتها ، على نمط محدد تماماً للدفاع أتاحت لنا أبحاثنا معرفته بصورة أفضل ، وهكذا نجد تدقيقاً لمعنى « كبت » ، هذه الظاهرة التي تفصل إلى جانبها تفاعلات نفسية أخرى ، هادفة إلى نفس الغرض : « حماية الأنا من متطلبات الفرائز والرغبات الجنسية » [...] . ولولم تكن متطلبات الأنا أو متطلبات القوى الخارجية المثلة بالأنا ، تمارس ضغطاً ، إذن لما عرفت الفريزة والرغبة الجنسية سوى مصير واحد ، وهو الإشباع والتلبية وتحقيق المتعة . ويمكن أن نضيف إلى طرائق الدفاع هذه التسعة المعروفة جيداً في الممارسة التطبيقية وفي نظرية التحليل النفسي والتي جرى وصفها بتوسيع كبير وهي : (الكبت ، والانكفاء ، والتكوين القائم على رد الفعل ، والعزل ، والإلغاء الارتدادي ، والإسقاط النفسي والتحويري ، والاندماجية *introjectiôn* والانكفاء ضد الذات ، والتحويل إلى العكس) يمكن أن نضيف طريقة عاشرة أخرى بنا القول أنها تعود إلى ميدان الحالة الطبيعية منها إلى داء العصاب ، وهذه الطريقة هي التسامي *la sublimation* أو نقل موضع الغرض الفريزي .

« وهكذا ، تبعاً لمعارفنا الراهنة ، نستطيع التأكيد أن الأنا في نضاله ضد ممثلي الفريزة والرغبة الجنسية وضد المؤثرات الأولية ، يملك عشر طرائق مختلفة . وإلى النشاط العملي يعود أمر ملاحظة إمكانية نتائج هذه الطرائق في كل حالة بذاتها ، في سياق عمليات تطور المقاومة من جانب الأنا ، ونشوء الأغراض (١) » .

ويمكن أن يضاف إلى ما سبق : إنه يعود إلى التحليل السيامي والسوسيلوجي

(١) آنا فرويد - الأنا وآليات الدفاع - المرجع المذكور - ص ٤١ وما يليها .

مراقبة وتسجيل ماهية تفاعلات أنا التي لم يبق باستطاعتها التكون حالياً، والتي تدنت أو 'شوّهت'؛ وأية منها تقوم حالياً بالدور الأساسي وما هي الأعراض أو الأمراض التي تظهر حينئذ جماعياً .

إن أنا شخص ما ، يولد تاريخياً ابتداء من « عملية الحد بالنسبة للانفعال اللاواعي » ، إنه يفصل عن « الانفعال اللاواعي » . وعملية نشوء الأنا ابتداء من الانفعال اللاواعي تحدد كذلك وظيفة أساسية يحتفظ بها الأنا البالغ الراشد طوال حياته . وقد كتبت أنا فرويد تقول : « إن الأنا مهدد بأن تفرقه الفرائز والرغبات الجنسية ، وما يخشاه ، فوق كل شيء ، هو كمية هذه الفرائز والرغبات الجنسية [...] . إن التدابير الدفاعية التي يعلها على الأنا الخوف من قدرة الفرائز والرغبات الجنسية ، تهدف الى إبقاء هذا الانشقاق بين الأنا والانفعال اللاواعي ، وضمان التنظيم الجديد للأنا^(١) . ويمكن أن نحدد على النحو الأفضل ما إذا كانت هذه المهمة قد حققت ، وبأية كيفية ، وذلك بصورة تجريبية وانطلاقاً من منازعات أمثال حالات الانحراف والحالات الذمّانية حيث يتعرض الأنا « لأن تفرقه الفرائز والرغبات الجنسية » . وواقع أن الأنا تفرقه الإستشارات يميز أيضاً هذه المنازعات . والأشخاص الذين تسيطر عليهم هذه المنازعات لا يملكون تقنية مطابقة للرقابة الداخلية على الفرائز والرغبات الجنسية ، ولذلك فهم مضطرون لرد الفعل على المناطق الخاضعة للمراقبة وعلى حالات القسر التي يفرضها عليهم ، فجأة ، العالم الخارجي أو الأنا - المثالي ، غير الموجود إلا جزئياً ، وذلك بواسطة تقنيات للدفاع غير ملائمة - تقود ، عند اللزوم ، الى داء الذهان والى الانحراف - ؛ وإذن ، الى القيام برد فعل على ذلك بتقهقر تام ، وبالفرار من الواقع المرتبط به ، أو بتفسخ الأنا . إذن هؤلاء الأشخاص يضطرون إلى الانحصر في آليات دفاعية لا يمكن تحديدها

(١) أنا فرويد - المرجع المذكور - ص ١٥٣ - ١٥٤

بدقة ، كما هي الحال بالنسبة لآليات الأنا ، وذلك بسبب بسيط وهو أنها لا تحمي الأنا ، بل تدمره وتشقه .

ولدى التفكير والمحاكمة على هذا النحو ينبغي أن يؤخذ في الحسبان واقع أن « تدفق الرغبات الجنسية » ، ليس خطراً دائماً منبثقاً من الانفعال اللاواعي ، ويستطيع الشخص السليم أن يكافح ضده بصورة أفضل مما يفعل الشخص المريض . إن شطراً كبيراً مما يعاش ذاتياً بصفته خطراً ، إنما ينبثق من العناصر الممثلة للأغراض ، أي من معطيات الوسط الاجتماعي - الثقافي المحيط : وفي الحالة المذكورة ، ينبثق الخطر الموصوف بالشكل السابق ، من ممثلي تلك الأغراض ، المستبطنة في الأنا - المثالي . فتدفع الرغبات الجنسية هو إذن أيضاً خطر على الأنا - المثالي ، الذي يُفسر نزعة الانفعال اللاواعي هذه بادية بدء بصفتها خطراً ، ويرد عليها بالقلق ، ويهدد إثر ذلك إلى الأنا باستخدام تقنيات الدفاع ضد هذا القلق . وينبغي أن نستخلص ذلك من الاستنتاج التالي : إن الأنا لا يضطلع بمهمة الدفاع إزاء الفرائز والرغبات الجنسية إلا جزئياً ومصالحة الأنا ؛ والقسم الآخر من الدفاع وربما كان هو الأكبر ، إنما يقوم به الأنا لمصلحة الأنا - المثالي . إن آنا فرويد لم تحدد هذه العلاقة بدقة ، في كتاباتها . وأنا فرويد تمتد ، عن حق ، نواحي عجز وتقصير بدايات علم التحليل النفسي ، مبرزة أن عمليات تطور الانفعال اللاواعي وردد فعل الأنا - المثالي هي وحدها التي أخذت بعين الاعتبار في التحليل والنظرية . ومع ذلك ، فإن آنا فرويد توحى لنا بالانطباع بأنها لم تصحح نواحي المعجز والتقصير هذه إلا نصف تصحيح . إنها تؤكد على عمل الأنا في التحليل وفي الحياة اليومية الجارية ، لكن آنا فرويد تهمل أن 'تحدد بدقة علاقة الأنا وأنا - المثالي ، أو أيضاً المثل الأعلى للأنا . بل آنا فرويد تقيم تشابهاً ضمنياً ، أثناء أبحاثها ، بين الأنا - السليم - والانفعال اللاواعي . يمكن أن نعثر من هذا الخطأ ، القائم في رسم الحدود بصورة غير كافية بين الأنا والانفعال اللاواعي ، بشكل آخر ، لدى عدة محللين نفسيين سوسولوجيين النزعات - بعكس آنا فرويد . ويعمل فروم ،

لدى تقديمه براهينه ، كما لو أنه ينبغي القبول بفرضية علاقة تبادل آلي بين الأنا والانفعال اللاواعي . وينطلق فروم من فرضية أن الانفعال اللاواعي والسلطة مرتبطان ضرورة ، وأن الأول يكون عليه أن يحدد اتجاهه باستمرار من قبل سلطات واقعية قوية (١) . ويستخلص من ذلك الاستنتاج أن الانفعال اللاواعي سوف ينزع إلى فقدان أهميته أكثر فأكثر ، وذلك لدى قيام تربية متزايدة العقلانية ، وإشباع متزايد إيجابي للرغبات الجنسية ، وتحقيق عقلانية متزايدة للمجتمع (العالم الخارجي ، بما في ذلك معاييرهِ) . والحال ، فإن هذا ليس ذا قيمة إلا بالنسبة للأشكال القديمة البالية من الانفعال اللاواعي ، العائدة لعالم ما زال بدأباً ، من المشاعر والأفكار . وصحيح ، بالتأكيد ، أن الانفعال اللاواعي هو نفسه ، ووظائفه ، يتزايد طابعها اللاعقلاني ، في حالة وجود مجتمع في وضع لاعقلاني متزايد ، ويتزايد تصلبها أكثر فأكثر ، وأن الأنا يفقد فيها شيئاً من استقلاله الذاتي . لكن استنتاج العكس مستحيل .

وعلى غرار ذلك ، شابه م . د . إيدر ، بصورة صريحة جداً وجازمة ما بين الانفعال اللاواعي ووظيفته الرئيسية الراهنة ، استبطان (التعبير النفسي) عن السلطة اللاعقلانية وتعبئة القلق ضد الانفعال اللاواعي . وفي رأي م . د . إيدر أن ثمة انطباعاً يتمركز وهو أن الشخص لم يكن مرغماً على تحقيق تسوية بين الطبع العصائبي والأعراض العصابية ، لو أمكن ضبط مبادرات الانفعال اللاواعي ، بواسطة شيء ما أقل جموداً ، قادر على تكيف أكبر ، ومع ذلك أقل استيهاماً من الأنا - المثالي ، (٢) .

(١) فروم ، المرجع المذكور . ص ٨٦

(٢) م . د . إيدر « Zur Okonomie und zukunft des uber - Ich » in Internationale zeitschrift psychoanalyse, 15e année, p 192.

وفي مواجهة هذا الأنا - المثالي المتصلب الذي يمنح شرعية لنفسه به مجموعة قوانين خلقية ، أو بتنظيم موروث من ماضٍ بعيد جداً ، يضع إيدر تصميماً لمجتمع عقلائي، يكون فيه الأنا - المثالي ملغى بالأنا الذي كان قد منحه الحياة في الماضي . وهكذا سيصبح في المستطاع « أن نتوقع من زوال رقابة الأنا - المثالي على الانفعال اللاواعي ، واستعادة الأنا هذه الرقابة ، تطوراً أكثر سروراً بالنسبة للفرد ، بل وحتى للجنس البشري كله ، » (١) .

هذا البناء ساحر جداً بالنسبة لكل نظرية تقدمية للمجتمع . ومؤكد أنه يتأكد اليوم بعكسه ، أي بانتهيار وظائف الأنا المستقل ذاتياً في المجتمعات القمعية الراهنة ، وإبدال تلك الوظائف بأنا مثالي خاضع للتحرريك التضليلي المقتل : وكثيراً ما تسمى هذه انزعة « الضعف الجماعي للأنا ، » وهو مفهوم ينبغي له أن يعبر عن واقع أن الأنا يتخلى ، نزوعياً ، عن استقلاله الذاتي بالنسبة للأنا - المثالي ، ويدخل في خدمته دون أن يستطيع مراقبته . وينبغي الاحتراس هنا من بعض الالتباسات التي لا تستند فقط إلى غموض في المصطلحات ، واسطة التعبير . فلا الأنا ، ولا الأنا - المثالي ، بصفتهما مرتبتين أو مرجعين ، لا يمكن اعتبارهما نفس الشيء والوظائف التي يمارسها الأشخاص وهم يضبطون الواقع ، ويمكن القول ، عن الأنا الذي يعاني حالة ضعف أنه لم يبق باستطاعته ضمان وظائف معينة لضبط الواقع ورقابته إلا بصورة محدودة أو مقودة عن بعد ؛ لقد فقد - إذن - مزية الاستقلال الذاتي وصفة الوساطة بين رغبات جنسية غريزية متناقضة وغير متناسقة . والواقع أنه لا يفقد كلياً هذه الصفات بل هو ينمي بدلاً منها وظائف أخرى ، مثلاً تلك التي يمكن وصفها بالنسبة للفرد السليم بأنها عصبية أو ذهانية . لكن الشخص المعني ، ليس مجبراً ، إطلاقاً ، على أن يغدر تحت سيطرتها عصابياً أو ذهانياً بصورة ظاهرة ، بالمعنى

(٢) المرجع ذاته .

الذي يفهمه المجتمع من المرض . وهكذا يمكن أن نقول مثلاً عن أغلبية الأشخاص المزعوم تكيفهم واندماجهم في المجتمعات الراهنة ، بأنهم يملكون بصورة نموذجية تقنيات دفاعية (وظائف الأنا) التي ينبغي بالأحرى انتقاؤها حسب رأي آنا فرويد لدى دراسة العصاب لا الحالة الطبيعية (الانكفاء ، والإلغاء الارتدادي ، والتحويل إلى العكس) . وبدون سيطرة هذه التقنيات ، فإن الكيفية المتفوقة - الطبيعية - في تأويل الأحداث السياسية والاجتماعية ستكون هي أيضاً مستحيلة كلياً . إلا أن ذلك لا يعني أن الأنا يذوب نزوعياً (ميلاً) ؛ بل يعني هذا فقط أن مؤهلات الأنا السابق اكتسابها تاريخياً والمنقلة فردياً ، والتي تجعل استخدام هذه التقنيات شيئاً نافلاً (لا جدوى منه) تعاني انكفاء ويجري تشويعها .

ونفس التمييز البنيوي يصح أيضاً بالنسبة للأنا - المثالي . يمكن الحديث حينئذ ، بادية بدء ، متبعاً لصفاته ، - السيطرة على صعيد الحضارة أو الفرد - عن أنا - مثالي جدير بالعقاب ، تحكيمي ، متصلب ، « مجزأ » ومقطع أقساماً أو عن أنا - مثالي مجسّد ، ظاهر للعيان . ودون أن يعني ذلك قولنا إن الأنا - المثالي ، حينما ظهر ، يكون تحكيمياً ، غير عقلائي ، أو متصلباً ، ولا يفقد هذه الصفات إلا حين يطابق الأنا . وعلى النحو نفسه يمكن إيجاد التمييز بين عدة وظائف للأنا - المثالي : مثلاً ، إبقاء تصورات القيم الاجتماعية ماثلة في الحاضر (اندماجية المعايير ، ربما بواسطة قوى إفرادية) ؛ إقامة عمليات مزروجة بمثابة رد فعل ضد الانحرافات إزاء هذه المعايير (الوعي) ؛ جعل أمثالات معينة ممكنة ، يستطيع الأنا أن يضع صفاته ووظائفه في خدمتها (تكوين مثل أعلى للانا) . على هذا الأساس وحده يمكن أن نحلل بصورة انتقادية سلسلة من الصفات ، بل أكثرية الصفات التي يملكها الأنا - المثالي في مجتمع ، وما يمارس الأنا المثالي من وظائف ؛ على هذا النحو فقط يمكن الوصول إلى الاستنتاج بأن هذه الصفات ينبغي أن تهمل أو تُلغى في المجتمع العقلاني

المشودة إقامته (ولكن وبالضبط لأجل النزوع إلى شروط اجتماعية أخرى غير الشروط السائدة ، وذلك للكفاح وربما الموت في سبيلها ، ينبغي تماماً أن تتطور بصورة مشددة وظيفية الأنا - المثالي : تكون مثل أعلى للانا) . ولأجل تقدير صفات ووظائف الأنا - المثالي حق قدرها ، سنعمل إذن على هذا النحو : (البحث ١) عن ماهية حركات الأنا الفريزية والرغبات الجنسية المقموعة ؛ كيف وبأية نتيجة بالنسبة للفرد . (٢) كيف يتصرف الأنا - المثالي إزاء الأنا ؛ إذا ما كان يتعاون معه أو يضعفه ، وإذا كان يقمع حينئذ بصورة تسلطية أم توجيهية تضليلية مثلاً صفات الأنا التمتنا (ضبط الواقع باستقلال ذاتي والرقابة عليه) . (٣) أية منظومات دفاعية يحمل الأنا - المثالي الأنا على إقامتها ، وإذا كان يمكن تبرير هذه تبعاً لمستوى التطور الاجتماعي بصورة عقلانية أم لا ؛ ما عدد هذه المنظومات وما نتائج عملها بالنسبة للانا .

حسب ما سبق عرضه ، يبدو جيداً أن شخصاً سليماً حقاً وقادراً على الرقابة على الواقع وضبطه ، ينبغي له أن يعتمد جوهرياً ، بصدد الأنا - المثالي ، على عناصر هذا الموثومة *idealiseés* . الأنا هو مرتبة وساطة ، وليس هو ، بالدرجة الأولى مرتبة تقرير للجهاز النفسي . وسيكون للتعاون بين الأنا والمثل الأعلى للانا ، في وضع مثالي للمجتمع ، على نحو ما يمكن أن يتصوره المرء شخصياً المظهر التالي : المثل الأعلى للانا المنبثق هو نفسه من الترجسية الأولية والمسؤول أمامها ، يقول ما يجب فعله ، ويقرر الأنا كيف ينبغي فعل ذلك ويكون مسؤولاً عن التقنيات المستخدمة لهذا الغرض أمام المثل الأعلى للانا و أمام الانفعال اللاواعي . ذلك هو كل ما يمكن حفظه من البناء الحسي - الطوباوي للانا الذي استعاد الأنا المثالي .

إن هذا الشكل لتعاون الأنا والأنا - المثالي هو بصورة عامة الشرط المسبق لجميع أشكال التصعيد . وهذا لا يعني أنه لا يحدث في الكبت ، وهو المفهوم

المعاكس للتصعيد ، أي تعاون بين الأنا والآنأ - المثالي ؛ لكن هذا التعاون يظهر بصورة مختلفة . الكبت يقوم به الآنأ لخدمة الآنأ - المثالي ، الذي ليس مديناً للاول ، في حالة نزاع ما ، بأي حساب بصدد متطلباته . ولكن لا يكفي الآنأ في عملية تطور التصعيد سوى نقل لموضع الغرض الغريزي الجنسي ؛ لكن هذا لا يكفي لتمييزه كلياً عن الكبت . ففي التصعيد يجري التشديد على النقطة التالية : نقل لموضع الغريزة والرغبة الجنسيين ، ولكن في أي اتجاه وبأية نتيجة بالنسبة للفرد؟ وسيقال حينئذ بصدد الكبت إن الرغبة الجنسية يجري إنزالها إلى دائرة الانفعال اللاواعي ، وتكون نتيجة ذلك أن عليها أن تبحث لنفسها عن مجال عمل ثان يفقد الآنأ منذ ذلك الحين بصورة عامة سيطرته عليه ، والذي هو ، عند الاقتضاء ، أكثر إضراراً بالآنأ مما كانت الرغبة الجنسية الأصلية .

وبالمقابل فإنه يجري في عملية التسامي التحويل النهائي لهدف الرغبة الجنسية والرغبة الجنسية ذاتها . بل إن تطوير هذه يوجد في المرتبة الأولى نظراً لأن الغرض الأولي للرغبة الجنسية يمكن الاحتفاظ به ، وحينئذ تدخل الرغبة الجنسية في خدمة العالم الخارجي (النشاط النافع اجتماعياً) أو في خدمة الآنأ (الترجسية) . إن التمييز « تبعاً للنتيجة » ينورنا في الوقت نفسه بصدد ما يستتبعه نقل موضع الرغبة الجنسية بالنسبة للاقتصاد النفسي للفرد . وسنلتقي مثلاً بأشخاص يبذلون كل قواهم في خدمة « الجماعة » ويكونون إذن قد حققوا بصورة ظاهرة تصعيداً للرغبة الجنسية لمصلحة نشاطات اجتماعية ؛ ومع ذلك فسوف نلاحظ عندهم أن عناصر الرغبة الجنسية والممارسة الجنسية ، والعدوانية ليست متسامية وإنما فقط مكبوتة ، وتكون النتيجة أن الأفراد المعنيين يعانون من « غيرتهم » أو « مثاليتهن » التي ليست في الواقع سوى ملاذ عصاي لعناصر من الرغبة الجنسية ، مكبوتة غير راقية ، وسادية - شرجية .

بعد هذه الايضاحات حول التسامي ، يظهر غير كاف بالمرءة أن نقيم تعارضاً

بين تقنيات الدفاع ، التسع ، التي قدمت مجموعتها « أنا فرويد » ، هذه المجموعة الموضوعية بصورة أساسية بتصرف داء المصاب ، وداء الذهان والتي لا يمكن استخدامها من قبل الشخص السليم إلا بمقدار ضعيف ، وبين « التسامي » أو نقل غرض الرغبة الجنسية ، بمثابة وسيلة وحيدة للدفاع تكون بتصرف الفرد السليم لكي يحمي نفسه من قلق الواقع وقلق الرغبة الجنسية . إن الصحة والتوازن النفسي لشخص ما لا يزدادان في الواقع بنسبة قدرته على تصعيد الرغبات الجنسية بل بنسبة قدرته على تلبية متطلبات الانفعال اللاواعي والعالم الخارجي . وإذا أردنا الاحتفاظ بتصميم أنا فرويد الأولي فينبغي حينئذ أن يعالج مفهوم التسامي بتوسيع بحيث يتضمن كل ما يتعلق بضبط الواقع والرقابة عليه ، وبالرغبات الجنسية ، والأنا - المثالي .

ذلك لأنه بالنسبة للخطر على الفرد من أن تفرقه رغباته الجنسية ، فنقول بتأكيد بأن ذلك الخطر ليس فقط تبعاً لعمليات راهنة للرقابة على الأنا (قدرة التسامي لدى الشخص السليم) العجز عن العثور على مخرج أخرى سوى الكبت الخ ... عند الفرد « المريض » ، بل انه أي الخطر يكون أيضاً تبعاً لدرجة حرية تلبية الرغبة الجنسية ، التي يملكها مجتمع معين ، ومختلف الأشكال التي يغطيها الأفراد حياً لهذه الحرية الجنسية ، وما يمكن للمجتمع أن يسمح به لأفراده من المحرفات . وحين يتسع مفهوم التسامي مثل هذا الاتساع ، فإن مدلوله التقني البحت داخل آليات الدفاع المطابقة للأنا ، يفقد من دقته . ومع ذلك فينبغي إبقاؤه على هذا النحو فترة ما ، لكي تتمكن من أن ندرك كل أهمية ما يمثله التصعيد التعممي أو المراقب بالنسبة للفرد .

إن الفرد الراشد ، حسب مفهوم التحليل النفسي ، القادر على ضبط الواقع والرقابة عليه وتحويله ، يقرر انطلاقاً من مؤهلات الأنا هذه أي سلوك ينبغي تبنيه ليس فقط إزاء العالم الخارجي (من مؤسسات ومعايير اجتماعية) بل

أيضاً إزاء غرائزه الجنسية وحالات عدوانه . والفرد بحاجة ، لأجل البت في الطابع المقبول أم لا ، بالنسبة للرغبات وتجسيدها ، بحاجة ، على حد سواء ، الى تفسيرات الأنا - المثالي (أو أيضاً إلى المثل الأعلى للانا) وكذلك للبت في سلوكه إزاء العالم الخارجي . وهو يكتسب هذه القدرة في الوقت نفسه مع تطور الأنا . ولذلك يقال أيضاً « إن الشخص لا يعود يستطيع التصعيد عند بلوغه سن الرشد » . وهذه الصيغة غير دقيقة من حيث أنه في عهد الطفولة بالذات ، في الوقت نفسه مع تطور الأنا والأنا - المثالي ، يتقرر المؤهل اللاحق لدى شخص ما في تصعيد غرائزه ورغباته الجنسية ، واستخدام تقنيات هذا التصعيد ، لكن هذه التقنيات لا يمكن تشبيهاً ببنية الطبع الذي يستخدمها ، والتي تكون ، في سن الرشد والنضوج قد ارتسمت جيداً ، بصورة نسبية . كذلك لا ينبغي أن نقيم تعارضاً بصورة قسرية على أساس « إما هذا وإما ذلك » بين تطور القدرة على التصعيد - بمعنى جميع الأشكال العقلانية لضبط الواقع والرقابة عليه والرغبات الغريزية الجنسية التي تشجع اتساع الأنا - وبين التقنيات الأخرى للدفاع عن الأنا . إن الشخص القادر في حياته الراشدة على أن يضع في خدمة نشاط اجتماعي ، الرغبات الغريزية الجنسية والعدوانية ، دون إضرار بشخصه هو ذاته ، يكون قد اكتسب هذه القدرة في طفولته وحدثته وليس بمعزل عن تقنيات الدفاع الأخرى ، بل انطلاقاً منها . وفي هذه اللحظة أم تلك قدر للفرد أن يكون شديد الضعف لكي يتخلى عن تقنيات « الكبت » ، و « الإلغاء الارتدادى » ، و « التحويل الى العكس » ؛ وكان عليه أن يحتنب بأي ثمن أن تعرفه « الغرائز والرغبات الجنسية » ، وأن يفسر العالم المحيط به بصفته عالماً مهدداً وداعياً إلى القنوط . وسيكون عليه ، حتى في حياته اللاحقة ، أن يلجأ بلا انقطاع الى هذه التقنيات ، وعلى كل حال ، ما دامت تسيطر قوى العالم الخارجي المعادية للانا وللانفعال اللاواعي . والشيء الوحيد

الأساسي هو أنه طوال فترة تطور الأنا ليست تقنية واحدة أو عدة تقنيات دفاعية طفولية هي التي تسيطر على الطفل وتمنع الفرد فيما بعد من أن يتعلم تقنيات أخرى لضبط غرائزه الجنسية وضبط الواقع والرقابة عليه . ولكن حين تغدو هذه التقنيات الدفاعية مهيمنة تماماً ، فسيكون على المرء أن يتكلم تبعاً للطريقة الخاصة التي تفرض فيها سيطرتها ، وطريقة التحول العصائبي أو الذهاني للغرائز والرغبات الجنسية والواقع ، وعند الحد الأقصى ، إلى أمراض عصابية وذهانية .

إن نزاع حالة التسامي ، القمعي والموجه ، يميز حالة اجتماعية يكون قد انخفض فيها مستوى التسامي الذي بلغته الحضارة من قبل ، وحيث التسامي المحقق من قبل الأفراد يذوب منحلًا في الجماعة ، وحيث لم تعد قدرة التسامي متطورة على الصعيد الفردي إلا بصورة أولية . ونزاع طابع التسامي هذا لا يقوم فقط في أن عناصر جنسية وعدوانية ، كانت مخضمة قبلاً لعملية تحويل (اجتماعي) ، قد «أوهنت» ، وتجنست Sexualisés ، ويمكن أن تستخدم لإفراغ شحنة عدوانية بصورة ظاهرة . وهي تقوم قبل كل شيء في إنقاص انتصارات الأنا التي يستطيع الفرد انطلاقاً منها أن يتصرف حقاً بجهازه الفريزي الجنسي ، وتقرير أية عناصر غريزية جنسية عليه أن يكتبها ، وأية عناصر أخرى يستطيع أن يطورها ، أو يسمح لها بالتعبير عن ذاتها بصفتها كذلك . والقرارات في هذا الميدان يعهد بها إلى نفس المراتب التي تضطلع كذلك بالإزالة المراقبة للتسامي . وتوصي منذ ذلك الحين بالكيفية التي ينبغي للفرد أن يتصرف بها في كل لحظة ، ومتى وكيف يقوم برد فعل بصورة جنسية صريحة تماماً ، ومتى وكيف يكبح نزعات عدوانية أم يرخي لها العنان . إن الحدث المراهق ، وإن ذلك الشخص الناضج الراشد لا يعودان يتعلمان التمييز بين القوى المدمرة للأنا والقوى المتناخمة معه ، بل ولا حتى بين القوى

الجنسية والعدوانية للانفعال اللاواعي . وهكذا يصبح منذ ذلك الحين عاجزاً عن تحرير عناصر الفريزة الجنسية التي ينبغي له اطاعتها والتجسيدات التي يسمح بها . إن عمليات الاختيار هذه تُسحب منه لكي تضطلع بها آليات القيادة عن بعد ، التي هي خارجة عنه . إن تحول الإنسان هذا هو قبل كل شيء عملية تطور لتحول آليات الدفاع التي هي بتصرف الأنا ؛ وهي تتميز كلها في انكفاء نحو أنماط طفولية للفعل ورد الفعل ويفقد الأنا في ذلك شرطاً لا بأس به من وظيفته التقليدية كعنصر وساطة (بين الانفعال اللاواعي والأنا - المثالي ، والعالم الخارجي) ويخضع الأنا لعملية انكفاء تجعل منه مرتبة أو مرجعاً لتحويل تأثيرات العالم الخارجي وتأثيرات العالم المثالي المقسمة إلى قطاعات sectorisés . وهكذا يحدث إذن مع التدني الجماعي لوظيفة الأنا عملية احتكار من قبل مراتب أو مراجع للسيطرة في الميدان البسيكولوجي للأنا وللأنا المثالي وفي الميدان السياسي للفرد ومؤسسات التقنية الاجتماعية وتقنية السيطرة . وبهذا المقياس فإن النزاع القومي للتسامي بشكل شأنه شأن التسامي شكلاً للاستخدام الاجتماعي للفرائز والرغبات الاجتماعية ؛ إن الإزالة القومية للتصعيد هي شكل الجمعية المسيطر ، الشكل السائد للاستخدام الاجتماعي للفرائز والرغبات الجنسية .

في هذا الإطار يكتسب مفهوم الدفاع مدلولاً جديداً ؛ ولا تعود لتقنيات الدفاع لدى الأنا وظيفة فقط أو استقرار للنظرة وحسب ، بل يكون عليها أن تؤدي مهمة ثورية . منذ ذلك الحين لا تعود فقط نزعات الاندفاع اللاواعي ، المعادية للمجتمع والنزعات المدمرة للأنا ، التي يجب الدفاع ضدها . كان ذلك هو دور آليات الدفاع التقليدية العشر . وينبغي من جهة أخرى الدفاع عن النفس ضد النزعات القسرية نحو إزالة التسامي ، المنبثقة عن الأنا المثالي الجماعي والمجسدة (مثلاً التجنسن بواسطة معايير جنسية عضوية ميراثية ظاهرياً) والتي تعقد حلفاً مقدساً حقيقياً مع العناصر الطفولية للفرائز

والرغبات الجنسية الجزئية . إن الوضع الذي يرسم بصورة أولية هو من نوع جديد نسبياً سواء بالنسبة للممارسة والنظرية التحليلية النفسية أم بالنسبة للنضال السياسي . إن الأنا المثالي المجدد والمجزأ يتشارك مع وحدات إنفعال اللاوعي الطفولية في جبهة الأنا - في جبهة سيهلك فيها الأنا بسرعة تزداد بمقدار ما يكون التفوق النسبي لعرائز الانفعال اللاوعي الفريزية الجنسية غير المستوعبة اجتماعياً ليس سوى وجه من المجموع، في حين أن الجبهة الأخرى هي بالضبط عدم استقامة الأنا ذاته .

١



قضايا الدفاع الراهنة

إنها لمبادرة سياسية وبسيكولوجية جد صعبة أن تضيف أو أن تعارض جزئياً بقائمة من آليات الدفاع الجديدة آليات الدفاع « التقليدية » التي يطورها الأنا كرد فعل على الخوف الفرزي الجنسي والواقعي ، وكذلك على المعايير الخلقية والسياسية التي تبرر آليات الدفاع هذه . ولعل هذه الطريقة لا تقدم كذلك إضافة كبيرة بصددها القضايا المثارة من قبل الدفاع ضد الإزالة القمعية للتصعيد . لذلك سنقتصر هنا على التعليق على بعض النماذج السياسية والبيكولوجية الدفاعية . ولكي نظهر تبعاً للفشل أو للنجاح بالنسبة للبعد الفردي لاندماج الأنا في المجتمع وبالنسبة للبعد السياسي لنشر الطابع الديمقراطي في المجتمع لاحقاً ، أقول لكي نظهر الصعوبات الناتجة عن ذلك بالنسبة لجميع الذين يمتفون أو على الأقل يحسون مسبقاً بنزعة المجتمع الى إزالة مراقبة للتصعيد ، ويكافحون هذه الإزالة .

الإزالة القمعية للتسامي تحت قناع الحرية الجنسية الكاملة

إن أحدث نمط عصري للإصلاح الجنسي البورجوازي يأتي من السويد، أي من

بلد أنقصت فيه الى أقصى حد التحريمات وعمليات القمع الجنسية على الصعيد الحقوقي القاعدي (المعياري normatif) ، وحيث يضطلع المجتمع بأسره على نطاق واسع جداً بالتربية الجنسية الفردية وحيث حرّيات الفرد البورجوازية وحماية الأقليات السياسية ، والعنصرية ، والجنسية ، مضمونة تقليدياً إلى أقصى حد . هذا النمط يأتي إذن ، ولذلك دلالاته ، من بلد فرضت الرأسمالية فيه نفسها وهي تحتفظ ببقائها هناك بأكثر ما يمكن من التلاحم كدولة التوقع الاجتماعي . إن كتاب Die sexuelle Minderheit (الأقليات الجنسية) بقلم لارس اولرستام^(١) قد أوضح نمو النزعة التي تريد أن تكون جذرية تقدمية في البلدان الرأسمالية ، وأن تتيح دوماً تمييز جميع الممارسات الجنسية بين البشر ، وبين الحيوانات ، واعتبارهم متساوين في القيمة ونشر هذه الممارسات الجنسية ، باستثناء الأعمال التي من شأنها أن تؤدي إلى عمليات تعذيب جسدية تمارس على حيوانات أو على بشر . وسوف نناقش هنا مقترحات اولرستام الاصلاحية التي هي نموذجية بالنسبة لنظريات مماثلة ، وإن كانت « أقل تشدداً » ، وأكثر تعصباً وأقل « تقدمية » .

باديء بدء يصل اولرستام في دراسته الى الاستنتاج المدعوم تجريبياً ونظرياً بأنه لا ينبغي إيقاع العقاب حقوقياً بسبب أي سلوك جنسي كان ، باستثناء « الاغتصاب » ، أو عمليات انتهاك التقاليد ، المرتكبة ضد أشخاص خاضعين معنوياً واقتصادياً الخ . و - جزئياً على الأقل - على أشخاص « قُصّر » . إننا نستطيع حتى الآن الموافقة على هذه المقترحات^(٢) لكن هذه ليست النقطة

Lars Ullerstam, Die sexuelle Mindeheit (١)
Hamburg 1965.

(٢) إن الدوافع السوسيوولوجية والسياسية بهذا الصدد قد عُرِضت بصورة كافية بحيث تمتنع عن ذكرها هنا . ونجد أفضل خلاصة لها في :

Fritz Banr (éditeur), Sexualität und verbrchen,
Fiscberbücherei, 518 - 519, Francfort 1963.

إنه يقترح في الأساس بأن يتحرر جميع الأشخاص دون استثناء الظاهري الانحراف أو المارقين بمحالات قصر عصابية طفولية أو ارتدادية - أن يتحرروا من رغباتهم الجنسية « غير الطبيعية » وذلك بنظام من إمكانيات إشباع الرغبة الجنسية تضبط بشكل جماعي ، وهكذا يستطيع هؤلاء الأشخاص أن ينالوا أكبر قدر ممكن من السعادة . وفي رأي اولرستام فإن كل تمييز بين « طبيعي » و « غير طبيعي » أو مرضي في ميدان الحياة الجنسية ليس سوى مسألة تحديد أو تعريف توحى به في أيامنا الدولة والكنيسة والأخلاق فاذا ما ألفت هذه التحديدات القسرية فإن حداً أفضلياً من السعادة الحقيقية سوف يتحقق تلقائياً إذا صح التعبير :

« هناك بعض ممارسي العادة السرية قد تخصصوا في نبش العبارات « البذيئة » من المؤلفات الفنية والجمالية [...] بوسعي أن أعلق على ذلك بشيء واحد وهو أن هؤلاء يستخدمون طريقة مشروعة لتأمين متعة جنسية لأنفسهم ويجب أن يحس الكاتب بعرفان الجميل لأنه يستطيع أن يضمن هذه البهجة لبعض من أمثاله [...] .

وهناك محبون للبول يتأخرون قليلاً في المباول العمومية . وأكبر ما يحسون به من رغبة هو أن يعثروا على شخص ما يتطلف بالتبول في قبعتهم أو جيوبهم [...] إن سماح المرء بتلطيخ ثيابه بالبول ليس بالتأكيد حاجة جذيرة بالاحترام ، لكن الكيفية التي يتدجج بها الناس بإساءتهم معاملة هؤلاء الأشخاص هي مثيرة للمشاعر . فإذا لم يكن الشخص يريد أن يستجيب إلى رغبة هؤلاء الأشخاص المتواضعة فإن من الواجب على الأقل مقابلتهم بشيء من التهذيب [...] .

(إن الماخور يمثل بالنسبة للعازب كسباً كبيراً للوقت على الأقل في حالات احتدام رغبات جنسية شديدة لديه ، وهكذا يتاح له وقت أطول لأجل

التدريب على ممارسة الجنس . وهناك نساء متزوجات منهنكات جنسياً يمكن أن يحسن ببعض الارتياح بإرسال أزواجهن إلى دور البقاء هذه ولن بحاجة للخوف من حدوث تعقيدات . إن أمسيات وحفلات رقص ذات جو جنسي مشدد أصبحت جزءاً من عاداتنا الاجتماعية . وبعد هذه المقدمات فإن زيارة ماخور ما هو إجراء صحي وحينئذ يمتنع المشتركون في مثل هذه الحفلات أخطاراً أن يروا حفلاتهم تفشل بسبب بحث البعض بصورة يائسة عن شريك أو شريكة تمارس معها العلاقة الجنسية [...] .

« حسنوا خدمة تقديم الفن والأدب الخلاعي للمجتمع ! وليكف المتلصصون عن معاناة الضيق والإزعاج طوال ساعات بسبب نواحي غموض مثل «الصمت» وأفلام أخرى مماثلة وذلك فقط لكي يلحوا بداية لمشهد من مشاهد الجماعة [...] على الأفلام أن تعرض ممارسة العادة الجنسية ، وأعمال ممارسة الجنس مع أشخاص من الجنس الآخر ، والممارسات السحاقية ، واللواط ، والممارسات الجنسية الجماعية وأشياء أخرى من نفس الطراز لكيما يؤخذ في الحسبان جميع الأذواق . ومن المستحسن أن يكون في بعض دور السينما قاعة ملائمة لممارسة العادة السرية » (١) .

هذا النموذج من الإشباع الجماعي للرغبة الجنسية هو نمط للفعالية الاقتصادية بالتلبية الجنسية الوهمية . إن إزالة المنازعات الاجتماعية والتوجيه الجنسي التضليلي المتفلن يميضان جنباً إلى جنب والعبارات السحرية المستخدمة للدعاية للفعالية التقنية الاقتصادية هي « لا تعقيدات » « هذا تدبير صحي » « مزيد من الوقت لأجل التكوين الجنسي » « لا مشاكل » وينبغي أن لا يمثل إشباع الرغبة الجنسية المقترح سوى جعل ذلك ، وهو الوهمي ، مؤسسة ، ذلك ما يمكن تفسيره بالضبط في ضوء المثال الجذري الأخير .

(٢) اولرستام ، المرجع المذكور ، الصفحات ٨٢ - ٨٤ - ١٤٣ - ١٤٥

إن الانحراف « التلصحي » يتصف بالضبط بواقع أنه لا يستطيع التغلبي عن التوتر الجنسي الدائم . ويمكن الافتراض أولاً أن عدداً لا بأس به من المنحرفين يفضلون على أفلام جنسية صريحة جداً أشياء جنسية مثل « الصمت » وبالنسبة للآخرين ، فإن سلوكهم المرآضي هو وحده الذي سوف يُضبط ، وتجدد بؤسهم الذاتي الذي يحتمل أن يحمله على وعي مرضهم والشفاء منه ، هو وحده الذي يمكن الحلولة درونه . والشئ نفسه ينطبق على أشكال الاستمناء المرتبطة بمحالات القسر الطفولية والارتدادية . وما من مكان في بحثه ، ولو تليحاً ، يعلن اولر ستام تأييده تحويل المؤسسات الاجتماعية الذي من شأنه أن يؤدي إلى أن تفقد أغلب حالات المرض العصابية والانحرافات أساسها الاجتماعي وتكف عن أن تبرز الا بشكل ظاهرات هامشية . إن حالات المرض العصابية هذه والانحرافات يمكن أن تُشفى حينئذ أفرادياً ، فإذا تعذر شفاؤها أمكن على الأقل معالجتها بأقصى حد من التسامح - وتقديم حد أقصى من حظوظ الإشباع لها - وستكون هذه وجهة نظر جنسية ثورية ولو كانت بعد مجردة . فهي لا تنادي بعد حتى بمعالجة طبية للانحرافات التي لا تعود على أولئك المراهقين لها إلا بالآلام والحرمات الهائلة . بل ان وجهة النظر تلك تفكر على العكس بأن المجتمع ومنحرفيه يجب أن يبقوا كما هم والتغير الوحيد الذي تتمنى إحداثه هنا هو أنها تتطلب من المجتمع في الميدان الجنسي كذلك إنشاء مؤسسات « وقاية » للمنحرفين .

ونستطيع أن نرى ، في مختلف مقترحات أولر ستام ، في الوقت نفسه مع مخلفات -- مبتورة - من البرنامج الثوري البورجوازي الكبير : أعظم سعادة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس . هذه المخلفات المأخوذة على انفراد توجد حينئذ تشابهاً يصل إلى حد الخلط بين مقترحات اولر ستام ومقترحات اليسار ، وبخاصة حركات الفتيان والمثقفين المضادة للتسلطية . ولهذا السبب بالضبط تصبح مسألة وضع كل مطلب للتححرر الجنسي في سياق المطامح الى الانعطاف السيامي

والفردية مسألة انبعاث . وطوال ما ستظل هذه المطالب منعزلة فإن برامج التحرر الجنسي ستسقط عاجلاً أم آجلاً في خط مسار عروض حالات الإشباع المصوغة في مؤسسات وسوف تتحول وظيفتها الأولية إلى وظيفة قمعية . ومساءلة معرفة متى سيحدث هذا لا يتوقف إلا على درجة مقاومة القوى الما قبل الرأسمالية التي ما تزال معادية جهاراً للممارسة الجنسية ، ضد القوى الجديدة لإزالة التسامي القمعية . وماكم مثالين يقدمان لنا البرهان على ذلك :

١ - إن برنامج اولر ستام منفذ جزئياً في الولايات المتحدة ، ونجد في باب الممارسة الجنسية الجماعية المكيفة مثال مخزن البيع بالمراسلة لسلع جديّة ، هذا المخزن الذي يعمل بمثابة مؤسسة لأجل « بحبي العقوبات المنزلية » وهو ليس سوى رائد لمجموعة من مؤسسات متخصصة في مختلف أنواع الانحراف ففي المدن الكبرى بالولايات المتحدة توجد حوانيت متخصصة بدأت تقوم منذ الآن بتقسيم للعمل في إمداد مختلف أنواع المنحرفين بما يحتاجون إليه من أدوات . إن اختصاص « الجنس والأدوات الجلدية » كثير البضائع بصورة خاصة ولا يباع فقط في هذا المخزن جميع الأدوات الجلدية لممارسة الانحراف المذكور الذي هو رائج لأسباب ملازمة لحضارتنا . بل إن زوار هذه المخازن باستطاعتهم أيضاً بعد أن يكونوا قد اشتروا كتباً من الأدب الجنسي الخلاعي وغيرها من الأشياء المائتة ، يبلغ معين باستطاعتهم أن يشاهدوا أفلاماً جنسية صريحة ، وذلك في قاعة خلفية من المخزن خلال مدة تتناسب مع المبلغ المدفوع ، ولكن عند انتهاء هذه المدة يعادون دون رحمة الى المخزن .

٢ - إن بضعة جماعات من التلامذة التابعين « للأوس Auss » قد طالبوا بآلة توزيع أوتوماتيكية لحبوب منع الحمل ، توضع في المدارس ، وهذا المطلب كان يريد أن يكون في الوقت نفسه تحريراً على الصعيد الاجتماعي . ولا يمكن أن ننكر عليه هذا المظهر لكن بوسمه أن يتحول إلى عكسه أي إلى تكييف

قمي . يمكن في الولايات المتحدة الحصول على مواد فموية مانعة للحمل من محلات الدرغستور ؛ ولعل المسألة بالنسبة لألمانيا الاتحادية ليست سوى مسألة وقت . لكن هذه ليست سوى أحد الجوانب التكتيكية على الأصح الذي يظهر جيداً أنه لم يعد بالإمكان خوض معارك تقدمية سياسية في الولايات المتحدة والسويد بمطالب كطلب التربية الجنسية في المدارس . والمظهر الآخر الحاسم هو أن أمثال هذه المطالب سوف تدعو الى مجرد إتباع قواعد الممارسة الجنسية ، أولئك الذين ليسوا بعد قادرين بالمرة على ممارسة علاقة جنسية عضوية والذين لن يقرر لهم أن يتعلموا هذه الممارسة إلا بمشقة ولقاء جهود منهكة مارين بمراحل الافتتان والتضامن والإخلاص . ولكن ما أن ترى حبة منع الحمل جهاراً على مقاعد الدراسة حتى يتمكن الفتیان من أن يقنعوا الفتيات بسهولة من أن خوفهن من ممارسة الجماع ليس سوى « حماقة » ، وفي حالة بقاء شكوكك للدهن في هذا الصدد ، فإن بوسع الفتیان أن يقولوا لهن إذا كانوا من المنتسبين إلى الأوس أن الفتاة هي رجعية تعتمد وسائل القمع إذا رفضت النوم معهم .

إن أخطار الإزالة القمعية للتسامي التي تزداد بنسبة اتساع الحالات المقبولة اجتماعياً لإشباع الرغبة الجنسية ، لا يمكن تلافيتها ببرنامج سياسي متزهد .

فمثل هذا البرنامج سيكون دائماً رجعياً والمهم في كل لحظة هو التمييز بين ما هو مقبول اجتماعياً ، وما يتمناه الشخص وتحديد طبيعة إشباع الرغبة الجنسية على هذا النحو . إن النجاح في مثل هذه المحاولة يفترض مؤهلات تامة تتوطد بواسطة مثل أعلى للآنا . بهذا المعنى يجب أن نفهم عبارة ماركوز^(١) : « إن إزالة التسامي المبينة على هذا النحو تجلب متعاً ، لكن التسامي ، من جهة يحمي الوعي من حالات التخلي أو الفرار التي يفرضها المجتمع القمعي وهو ، أي التسامي ، يصون بذلك حاجة التعرر » .

(١) هـ . ماركوز ، الانسان ذو البعد الواحد ، الرجوع المذكور . ص ٩٩

اكتساب الطابع الثقافي ، الخمول ، التجرد أثناء فترة البلوغ

تؤكد آنا فرويد (١) أن المراهقين يدافعون عن أنفسهم ضد ضغط الشهوة الجنسية الشديدة (اللبيدية) المشروطة فيزيولوجياً أثناء فترة البلوغ، ويتمثلونها في النهاية على الأخص بواسطة آليتين - «البلوغ» و «اكتساب الطابع الثقافي» - هاتين الآليتين اللتين لا تكونان في فترة الكون وفي سن الرشد ملحوظتين بنفس الوضوح ، ذلك أن هاتين الفترتين تتميزان بحياة من الرغبة الجنسية طبيعة هادئة و« قوة للأنا متناسبة » .

إن في هاتين الآليتين شيئاً ارغامياً يتجلى بصورة خاصة في واقع أن متطلبات الأنا المثالي السكائمة وراء هاتين الآليتين هي منسوخة عن حالتهم النفسية (فهي تابعة لميدان المجرّد) وتظهر تلك المتطلبات بادعاء تسلطي شامل ويمكنها أن تزول من جديد بفترة دون تغيرات عميقة في الطبع بالنسبة للمراهق . ان اكتساب الطابع الذهني في فترة البلوغ التقليدية ليست إذاً صفة ذهنية بالمعنى الاعتيادي للكلمة ، بل ان الأولى بالأصح هي شكل مباشر لحماية الأنا وهو يضاف، ولدى إضافته إلى نزعة التزهّد يغدو وقاية ضد تدفقات الرغبات الجنسية . ولن يطرأ على تصرفات الفتيان سوى القليل من التغيير : « وبدهي أن التأمل ، والاجترار الذهني والمناقشات تكفي الفوق المراهق ، وأن سلوكه ، المهدد بعوامل أخرى ، ليس بالضرورة متأثراً بهذه التمارين الذهنية (٢) » . لكن لشكل اكتساب هذه الصفة الذهنية عادة تأثيراً ثانوياً هاماً على سيطرة المراهق على الواقع في عهد ما قبل البلوغ : « إذا كان صحيحاً أن كل تعزيز للتوظيف الشهواني الجنسي الشديد يستثير حتماً في كل مرة ازدياداً للمجهود

(١) آنا فرويد المرجع المذكور . ص ١٤٠

(٢) المرجع ذاته ، ص ١٤٩ .

يحاول تحقيق الأنا لأجل صياغة ذهنية لعملية التطور الفريزية ، فإنه يفتج عن ذلك أن أخطار الرغبات والفرائز الجنسية تجعل الناس أذكاء . وفي فترات الهدوء الفريزي ، أي حين لا يهدد الشخص أي خطر ، فإنه تحق له درجة معينة من البلامه ، ^(١) والواقع أنه لا يمكن بالتأكد أن نلاحظ تجريبياً ارتباطاً بين الامتناع الجنسي وتزايد حالات التقدم الذهنية ؛ إن فرويد ذاته يرفض بصورة قاطعة هذه العلاقة التي ادعى مراراً وجودها ^(٢) .

ومع ذلك فإن عدداً من الوقائع يوحي بالتفكير بأن هذه العلامة تعكس اليوم . إن التخلي الواهن عن متطلبات الامتناع الجنسي التقليدية إنما يجري بصورة قمعية مشددة بحيث يولد الحماقة الجماعية . وتجذب النزعة الاجتماعية لإزالة التسامي القمعية أجلي تعيين عنها على وجه التخصيص في واقع أن العالم الخارجي يفرق المراهقين عند مرتبة البلوغ بعروض دائمة حتى وإن كانت جزئية لإشباع الرغبة ولاكتساب الجنس .

وعلى صعيد الوعي ، فإن الخوف الفريزي الجنسي ، (الخوف من غرق الأنا بين أمواج الانفعال اللاواعي) ينبغي حينئذ أن يتدنى إلزامياً . وضد هذا الخوف ، طور حتى الآن البالغون آليات الدفاع النوعية الخاصة بمرحلة البلوغ . وعلى هذا النحو ينبغي لنا أن نفهم عبارة ماكوز : « إن التوتر ، في الجهاز الذهني ، بين ما هو مرغوب وما هو مسموح به ، يبدو أضعف بكثير ؛ ولا يبدو مبدأ الواقع

(١) المرجع المذكور ص ١٥٢ .

(٢) فرويد Die « Kulturelle » Sexualmoral ص ١٣٣ : « بصورة عامة ليس لدي اقتناع بأن الامتناع الجنسي يساعد على تكوين رجال عمل شديدي العزم ومستقلين ، أو مفكرين مبدين أفذاذ أو محررين وإصلاحيين جسورين بل هو في أكثر الأحيان يؤدي إلى تكوين أشخاص ضعاف طيمين يذوبون فيما بعد في سواد الناس الذين اعتادوا أن يتبعوا مرغمين الحوافز التي يطلقها أشخاص أقوى » .

أنه يتطلب ، بعد ، تمويلاً غنياً ومؤملاً لحاجات الرغبات والفرايز الجنسية . وعلى الفرد أن يتكيف مع عالم لا يبدو أنه يتطلب منه تخلياً عن حاجاته العميقة - إنه عالم ليس معادياً في جوهره (١) .

ونجد تأكيداً تفصيلياً مثبتاً هذه التشخيصات وذلك في تحقيقي جديد ذي قيمة تمثيلية عن الشبيبة في الجمهورية الاتحادية الألمانية (٢) .

وحسب هذا التحقيق ، فإن صراعات فترة البلوغ لم يعد يبدو أنها تجري ، على الأقل ، بصورة مكشوفة أو بصورة يدركها الوعي . إن ٨٧ ٪ من الأولاد المتراوحة أعمارهم بين التاسعة والعاشرية « يحدون الحياة في المنزل جيدة متممة » . المظهر معني به ، والملابس أنيقة وعصرية ، وحسن التصرفات والحركات تحتل المرتبة الأولى لدى « الناذج » المدروسة - ولم يعد بالامكان الحديث عن تكون مثل أعلى للآنا . وباستطاعة الأولاد بين العاشرة والرابعة عشرة من أعمارهم أن يذكروا تلقائياً أسماء سمات (ماركات) من مراهم التجميل ، بل وحق الأولاد الصغار أن يذكروا أسماء ماركات أحمر للشفاه . وقد أخفقت حتى محاولات تربية الأحداث لكي يصبحوا مواطنين إيجابيين ربّوا بروح النظام القائم . وكما ازداد الأحداث الذكور كبراً ، يقدو مفهومهم ، مثلاً ، عن الخدمة العسكرية أكثر سلبية ، وبالنسبة لهم ، فإن جميع « المثل العليا » ، حتى تلك التي يدعو إليها النظام ، تتضمن مقداراً كبيراً جداً من المجازفات ؛ فالتكيف مع المحيط المباشر هو وحده المأمون والربح . وبالمقابل ، فهم يعملون كمستهلكين جديين على الأخص ، كما أظهرت ذلك نتائج الاستفتاء الخاص بأحمر الشفاه . ومنذ

(١) هـ . ماركوز - « الانسان ذو البعد الواحد - المرجع المذكور - ص ٩٨ .

(٢) قام بالتحقيق ماريلان - فرانكفورت ١٩٦٧ - بطلب من مارك ركان . انظر

التقارير عن هذا التحقيق في صحيفتي

Frankfurter Sligemeine Zeitury, Frankfurter Rundschau

الصادرتين في ٢-١٢-١٩٦٧ .

صباح المبكر لديهم وعي كمشترين؛ ويبدون وكأنهم يستمدون هويتهم الاجتماعية بصورة رئيسية من هذا الوعي . على هذه الناحية تستند مجلة « برافو » ومجلات أخرى ، أي بالضبط المجلات المصورة الكبرى (الماغازين) التي أوصت بالقيام بالتحقيق المذكور . وفي كانون الأول ١٩٦٧ أخذت مجلة « فرانكفورت الجليان زابتونغ » مخاطب معلنين محتملين بهذا الشعار : « المنتوجات تشيخ مع الأشخاص الذين يشترونها ، والمنتوجات ينبعث صباها بفضل المشترين الفتيان ؛ إكسبوها إلى جانبكم اليوم ، لكي تتمكنوا من الاعتماد عليها غداً (١) » .

والفتيان بالضبط هم الذين يحاولون أن يتملصوا من « الوعي السعيد » للراشدين والأحداث المراهقين الذين يعانون كثيراً بصدد محارلات اكتسابهم الصفة الذهنية . إذ سرعان ما تصطدم محاولاتهم بعدم تفهم تام من جانب « السمداء » ، إلى حد أنهم يجدون صعوبة في التفتح الذهني ، وهم مدفوعون دفعاً لأن يحابوهم ، وهو موقف يزداد شدة بالنزعات نحو العدوانية التي يظهرها المتكيفون نحو الأشياء « عائري الحظ » . وهذا الوضع من الأمور توضحه تماماً أعمال الفتيان الجماهيرية العفوية ، ولا سيما التلامذة والعمال المتدرجين ، هذه النشاطات التي حدثت تلقائياً في كثير من مدن الجمهورية الاتحادية الألمانية في شباط ١٩٦٨ ، على إثر النشاط الاحتجاجي الذي قام في برلين ضد زيادة تعريفات النقلات ، هذا النشاط الذي لم يقم ، من جهته ، سوى بدور زناد عَرَضِيٍّ وثمة عامل هام لهذه النشاطات الجماهيرية ، وهي أنها جرت في حدة لم يكن ثمة وجود فيها لحركة طلابية قوية من أقصى اليسار ، كان من شأنها أن تخلق جوّاً سياسياً أو تدعو

Frankfurter Allgemeine Zeitung . (١)

عدد ٢١ - ١٢ - ١٩٦٧ .

إلى نشاطات نضالية ، وبصورة خاصة في برمين وكيبيل ، وبوتسوم وهانوفر . لقد أصدرت أنا فرويد على تذهن البلوغ - التقليدي - الحكم التالي : « وفي الوقت نفسه يجب أن لا ننسى أن النشاطات الذهنية ولا سيما في فترة البلوغ ، مهما كانت هذه النشاطات شديدة التآلق ومهما كانت مرموقة فإنها يمكن رغم ذلك أن تكون بنفس المقدار من العقم .^(١) ويبدو أن مظهر العقم هذا يشكل جزءاً بصورة واعية تقريباً لجميع الحركات الراهنة لاكتساب المراهقين الطابع الذهني ، وذلك ضد النزعات القمعية لإزالة التسمي ؛ لكن الأمر لم يعد الآن كما كان أثناء فترة البلوغ التقليدية عنصر تبنٍ . لآلية الدفاع ضد التدفقات الغريزية الجنسية العمياء ، بل أصبح شرطاً ضرورياً للوعي التامس الحظ الذي ينبغي له أن يناضل ضد فيلجة السعداء الناعمة الأنيقة وضد الهراوات وسيارات الأطفاء لمثلها . ولكي يصبح هذا التجذير عنصر أتكويدياً للدفاع السياسي والنفسي ضد الإزالة القمعية للتسمي ، فيجب أن نحرك هنا عاملاً آخر ، أثناء تكون الأنا الذي لا يستطيع الآن خلال فترة البلوغ أن يتحقق إلا ضد المعارضة الحقيقية من قبل المجتمع ، هذا العامل الذي يميز بنيوتاً بين جذرية أقليت الفتيان الراهنة ، واشتمزاز أكثريات الفتيان الراهنة وانتشار الذهنية لدى شبيبة العهد السابق . وعلى الفتيان أن يعلموا أن نشاطاتهم الراديكالية هي متصلة بتكونهم الشخصي ؛ وعليهم أن يحسوا انفعالياً على الأقل بأن لهذه الأعمال صلة مع ضعف أنامهم ، وتدنيهم الاجتماعي ، ومع محاولاتهم لتكوين أنا ، يقيم معارضة ضد المقاومة القمعية لإزالة التسمي وضد الاندماج الانتهاجي . ولأجل الحصول على هذه النتيجة ، لا يكفي أن يعاني الفتيان « الضربات المضادة من قبل دفاع الطبقة الحاكمة التي تعارض محاولاتهم للدفاع ضد الإزالة القمعية للتسمي بواسطة الهراوات وخراطيم سيارات الأطفاء . وحتى ولو

(١) أنا فرويد ، المرجع المذكور . ص ١٥٣ .

كانت أعمال الرفض والاحتجاج من قبل الفتیان تظهر دفعة واحدة في مدن متزايدة أكثر فأكثر وأن المزيد من الفتیان يشترك فيها بصورة عابرة، فلا ينبغي أن تنشأ لدينا أوهام حول واقع أن هذه الأعمال ليست هي فقط عاجزة للمعنى الذي كانت تخاض فيه ضد عدوٍ سياسي فائق في القدرة، بل أيضاً بمقدار ما هي تجري انطلاقاً من عجز داخلي - نفسي . هذا العجز الداخلي لا بد له أن يقود عاجلاً أو آجلاً إلى الرضوخ، إذ لم يقم إلا بالنضوب وانهاك نفسه على الصعيد السياسي في حركة تصعيد لأعمال الرفض والاحتجاج؛ إن خضة الأفراد العالية جداً وعدم الاستقرار لحركات الرفض لدى الفتیان هي علامة على ذلك وهي أيضاً عنصر تكويني لحتمية النضالات السياسية وهو عنصر يبقي هؤلاء الفتیان بمنجاةٍ عن كل اندماج انتهازي . وكما يخدم العجز الداخلي، بعد أن يصبح واعياً، بمثابة قاعدة نضال طويل النفس - ليس فقط نضال الأقليات التي تجتاز عند مرحلة معينة فترة البلوغ، بل أيضاً نضال أولئك الذين يريدون التغلب على ضغوط فترة البلوغ الدائمة - فيجب أن يدعم هذا العجز مثل أعلى للأنا، الذي يحتفظ بالعجز الواعي بمثابة قدرة لغير القادرين . وفي الميدان السياسي يجري هذا النوع من المحاولات حالياً على الأخص بالتشبه بالنضال التحرري لبلدان العالم الثالث . والتشبه هو ولا شك المرحلة التمهيدية لكنها ليست بذلك القاعدة الكامنة لتكون مثل أعلى للأنا . ولدى أغلبية الفتیان والأحداث فإن التشبه بالفيتكونغ، وبتشي غيفارا، وبماو ليس إلا «منسوخاً» عن الخارج - كما حدث أثناء آليات اكتساب الطابع الذهني في مرحلة البلوغ «التقليدية» . إن أبطالهم ليست لديهم حقاً وظيفة كمثّلٍ علينا للأنا، حتى ولو كانت لديهم، والحمد لله، بمقدار أقل وظيفة أنا مثالي متصلب وهم لا يكتبون بارخاء لحامهم وارتداء بذلات العمل الزرقاء وأن يكتبوا في أسفل رسائلهم عبارة (النصر لنا) وبياناتهم . والحال فإنه لا يمكن أن يطلب إليهم لأجل اكمال تشابههم مع هذا المستوى أن يمتشقوا البندقية مثلاً لكي يكافحوا ضد

« الامبريالية في جبهة بلدانهم هم أنفسهم » . إن هذا ، عند الاقتضاء ، يمكن أن يصبح ضرورياً ؛ لكن الاتجاه نحو مثل أعلى للانا ، يعزز أناه الخاص ، هو شيء مختلف جذرياً . ولدى اتخاذنا مثال غاذج النضال التحرري في البلدان المضطهدة في العالم الثالث فيجب أن يكون الفتيان المناضلون في المتروبولات الامبريالية بنفس المكر ونفس الذكاء ونفس الصمت وحفظ السر ، التي يتحلى بها الفيتكونغ في فيتنام . وكذلك أن يكونوا بنفس الشجاعة التي كانت عليها تشي غيفارا في بوليفيا وأخيراً بنفس حكمة ماو ؛ وينبغي أن يقيس المرء صفات أناه الشخصية بهذه المستويات الظاهرة ويكونها على أساسها . وهذا نادراً ما يحدث اليوم .

إلا أنه لا يوجد اختيار سياسي سوى هذا الذي تتجذر به الفئات الاجتماعية للفتيان والمثقفين . إن الشكل الخاص لتجذرها مرتبط بشكل القمع ، المسيطر في هذه البلدان . وفي ميدان الجهود السياسية فإنه الفرصة الوحيدة لحماية النفس ضد القرف الجماعي ، وضد التكيف وضد إزالة التسامي . وبنفس الضرورة يرفض المراهقون المكيفون أيضاً الإمكانيات التي توفرها المؤسسات القائمة لأجل تكوين مثل أعلى للانا مطابق لنظام السيطرة . إن جميع المحاولات ليجعل منه « مواطنين ديمقراطيين » بالمعنى الذي يريده النظام تفشل بالضبط أمام النزعة الأكثر قدرة وجبروتاً ، النزعة نحو الإزالة القمعية للتسامي . لقد ذكرنا في فقرات سابقة الموقف السلبي إزاء للجيش . إن « الخدمة الاجتماعية المدنية التطوعية » التي تحاول الحكومة الاتحادية نشرها والترويج لها منذ أحد عشر عاماً ، والتي كانت ترمي الحكومة الاتحادية من ورائها تكوين مثل أعلى للانا ، قد فشلت بصورة محزنة ؛ فحق الآن لا يوجد أكثر من ألف مراهق تقدموا كل عام للانخراط في هذه « الخدمة » في جميع أنحاء المانيا الاتحادية . وهناك فتى قدم بمثابة نموذج مثالي ، قدم تقريراً أثناء تظاهرة دعائية للمنظمة المركزية لـ « الخدمة الاجتماعية المدنية التطوعية » ، والذي قضى فترة خدمته طوال عام في مستشفى للطب

النفسي ، قد أكد ، إذا صح التعبير بمثابة برهان على التكوين المكتمل لمثل أعلى للانا ، أنه بعد زمن معين يجري تسليم مفتاح خزانة الصيدلية بيده شخصياً لصاحب السلوك الحسن ، ^(١) ولكنه لا ينبغي في مقابل ذلك أن نستلم للوم بأن أمثالياً جماعياً وفعالاً موجود حقاً لدى المراهقين المكيفين ، وذلك فقط لأن النموذج القديم للانا المثالي قد فقد بعضاً من وظائفه التقليدية .

إن الحلول المقترحة من قبل اليسار التقليدي على المراهقين المتجذرين ، تشهد حتى ذلك الحين بنفس المعجز الذي تتصف به « الخدمة الاجتماعية المدنية التطوعية » ، إزاء أغلبية الفتيان المكيفين ، « فالمرکز الاشتراكي » مثلاً ، الذي يرغب أن يكون عمله أفضل من عمل الـ SDS من جهة ، ومن عمل الـ SPD و DFU (التحالف الألماني من أجل السلم) ومن عمل الـ KPD ، يدعو الشبيبة المعارضة إلى أن لا تحوض نضالات جذرية ظاهرية فقط - لن يفهمها بعض أقسام السكان ، الذين هم قدميون في حد ذاتهم ، ومن شأن هذه النضالات أن تدفع هذه الفئات من السكان إلى أحضان الرجعية ^(١) . وبصرف النظر عن هذه العمايات السياسية فإن هؤلاء النظريين لا يريدون أن يروا ، أنه لا يمكن دعوة فتيان ، يريدون أن يعوا « الحكمة » ، والاشتمزاز للإنساني ، والمدوانية الموجهة للاكثريات الراشدة والمراقة في المجتمع ، والذين يعانون من ذلك ، ويريدون حماية أنفسهم منه ، أقول لا يمكن دعوة هؤلاء الفتيان ولا ضبطهم بسلوك يتصوره هؤلاء بادية ، بدءاً تماماً بمثابة سلوك « حكيم » ، بل وفي حالات ملووسة ، بمثابة سلوك فاسد وانتهازي . إن الأعمال الجذرية والعدوانية والرجعية - في

(١) راجع صحيفة Frankfurter Allgemeine Zeitung 5-2-1968

(١) هذا المآخذ أعلن بصورة خاصة في مؤتمر تأسيس « المعارضة الاشتراكية » يوم ٣-٢-١٩٦٨ في أوفنباخ ، ويتعلق الأمر هنا بمركبة تجمع اشتراكية يسارية ، اشتركت فيها تكتلات مساة تقليدية من SDS . وقد تجاوز هذا المؤتمر الجمعيات النقابية من حيث مشاعر البغضاء التي أظهرها جهاراً وبصورة مكشوفة ضد « الطلبة » .

جزء منها - جماعياً لحركة المعارضة لدى الفتيان والطلبة هي وسيلة تطرح العديد من المسائل والمشاكل بل وربما الازدواجية في إطار برنامج « واسع ، جداً للدفاع ضد الإزالة القمعية للتسامي . ويمكن أن توصف هذه الأعمال ، على أساس علم النفس ، بصفتها تقنيات دفاعية ضد القوى الخارجية المعادية للانا - هذه التقنيات التي تتصف هي ذاتها بضعف الأنا التي تريد مكافحته جماعياً . لكنها في الوقت الحاضر الإمكانية الوحيدة للوصول إلى هوية سياسية فردية وجماعية . لذلك فهي ضرورية لا غنى عنها ، كوسيلة سياسية ؛ وبدونها فإن مجمل الحركة السياسية خارج البرلمان ستنهار بمد وقت قصير .

الكومونة

إن الكومونة رقم واحد التي تشكلت في برلين الغربية في نهاية عام ١٩٦٦ والتي أخرجَ أعضاؤها من SDS وذلك في أيار ١٩٦٧ ، هي كومونة حسب مفهومها ذاته للوحدة السياسية التنظيمية الملائمة لأجل قيادة الصراع الطبقي في المجتمعات الرأسمالية الاحتمكارية الراهنة . وهي تتدسب تاريخياً إلى كومونات الفتيان التي نشأت في الاتحاد السوفياتي فوراً عقب الثورة ؛ لكن الكومونة الالمانية رقم واحد تريد أن تغلب على نواحي الضعف البنيوية التي اتصفت بها تلك الكومونات السوفياتية ، والتي انتقدها بصورة رئيسية و. رايش^(١) .

ونواحي الضعف التي سجلها رايش على الكومونات السوفياتية في عهد الثورة الأولى هي في حسب رأيه بصورة جوهرية اخلاقية العمل المتصلبة والأخلاقية الجنسية القمعية ، وهي نواقص لم تكن تلك الكومونات تتوصل الى التغلب عليها . إن الكومونة رقم واحد قد انبثقت ، بصورة ملهوسة ، من جماعات تكونت حول « العمل الهدام » وجماعات Uuverbindliche Richtlinien (برنامج مؤقت) التي نشأت في عامي ١٩٦٢ - ١٩٦٣ في ميونيخ وشتوتغارت وبرلين . كانت هذه الجماعات تحاول ، وليس في ذلك شيء « أصيل » ولا جديد

(١) راجع ويلهم رايش « الثورة الجنسية » صفحة ٣٠٣ إلى ٣٣٠

طريف ، حل التناقضات بين التنظيم والممارسة السياسية . وكانت النتيجة النظرية بادية بدء « تشرذما » أو شرذمة ، وتشكل هذه حسب تصور هذه الجماعات وحدة عمل للدفاع ضد الإزالة القمعية للتسامي - رغم أن هذا المفهوم لم يكن قد شرح وأوضح في ذلك الحين إلا من جانب مركزوز (التي كانت هذه الجماعات ترجع إلى أفكاره على الأخص) وفي رأيها أن هذا الدفاع الجاري دفعة واحدة يقوم في البرنامج التالي : إن الشرذمة لكي تعجل وتيرة تطور المجموع ، بأي ثمن كان ، فإنها تفسح المجال في الحال لجميع إمكانات الشيء الإنساني ، البشري . وانطلاقاً من هذا التصميم ومن الحكم بأن العلم يكون الحياة بصورة هائلة في طلائعها وفي أغراضها ، يرسم بادية بدء تصميماً لنظرية جديدة للعلوم ، ويتصور لائحة ترتيبية hiérarchique للعلوم [...]

« إن (العمل الهدام) المؤلف من محرضين وقادة سياسيين ، يدعون الى العصيان المنظم ، بصفته خطوة أولى نحو تحقيق مجتمع الشرذمة المتحررة ، يتحدد بصفته نخبة - منبوذة ، متجه مباشرة نحو العمل . إن معيار عمل ما ، ولو كان ضئيلاً متناهِياً في الصفر ، هو درجة تعرية القمع الاجتماعي . والذي يشترك حالياً في ممارسة تقاليد جديدة للتمرد هو وحده الذي يحق له أن يعتبر نفسه في عداد اليسار الهدام [...] .

« يعرف الجميع أنه لا يكفي أن يستهلك المرء بصورة انتقائية معرفة مأخوذة من الكتب ، بل نحن نتطلب الروح والعقل والنفس الهادمة ، التي تمثل الكائن الهدام . وهذه تولد من معرفة الصلاحية المطلقة لمبادئ الديالكتيك وتفهمه للقانون الفيزيائي البيولوجي للتناقض الروحي والوجداني [...] .

« لأجل تعجيل وتيرة تطور المجموع ، ينبغي أن يكون ذلك مهمة نخبة لإيجاد المجال الحيوي لجميع إمكانات الإنساني ، جميع إمكانات البشري [...] .

« إن الإيمان بإمكانات الشيء البشري ، الإنساني لدى « الانسان الهدام »

l'homo subversivus يأتي من أمله في عالم أفضل . إن الشخص المستنير ، الصافي النظرة إلى المستقبل ، الذي سرعان ما نفذ ببصيرته إلى الآليات الخلابة الباهرة ، لهذا العالم القمعي ، ذلك الشخص الذي لا يكفيه أن يحقق تجريبياً داخل الشرذمة إمكانات الإنساني والبشري حالاً ، في حياته البشرية - هذا الشخص هو « الإنسان الهدام » l'homo subversivus [...] .

« سوف نظهر إذن على خشبة المسرح بمثابة أشخاص فتانين ؛ وسوف نعد الناس بالحصول على القمر - وسوف نبر بعودنا - » (١) .

وفي الكومونة رقم واحد ، التي جاءت بعد ذلك التاريخ بقليل ، لم يذهب قادتها بعيداً جداً في تحقيق هذه الوعود . لكن انتقاد ذلك ليس من هدف هذا الكتاب ؛ فحتى الآن ما يزال عدد لا يحصى من البرامج السياسية ، والبيانات الشيوعية تشارك الكومونة رقم واحد مصيرها .

والكومونة تستمد بالضبط من جهة أخرى منشأها من خيبة الأمل لفشل هذه البرامج والبيانات . ولا ينبغي كذلك أن نأخذ على واضعي unverbindliche Richtlinien أنهم لم يفهموا دائماً أسانذتهم ، من ماركس إلى أدورنو مروراً بفرويد . وسيكون ذلك بادىء بدء مأخذاً فيلولوجياً وليس سياسياً . ويبقى أنه يوجد عدد كاف من النظريين الذين فهموا جيداً ماركس وفرويد ؛ والحال فإنهم رفضوا على حد سواء إعطاء جواب على الأسئلة المطروحة في هذا الكتاب على صعيد « الدفاع ضد الإزالة القمعية للتسامي » ، وأن « الهدامين في بأسهم المبرر بصورة ملهوسة كانوا مجبرين تماماً على أن يطرحوا السؤال التالي : يتعلق

« unverbindliche Richtlinien » (١)

نشر ش. بالديني ، ر. غاشيه ، ود. كونزلمان . العدد الأول - ١٩٦٢ والعدد الثاني ١٩٦٣ .

الأمر بمعرفة ما إذا كانت مدرسة فرانكفورت بإعلانها المستمر بأرن الوضع الراهن لا مخرج منه ، قد أدركت جدلية هذه الموضوعة ، وما إذا كانت لا تحفي عن نفسها أهمية العمل بوساها المتمثل في التحليل الكامل ، الذي يشل حتى أم الأشخاص في المجتمع ^(١) . وسيكون من الخطأ كذلك أن نأخذ على الكومونة كون الهدامين الصياحين والمتبجحين ، قد تحلوا بسرعة فور انضمامهم إلى الكومونة عن مبدئهم في مقاومة المجتمع في كل مرة استطاعوا فيها أن يبيعوا قصة رخيصة عن « حياة الكومونة » لمجلات مصورة ولشركات التلفزيون وكانوا يعيشون عن حساب أولئك الذين كانوا يدعون أنهم يخوضون ضدهم نضالاً شاملاً ^(٢) . وهذا المأخذ لا يمس سوى بعض الأعضاء الضعاف في الكومونة الذين لا تشكل إداثتهم هدفاً سياسياً محترماً جداً .

إنها معروفة الوقائع والسيئات السياسية والشخصية لأعضاء الكومونة رقم واحد، ولا أنوي أن أضيف إلى الانتقاد البرجوازي وإلى الانتقاد الاشتراكي التقليدي ، انتقادي للحلول التي قدمها أعضاء الكومونة لمعضلاتهم الاجتماعية والجنسية . ذلك لأن ثمة خطراً بأن نخدم الحلول الخاطئة المقدمة للمنازعات بمثل الانتقادين الأولين المذكورين ، وإسقاطهم على الكومونة رقم واحد اعتداءاتهم هم أنفسهم وحالات كتبهم اللاواعية ومنازعاتهم النفسية والجنسية الخاصة ، وعلى هذا النحو يخلصون منها بسهولة . لكنني أنا أيضاً لن أتمكن من أن أجتنب تماماً من هذا الخطر .

فمن جهة ارتكبت الكومونة رقم واحد عدداً كبيراً جداً من الإساءات السياسية والنفسية بحيث لا يعود بالإمكان الاعتراف لها بنواياها الثورية وإنقاذ

unverbindliche Richtlinien no. 2 p. 22 (١)

(٢) إن المأخذ القائل بأن الكومونة رقم واحد تتراضى مع السلطات القائمة على النحو المذكور هو أساسي عند بروكتر وأمثاله . المرجع المذكور صفحة ١١٦ .

هذه النوايا ؛ ومن جهة أخرى فقد استطاعت الكومونة رقم واحد أن تعد طوال وقت لا بأس به بقمر مستدير وأمل نيرٍ ويمكن الحصول عليه ذلك ما وعدت به الفتيان اليساريين لكن إثر ذلك خيبت آمالهم بصورة فظيعة وخذعت هذه الآمال بحيث أنه - لأجل تلافي تكرار خيبات الأمل هذه - فيجب انتقادها على الصعيد الشخصي ، حينما تجمل هي ذاتها من الأشخاص عوامل للتححرر .

لقد وعدت الكومونة رقم واحد بإيجاد دواء للضعف العام لليبار ، وذلك في نموذج تنظيمي جديد راديكالياً وفريد من نوعه . وقد عملت كأنما كانت بالإمكان التغلب على التوتر الذي لا يحتمل والذي يعاني منه جميع « التعماء » بدرجات متفاوتة من الوعي ، مع وضعها بصورة فردية حداً له الإرغام على التفكير الدائم ، وإبداله بالعمل الذي يمنح الارتياح بادىء بدء للفرد . إن المفاهيم الجارية مكافحتها قد صنفت على أساس أنها « نظرية ماركسية مستلبة » ، الخ . وتوصف المفاهيم المعطاة بأنها « تسليات » وأشياء أخرى من هذا الطراز . وكلاهما هاجمان كثيراً من نواحي الضعف البنوية الملازمة للحركة الاشتراكية ولجمل الحركة المضادة للسلطة وللتحكم وللأسمالية . وفي هذا لا تختلف الكومونة رقم واحد عن سابقتها المديدات الفوضويات والانقلابيات التي كانت تمانى عن حق من الشكل البيروقراطي والمعجز الدبلوماسي والانتهازي للمنظمات السياسية ، والتي انفصلت عنها تلك الكومونات ، لكن التي كانت هذه تجاهاها عن خطأ بالمبدأ القائل بأن القضايا السياسية ستحل حينئذ دفعة واحدة ، شرط أن يستبق الثوريون الثورة بصورة جذرية كافية في حياتهم ذاتها . ويمكن أن نصف فشل كل الجماعات الانقلابية والفوضوية ، تقريباً - حينما لم تجر تصفيتها من قبل قوى الدولة القمعية ، أو الحزب الذي انشقت عنه - بصفته فشل الثوري الانقلابي والفوضوي في حل عمليات المقاومة الداخلية التي تتناقض مع ما فرضته هي على نفسها من متطلبات . إن المثال الأكثر مأساوية والأكثر

نموذجية لإيضاح ذلك هو نهاية بوريس ساوينكوف ، آخر قائد للمنظمة النضالية للحزب الثوري الاشتراكي في روسيا (١) .

إن الأعمال السياسية الفردية للكومونة ، مأخوذة واحدة فواحدة ، كثيراً ما أظهرت على حد سواء مقيدة ومحررة ، وضارة بالنسبة لمجمل حركة المعارضة . وسيكون في غير محله تماماً أن يؤخذ عليها أخطاء تكتيكية مختلفة أو انتقاد أو صورة الطلبة المعارضين على نحو ما أعطتها للرأي العام ، وعلى وجه التخصيص أنهم كلهم ملتحمون خاملون وقدررون . وكان لهذه الصورة أن تنشأ حتى بدون الكومونة وهي لم تكن سوى البؤرة الواضحة جداً لتكون الأفكار المسبقة . كذلك ليست الكومونة رقم واحد مسؤولة عن أنها حطت مراراً من سمعة أقصى اليسار وأقامت تمييزاً وذلك في مراحل المناقشة الراهنة وأنها أجبرتها على أن تخطو كثيراً من الخطوات إلى الوراء ، وكل ذلك بأعمال انعزالية . وهي تسأل عن حق ما إذا كانت غايات اللاتفات الجديدة ، الكثيرة والمعاجزة (في التظاهرات التقليدية) هي سياسية أم أنها بالعكس عقبة بوجه القضية المقدسة (١) . صحيح أنها تنكر عن خطأ جميع تناقضات سياستها الخاصة معيدة إيانا إلى إدفاع سياسة مجمل المعارضة خارج البرلمان (بما في ذلك سياسة الـ Asta (المنظمة الطلابية شبه النقابية) وسياسة الـ SDS - وهي تصفها بأنها تقليدية . والحكم القائل بأنها تمارس سياسة ثورية ذاتياً ، لكنها موضوعياً مضادة للثورة ، لا يمسها حقاً إلا حيث لا تلي المتطلب الذي يميزها عن باقي الحركة ، وأنها تلتقط

(١) انظر الرواية - السيرة بقلم « بوريس ساوينكوف » .

Roman eines terrorisen, Berlin, 1930 .

Rainer Langhans, selborarstellung der Kommune. (٢)

Fu - Spiegel, Ber , Fu - spiegel, Berlin ne. 57, Mai

1967 p. 6

قضية الوجود الثوري وتحملها اليوم لدى أعضائها .

كان أنصار « البرنامج المؤقت » يقولون بصورة صحيحة جداً ، وإن كانت موجزة بصورة فظيعة إلى حد التشويه : « إن القاسم المشترك الذي يقاطع الطموح إلى تحقيق الذات هو نفي النشاط الجنسي » وقد أعطوا على ذلك جواباً خاطئاً : « إن التمديات المتعلقة بالنسائي ، التي يقوم بها مدراء الأعمال في الميدان الجنسي لا يمكن كبحها إلا بنشاط جنسي مفعم بالعزم . وستكون مهمة « الشراذم » توسيع هذا النشاط بحيث يشمل جميع ميادين الحياة » . والجواب خاطئ . بسبب واقع وهو أن الإزالة القمعية للنسائي (« التمديات المتعلقة بالنسائي ») تستند إلى حالات الكبت الجنسية للفرد ، وعلى المكونات الجنسية لطبعه « المتكون فعلاً » ولن يمكن الخيلولة دون هذه التمديات ، بأعمال فردية ، وبالتأكيد ليس دفعة واحدة . لقد أخذت الكومونة رقم واحد في الحسبان وضع الأمر على هذا النحو ، بصورة ما - هي خاطئة في هذا السياق . قالكومونة الأولى (وعلى الأخص الثانية التي نشأت بعد ذلك في برلين الغربية) كان عليها مع ذلك أن تكمل مجدداً الأعمال بالتفكير . وحدث ذلك على الأخص في شكل اجتماعات على أساس الجماعة groupe تبيناً لنموذج العلاج التحليلي النفسي على أساس الجماعة . وكما كانت الحال في النموذج التحليلي النفسي ، كانت تتجسد كذلك في الكومونتين الأولى والثانية بصورة جلية جداً ، حسب أقوال الأعضاء الذين تركوها ، النزعة التالية ، الصعب اجتيازها : إن القسم من الجماعة الأكثر استقراراً ، نفسياً ، (الأصح أو الأسلم) يستفيد استقراره على حساب الجانب غير المستقر نفسياً ، مع إسقاط القسم الأول حالات كبته هو نفسه ، وتكويناته الارتكاسية ، على القسم الثاني . وستبرز هذه النزعة بصورة أقوى لدى مجموعة من المثقفين الفتيان ، وستكون لها نتائج أكثر قسوة لاسيما حين يكون هؤلاء المراهقون على معرفة إلى هذا الحد أو ذاك ، بالتحليل النفسي ، وأن باستطاعتهم إذن استعمال مقولاته ، وعلى هذا النحو تمثيل دور « المحللين » ،

في حين أنه لا يوجد بينهم في الواقع محلل حقيقي ، يستطيع أن يكتشف لدى قسم الجماعة ، الأقوى ، حالات الكبت والتكونات الارتكاسية ويقضي عليها .

إن انتقاد الكومونة رقم واحد ، مهها بدا ذلك مستغرباً ، هو انتقاد نزعتها البرودونية و الستالينية . لقد ادعت البرودونية أن بالإمكان تكوين جزر صغيرة شيوعية ، داخل الدولة الرأسمالية سيكون بوسعها - أي تلك الجزر - أن تعمل حسب النموذج الشيوعي وتسبق في هذا الإطار ، الثورة ، مرهضة بها . أما الستالينية من جهتها ، فتدعي أن « الاشتراكية في بلد واحد ، هو الاتحاد السوفياتي ، تشع قوة مضيئة جداً ونموذجية جداً ، إلى حد يتمنى معه شغلة البلدان الرأسمالية «محاكاته» . إن مجمل النظرة السوفياتية للثورة ما تزال تعيش حتى اليوم . هذا الاعتقاد . إن الكومونة رقم واحد هي ، في نظريتها أكثر سداجة أيضاً من البرودونية ، أما في ممارستها - بالنسبة لوسائلها المحدودة - فهي إزاء أعضائها تماثل الستالينية إرهابية . إن نموذج الثورة لدى الكومونة رقم واحد يقتصر على « اشتراكية في منزل واحد » . وهذا يعني لدى نقله إلى الصعيد البيكولوجي الذي ندرسه هنا : ان الكومونة تقيم معايير «شيوعية» لأعضائها وتلغي « الرأسمالية » حالاً وسريعاً بالنسبة لنفسها وقد أخفق هذا البرنامج . إن هذا الموقف الثوري ذاتياً يصبح موضوعياً مضاداً للثورة هناك حيث يولد الأمل لدى اليساريين الفتيان « الذين يحسون بأنهم نساء » ، الأمل بأن جميع أمنياتهم يمكن أن تتحقق اليوم وجميع آلامهم أن تلغى اليوم . وفي كثير من عمليات تقليد الكومونة رقم واحد في المانيا الاتحادية أدت خيبة هذا الأمل إلى حالات اكتئاب نفسية شديدة التشويش وصلت إلى حد الانهيارات العصبية أو ، حيث أمكن اجتناب هذه الحالات ، فقد أدت خيبة الأمل تلك إلى انتهاج سلوك شديد الرضوخ . ويمكن إيضاح هذه الظاهرة بمثال « العلاقة القمعية بين اثنين » تؤكد الكومونة رقم واحد ، دون أن تبرهن في

في هذه الناحية بأن جميع العلاقات الجنسية بين شخصين هي قمعية ، لأن هذه العلاقات مقفلة ، محدودة ، وهي تعارض إنشاء وحدات تعاونية أكبر. وسنعود لتحدث بالتفصيل عن هذا التأكيد في الفصل من هذا الكتاب ، المكرس للإخلاص والحب . وهاكم ما يمكن قوله بهذا الصدد في الوقت الحاضر: من جهة ، لا يمكن إصدار قرار بتخطئة الحل الذي اقترحته الكومونة رقم واحد - أي إبدال العلاقات الأثينية القمعية بوحدات أكثر مرونة تمارس فيها العلاقات الجنسية الجماعية ، لا يمكن تخطئة ذلك الحل بالاستناد فقط إلى الواقع - وهو واقع صحيح على كل حال ، وقد أثبت مراراً عديدة - بأن ذلك الحل لم ينجح إلا في إنشاء علاقات جنسية تتصف بقمع جنسي أكبر أيضاً من ذلك الذي يسيطر عادة على العلاقات بين شخصين ، وإن تلك الأحداث قد عرفت دائماً نفس المصير : اثنان من أعضاء الكومونة يلتقيان ، ويتحابان ويتركان الكومونة . ومن جهة أخرى فمن الخطأ أن نستخلص الطابع القمعي العام للعلاقات بين شخصين (وكذلك للعلاقات بين شخصين التي تستمر طوال الحياة) من القمع الواهن المؤسس تاريخياً الذي يسيطر على أغلب العلاقات الجنسية .

كانت الكومونة رقم واحد تريد أن تدمر الأخلاقية الجنسية القمعية؛ وكانت تعارضها بأخلاقية تجريدية ، تحريرية ؛ ولكن لم يكن من الممكن إلا أن تفرض هذه الأخلاقية ، في الحال على الأشخاص الذين لا يعانون فقط نير الأخلاقية القديمة بل لقد تم تكوينهم تكويناً تاماً من قبل هذه الأخلاقية . كانت أعضاء الكومونة يقولون : لا نريد أن نستمر زمناً أطول في الخضوع للزواج الأحادي القمعي ولا لتنوعاته المختلفة وبديلاته في الأوساط الطلابية . وكان عليهم ، بالمقابل ، أن يرضخوا لمتطلبات الممارسة الجنسية الجماعية التي لم يكونوا ممددين من أجلها نفسياً ، ولذلك اضطروا بكل تأكيد إلى التألم والمعاناة من هذا الوضع ، إنهم بصورة ما يمارسون نزعة تزهدي ذات علاقة بفترة البلوغ . وهم يرضخون لفسر مجرد ولكن لا يتمكون به ، لأنه لا يطابق بنيتهم النفسية (علاقة

الأنا والانفعال اللاواعي) ، لكنه ليس سوى شيء مضاف مجدداً . وبالتالي فقط كان لا بد لطريقة حياتهم من أن تؤدي إلى ممارسات ارهابية - موجهة ضد هم أنفسهم . وحتى ولو كان عشر ما يذيعونه خلال المقابلات الصحفية وحده صحيحاً ، فمن شأن ذلك أن يعني أنهم لم يحيثوا لأنفسهم بعمليات القمع الاجتماعية الجارية المعنادة على مستوى عمليات القسر القمعية وعمليات الكبت التي ما تزال ضرورية بصورة مباشرة للعبث ، بل لقد استبدلوا بها أنظمة إرغام أكثر قسوة بكثير أيضاً :

« يحدث الأمر كما يحدث بالنسبة لترويض الحيول . بادية بده يجب أن يمتطي شخص ما الحيوان لأول مرة وإثر ذلك يستطيع كل شخص أن يتصرف بالحيوان . بادية بده يتعلق الأمر بحب أو بشيء مماثل ثم يصبح الأمر مجرد لذة . وليس في الأمر لعبة سحرية غامضة : في البدء يبث الحب في نفس فتاة بحيث تصبح عاشقة وينام الشاب معها ، وبعد فترة معينة يتصنع الشاب هيئة المصاب بخيبة أمل ، اللامبالي . ثم تترك الفتاة لاهتمام الآخرين وتكون اللعبة قد لعبت وهكذا تصبح الفتاة عضواً كامل العضوية ، (١) .

إن تصريح لانفهانس : « لقد فقدت قضايا الحياة الجنسية في حياة الكومونة طابعها المتشجع ، ينبغي إذاً أن يفهم على النحو التالي :

إننا لم ننجح في تحقيق الانفراج بالطابع المتشجع لحياتنا الجنسية في علاقاتنا الإثنية ، لذلك فقد حاولنا التوصل الى هذا الأمر بواسطة الكومونة . إن التظاهرات المتشددة ظاهرياً والثورية في ميدان الحياة الجنسية إنما تشابه عملية التبجح الملاحظة في واجهة العلاقة الجنسية العضوية - والمائلة للسلوك الاستقرائي للرجال والنساء الأميركيين الذين يمارسون العملية الجنسية الجماعية

القسرية^(١) والحال فإن التفسير الوحيد لهذا التبجح يمكن أن يكون تقريباً :
محاولة لكبت رغبات إشتهاء المائل ، التي ظلت (حسبما يقال) محرمة بصورة
ذات دلالة في الكومونة رقم واحد .

كانت الكومونة رقم واحد أكثر من ذلك أيضاً . لقد كانت تريد تدمير
مجمل الحضارة البورجوازية ووضع هذا التصميم قيد التطبيق حالاً وسريعاً لدى
أعضاء هذه الكومونة ، وهي تشارك في هذه الفكرة الأكثرية الساحقة حتى
الجماعات الثانوية للفتيان المتجذرين . وهذه الفكرة لا تتجدد لأول وهلة لدى
هذه المجموعات إلا في رفض صفات الطبع البورجوازي وسماته كالأمانة ،
والانضباط والسلطة العقلانية ، وحتى الإخلاص يؤدي على هذا النحو إلى
إهمالها . إن واقع أن هؤلاء يظنون مصرين سواء في الرفض الفردي المعادي
للطابع الأبوي ضد عائلة كل منهم الخاصة ، أو ضد معاييرها ، لا ينبغي أن يخفي
عنا الخطر الذي تنطوي عليه عمليات الاحتجاج والتخلي هذه ، وهو أن مقاومة
الفتيان للإزالة القمعية للتسامي تخف أكثر فأكثر . وعلى كل حال فإن تكون
أنا قوي والقدرة على التسامي مرتبطان بهذه الصفات البورجوازية ولا ينبغي
أن نخلط بين تدميرها ، وبالضبط حين يجري ذلك في اليسار ، وبين تخطيها .
وهذا الأخير يشكل جزءاً من برنامج الاشتراكية ، في حين أن الأول هو عنصر
مكون من عناصر الأزالة القمعية للتسامي .

إن موقف جماعات الفتيان الراضة هذا الموقف المعادي للبورجوازية
والمضاد للمؤسسات هو عنصر مكون من عناصر سياسة تلك الجماعات والتي
بدونه سرعان ما تمتص هذه الجماعات أو تنفكك . لكن هذا الموقف في أغلب

(١) كوزلمان « باردون » المرجع المذكور ، الصفحتان ١٧ و ٢١ : « ألأني صعوبات في
الانتماظ (بلوغ ذرة التمتع الجنسية) وأريد اطلاع الجمهور على هذه الصعوبات ، إن الخطأ هو
إقامة علاقة بين شخصين ، وهي حل بورجوازي ورمهي تكون نتيجته الوحيدة حثين . »

الحالات الفردية ما يزال مثبتاً بقوة بالبنية العائلية الأبوية (البطريركية) ، بما أنه قد نشأ من النضال ضد هذه البنية . وهكذا فإن شيئاً ما إرغامياً ورومياً يظل مرتبطاً بهذا النضال . هذا الموقف ذاته يحتوي على تناقض داخلي : إنه لا يكف عن تجسيد ذاته بذاته وهكذا فمن الضروري مثلاً مكافحة جميع الأشكال المتحجرة للبيروقراطية ولجميع آليات الإدماج المؤسسي لدى نظام السيطرة ولدى منظماتنا . ولكن من الضارّ إلى أقصى حد في الوقت نفسه أن يكافح فردياً وجماعياً كل انضباط لدى المرء ولدى الآخرين بصفتها آليتين شرعيتين أو طابعتين بيروقراطيتين وإبدالها بمبدأ رفضي مضاد للشرحية ، ليس فعالاً سوى من وجهة نظر فردية . إن عواقب هذا المبدأ هي مدمرة بالنسبة لحركة الرفض بأسرها المعادية للمؤسسات . إن حالات كبت عصابية يجمد العمل تُعقلن بصفتها عمليات رفض للإرغام الدراسي المفروض من الخارج ؛ إن التظاهرات السيئة التنظيم ، والإعلانات (الأفيشات) السيئة الإصاق التي يستطيع كل شخص انتزاعها ، وجميع ما يدعى لعقلها في وقت متأخر جداً وتكون غير محضرة ، هذه الأمور هي أشياء معتادة تمارس يومياً لدى الجماعات المناهضة للسلطة .

إن الحضارة البورجوازية لا تتصف فقط بالقمع وبالتكليف التضليلي المزيف ، هذين الأمرين السائدين . بل إنها تحتوي أيضاً على جماع كل الصفات المكتسبة والمحصلة اجتماعياً ، والتي تتجسد في السيطرة على الطبيعة ، وفي لغة التخاطب وفي الفكر ، وفي التأمل الفكري وفي السيطرة على الجسم . إن الممثلين الراهنين للحضارة البورجوازية يدمرون بصورة منهجية جميع العناصر التي وإن كانت قد تكونت في إطار المجتمع الراهن فإنها تهدف إلى تحطيم القيود الاجتماعية ولو بمجرد اعتراف بحقيقة هذه القيود . إن الإزالة القمعية للتسامي لا تعني ، من وجهة مادية ، شيئاً سوى خفض مستوى من الحضارة تم بلوغه فعلاً ، أي خفض لمستوى التسامي . من لا تقوم الكومونة إلا بتمثيلها على أوضح وجه نزعاً محتواة ضمنياً في مجمل حركة الرفض المناهضة للمؤسسات والمناهضة للسلطة ،

في البلدان الرأسمالية الحالية : وهذه النزعة تتمثل في معرفة معارضة تدمير الحضارة التكنولوجية والتوجيهية المزيفة والمقودة من فوق وعن بعد بنمط من تدمير هذه الحضارة ، منبثق من القاعدة ، وهو نمط يذكرنا بحركة محطمي الآلات . وسيعني هذا في أسوأ حال ، من جهة ، صيانة التكييف التوجيهي القمعي المزيف الذي تمارسه هذه الحضارة ، ومن جهة أخرى تدمير جميع العناصر الإيجابية لهذه الحضارة ، هذه العناصر التي يجب صيانتها بأي ثمن كان لأجل إتاحة بناء حضارة تكون من جهتها قادرة على تحطيم الحضارة البورجوازية .

وعلى أساس التجارب والمحاولات التي قامت بها حتى الآن بعض الكومونات ولا سيما الطلابية يمكن أن نستخلص بعض الاستنتاجات التالية :

(١) يعتبر كثير من الطلبة والشغلة الفتيان والتلامذة أن من الأحكم سياسياً أن يتجمعوا في تجمعات سكنية ، وذلك أصح من البقاء خاضعين لجود دور الطلبة المثير لداء العصاب والجو المائل في الدور المخصصة للعازبين والغرف المفروشة أو المنزل العائلي الكثيب ، فباستطاعة أولئك في التجمعات السكنية المنظمة من قبلهم أن يتحملوا عند الاقتضاء بصورة أفضل وأن يكافحوا الضغط الاجتماعي والنفسي الذين يكونون أكثر تعرضاً له وهم أفراد منعزلون .

(٢) إن كل إعادة تجميع تشبه ولو من بعيد « كومونة » ينبغي لها أن تنطلق من واقع أنه ليس من المهمة الراهنة « للكومونة » أن تحل المجموع الشامل الكلي للقضايا الشخصية والنفسية لأفرادها ، والتغلب على نواحي الضعف السياسية التي تعاني منها حركة المعارضة . ولكن ينبغي أن نحدد بدقة شديدة كل كومونة بصفتها وحدة وظيفية قادرة على حد سواء على زيادة الفعالية السياسية لأعضائها وتسهيل حياتهم النفسية .

(٣) إن برامج مثل إلغاء العلاقات الجنسية بين شخصين وحسب ، واعتماد علاقات رخوة ، وعلاقات ممارسات جنسية جماعية ، وتركيز علاقات جنسية

جماعية وطيدة نسبياً لزم من محدد، وإدماج أزواج من الجنسين أو عائلات في إطار كومونة أكثر أهمية - هي كلها برامج لا يمكن مناقشتها اليوم منهجياً ، ناهيك بالمقدرة على إدراجها في مشروع كومونة عامة . وحيناً أمكن ولادة مثل هذه العلاقات فإنها لا ينبغي أن تنشأ إلا عفوية ، من سياق الكومونة نفسها لا من برنامج ممكن اعتباره مفروضاً فرضاً بصورة كيفية ، وهو على الأخص يولد مقداراً أقل من حالات المرض العصبية على نحو لا يستطيع أن يطابق بنيتها النفسية وأقل ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن علاقة جنسية بين شخصين وحسب لفترة محددة أو لمدي الحياة وتكون هذه العلاقة ناجحة سميدة نسبياً ، هي أقل قعية بشكل واضح ، وهي تولد على الأخص مقداراً من العصاب أقل مما يولده الإرغام على إقامة علاقات جنسية جماعية ، حتى ولو كانت هذه تظهر تحت قناع التحرر والثورة الجنسية .

(٤) ان نمط الكومونة الوحيد الذي يمكن تصوره اليوم لا يحقق بأي حال من الأحوال تجاوزاً للبنية العائلية . بادىء بدء يمكن الحديث فقط عن نجاح ما ، حين تحقق الكومونة ، فقط ما يشكل جزءاً في الحقيقة من الوظائف الإيجابية للعائلة البورجوازية ، ولكن ما لم يعد يستطيع تأمينه أغلب العائلات الحالية هو : تقديم حماية ضد الوسط المحيط المعادي . ومن السخافة والعبث والخطأ ارادة معارضة تدمير العائلة من فوق بتدمير العائلة من تحت . والنتيجة الوحيدة التي تحصل في الحياة العملية ، وذلك ما أثبتته جيداً كومونات للفتيان في المانيا الاتحادية ، هو تعزيز الوظائف الأكثر سلبية للعائلة الحالية (نزعة ارهابية موجهة ضد أعضائها) ، والنقص والإدقاع التامان من حيث الوظائف الإيجابية التقليدية (الحماية ضد العالم الخارجي) .

(٥) ان الكومونة كما جرى تعريفها هنا محددة في الزمن بالفترة الانتقالية بين سن المراهقة وسن الرشد . وأثناء هذه الفترة يمكن أن تظلم الكومونة ببعض

المهام الهامة بصورة خاصة والضرورية للدفاع ضد حالات داء العصاب وضد الإزالة القمعية للتسامي . ولعل هذا التحديد في الزمن أن يبدو قمعياً بصورة غريبة وهو كذلك فعلياً بصورة ما - إذا ما استندنا بثباته معيار الى مفهوم لتجمع من الأشخاص الأحرار مستقل النشاط والفعالية . الا أن المقترحات التي تنص عليها الكومونة في هذا الصدد تقوم بكاملها على مستوى ذرائعي للدفاع ضد الإزالة القمعية للتسامي وضد حالات العصاب . وفي هذا السياق يجب أن يؤخذ في الحسبان بادىء بدء أن علاقة معينة بين التطور النفساني الفردي وحالات الإرغام الاجتماعية الخارجية تشمل الأشخاص الذين يريدون الاشتراك بنشاط في صراع الطبقات . ويجب تحديد هذه العلاقة دون أن نهمل ، بين عناصر أخرى ، الحاجات الأولية المطابقة لسن كل فرد من الأفراد بذاته .

(٦) إن نط الكومونة ، الذي قدمنا صورة أولية له هنا ، لا يستطيع إلا بصعوبة ، أو لا يستطيع مطلقاً ، أن يضطلع بالوظيفة التقليدية للعائلة : تنشئة الأولاد . ، إن كل نزعة هوائية في عملية تطور المجتمع socialisatoin شيء مشؤوم النتائج ، إن عبارة بروكتر هذه ^(١) يجب أن تأخذ بمجدي كبيرة . إننا لا نجد مثلاً واحداً ، في مجمل البلدان الصناعية العالية التطور ، لا نجد مثلاً لنموذج وضع قيد التطبيق لمجموعة لأولاد صفار ، تحقق خارج العائلة . وكان من شأنه تقديم نتائج أكثر نجاحاً بصورة واضحة من الحالات ، الناجحة نسبياً ، على نحو وسطي ، حيث المجموعة تكون قد جرت في العائلة ، على يدي أبوين طبيعيين أو قادرين على الحب ، وحيث تتمتع العائلة بشروط معيشة ملائمة نسبياً (حياة اقتصادية مؤمنة ، توفر شروط السكن ، توزيع دوري الأبوين ، الوقت الذي تستطيع الأم وضعه تحت تصرف الولد) . إن المثال النموذجي الذي يشهد لصالح تربية جماعية غير قمعية ، والذي يستند إليه بلا انقطاع

(١) بروكتر ، المرجع المذكور - ص ١٨٤

اليسار التقدمي ، وهو دار « أولاد سومر هيل الأحرار » ،^(١) ، يظهر نواحي الضعف التالية :

- إن الأولاد لا يدخلون بصورة عامة إلى الدار قبل بلوغهم السادسة من أعمارهم وهم يأتون في أغليبيتهم الكبيرة ، من عائلات الفئات الوسطى ، حيث العلاقات العائلية وتقنيات التربية هي أكثر عقلانية وأقل قمعية من المعدل الوسطي .

- لا يوجد هولاء الأولاد في كومونة اشخاص راشدين بل في بيت للأطفال مزود بمربين راشدين .

- إن النسبة المثوية لحالات الإعياء النفسي المائلة لداء الذهان بين الأولاد الذين يفادرون سومر هيل هي بصورة واضحة كما يبدو أكثر ارتفاعاً منها بين كل الجماعات الأخرى المشابهة ، من الفتيان . ولا بد أن هذا يعود إلى واقع أن فتيان سومر هيل لم يتعلموا أن يجابهوا المؤسسات الاجتماعية القمعية ولذلك فإنهم لا يملكون سوى درجة منخفضة جداً لتحمل الإيذاء أو الحرمان - وهي نسبة منخفضة جداً بالنسبة للمجتمع الراهن . وهؤلاء المراهقون لم يكتسبوا في سومر هيل عدداً معيناً من المؤهلات الأولية التي يحتاجون إليها لكي يجابهوا العالم الخارجي أو يتكيفوا معه ، هذا العالم الذي يحسونه هم بصفته معادياً جداً ومهدداً وقمياً .

هذا الانتقاد موسع بالتفصيل في دراسة لريتا أوفيه^(٢) .

(١) الكسندر من ، نايل « أولاد سومر هيل الأحرار » ماسبيرو (مجموعة « استناداً إلى النصوص ») عام ١٩٧٠ .

(٢) Rita Off, Der Triebtheorie Wilhelm Reiches zu einem modell repressionsfrier Erziehung, Francort, 1966. (غير مطبوع)

ورغم هذه اللائحة من الشروط والتضييقات لأجل بناء الكومونات حالياً ، فإن الوظيفة الاستباقية الطوباوية ، التي هي خاصية جوهرية للكومونة ، تظل ماثلة لا تزول .

ولكي تتمكن الكومونات من أن تضطلع حقاً بهذه الوظيفة فإن بعض الانجازات الملائمة هي ضرورية اليوم بالضبط ؛ فإذا ما فقدت هذه الإنجازات فإن كل المحتوى الطوباوي سوف ينحط متحولاً إلى نفاية مثالية أو أنه سيتحول إلى خضوع أو وقاحة . لقد أعلنت الكومونة رقم واحد بمثابة مبدأ أسمى : إن الممارسة السياسية لكل عضو من أعضاء الكومونة يجب أن يكون مرتبطاً باستمرار وبصورة ملموسة بالتلبية المباشرة الفورية لحاجاته هو نفسه . لقد قال كوتزلمان : « ما علاقتي بحرب الفيتنام ما دمت أعاني صعوبات في بلوغي الانتعاش ؟ (ذروة المتعة الجنسية) ، ونحن نرد عليه قائلين : إن إنشاء معارضة قوية في المتروبولات الرأسمالية ، العالية التطور ضد حرب الفيتنام ، وإزالة صعوبات القذف ، صعوبات بلوغ ذروة المتعة الجنسية ، لها شرط مسبق مشترك ، وهو الكفاح ضد أمراض العصاب وضد الإزالة القمعية للتسامي . فإنه لا يمكن استبعاد صعوبات الانتعاش ، بالمحاولة الدائمة والمستمرة للحصول على الانتعاش كما أنه لا يمكن إنشاء معارضة ضد حرب فيتنام بالاستشهاد دائماً باستمرار بأقوال لينين ولوكاتش . إن تحقيقاً عملياً للهدفين يكون مرضياً للفرد كذلك لا يمكن أن يتطور إلا على أعلى درجة عالية من العمل المنضبط والعفوية المرنة ، والتسامي بالرغبات والفرائض الجنسية ، وعلى أساس حرية الرغبة الجنسية ، والوعي الطوباوي و قدرة قوية في السيطرة على الواقع (realitätstüchtigkeit) .

الحب والاخلاص

الحب وال إخلاص هما من سمات الطبائع البورجوازية بصورة نموذجية . لقد

وصفنا في الفصول السابقة بنية الطبع الضرورية لتكوين هذه السمات ، على الخصوص بمثابة بنية للأنا ، متميزة . إن بنية الأنا هذه ، المكتسبة في إطار الحضارة ، لم يكن باستطاعتها ، بدورها أن تتطور إلا في نظام اجتماعي للانتاج ، عالي التميز والتنوع ، الذي من جهة أخرى لا يمكن السيطرة عليه بدون هذه البنية . ولدى التفكير بمقولات سيكولوجية يمكن القول ان الحب والإخلاص لم يوضعا باتصال مع النشاط الجنسي إلا في فترة متأخرة نسبياً من عملية نشوء الحب . إن معرفتنا للحياة الغرامية وجمهير السكان الواسعة قبل نهاية القرن التاسع عشر ليست سوى جزئية . ولعل حياة الحب تلك اضطرت لأن تكون ، لأجل أسباب اجتماعية - اقتصادية ، أقل إنسانية أيضاً من الحياة الغرامية للفئات المسيطرة في كل عصر من العصور . لكن ما نقل إلينا عن الفئات المسيطرة في عهود اجتماعية قديمة يعطينا الانطباع بأن المثليين الراشدين لتلك الفئات قد تصرفوا في الواقع على نحو ما يتصرف الأطفال فقط في أيامنا ، وعلى وجه التخصيص بالنسبة لتصوراتهم الحادعة ما قبل الأوديبية ، والأوديبية - التخلي عن الزوجات والعشيقات المزعجات ، وتقطيع رؤوس المنافسين، ونفي أزواج العشيقات إلى الجزر النائية ، وإصعاد الأغراض الجنسية المشتهاة ، فوراً ومباشرة من الشارع إلى المخدع ، الخ . و فقط في عملية تطور استمرت أكثر من ألف عام جرى استبطان متطلبات الزواج الأحادي المستمد من الحق الروماني الحالي من إمكانية الطلاق ، وتحقيق ذلك الاستبطان الى درجة أصبحت معها تلك المتطلبات أحد مقومات الأخلاقية الجنسية لحضارتنا . ولأجل التوصل الى ذلك أصبح من الضروري منذ بدء العصر الوسيط أن تشن موجات متعاقبة من التشدد وفرض الحشمة ولو المصطنعة وأوسع ما يمكن من القمع الجنسي . لكن هذه الظواهرات لم تكن تمس سوى بعض جماعات الطبقة الحاكمة (كبار رجال الكهنوت والأشراف) أو فقط الجمهير المسيطر عليها . وكانت تلك الأعمال بصورة عامة تفرض بوحشية ارهابية لا مثيل لها . ولكن قصر مدتها يتيح لنا أن نرى كم كانت هذه الظواهرات قليلة العمق . إذ أنها كانت تنتهي بانتظام إما

بعد مضي جيل وإما بعد وفاة ملك ذلك العهد الذي استثارها. ولم تحدث تغيرات أساسية في هذا الميدان أيضاً إلا بعد رسوخ أركان النظام الاجتماعي الرأسمالي .

في فرنسا ما قبل الثورة وفي ظل لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر طورت البورجوازية ضد الطبقة الحاكمة ، أخلاقيتها الجنسية والزوجية - الحازمة والمتصلبة في وقت معاً وفيما بعد أصبحت هذه الأخلاقية عاملاً سياسياً واجتماعياً فيزيولوجياً هاماً لانتصارها على المبدأ الاقطاعي . لقد كان البورجوازيون أكثر أخلاقية وكان ذلك يعني قبل كل شيء أنهم كانوا أكثر سلامة ونقاء من طبقة أشرف العهد القديم . لقد جمعت البورجوازية الحب والزواج والنشاط الجنسي في مثلث فولاذي شبه طبيعي ، أصبحت العائلة في داخله حقاً « خلية الدولة » في عهد الرأسمالية عند ولادتها وفي ذروتها . لقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب القسر النوعي الذي كان منذ البدء يخضع الحب والزواج والحياة الجنسية ويشوهها . لكن هذا القسر كان ضرورياً لأجل فرض النظام الاجتماعي الجديد . لذلك فإن البورجوازية ، وباسم الضرورة ذاتها ، سرعان ما أظهرت عدم تضامنها في التشريع كما في طريقة العيش ، مع جميع الحركات الطوباوية ، الثورية أو الإصلاحية التي ولدت مع الثورة الفرنسية وبعدها ، تلك الحركات التي أخضعت لانتقاد قاس ركاثر مؤسسة الزواج نفسها وأنماط الحياة الجنسية السائدة . ولم تكن البورجوازية تتحمل الناطقين باسم هذه الحركات إلا في صالوناتها ، الأدبية سواء كان الأمر يتعلق بروسو أو بستندال وبلزاك وجورج صاند ، في عهد حكومة المديرين .

إن المثلث القمعي الحب - الحياة الجنسية - والزواج الذي صاغته البورجوازية قد أخضع في المناقشة التحليلية النفسية ذات الاتجاه الماركسي ، قبل قيام الفاشية ، لانتقاد أساسي على الصعيد النظري لكنه عاجز على الصعيد العملي . لقد حدد ويلهلم رايش وظيفة الزواج الاجتماعية بثلاث طرق مختلفة: اقتصادياً ، سياسياً ، واجتماعياً .

اقتصادياً، كما أن الزواج بدأ بالتطور في التاريخ مع الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، فإنه يؤسس وجوده المادي على هذه القاعدة المادية الخاصة به. وهذا يعني: أنه ما دامت ستبقى ثمة ملكية خاصة لوسائل الإنتاج، فإن الزواج سيكون ضرورة اجتماعية، أي ستكون له وظيفة اجتماعية. أما أن هناك طبقات مختلفة المصالح، تعيش أيضاً على نفس النمط الجنسي، فلا يشكل ذلك اعتراضاً راسخ الأساس، ذلك لأن الإيديولوجيات السائدة في كل عهد هي إيديولوجيات الطبقة السائدة. إن شكل الزواج لا ينبع فقط من أساسه المادي بل أنه مدعوم بالمفاهيم الخلقية للجو الإيديولوجي وبالبنية الانسانية المتصفة بالفلق أمام الحياة.

سياسياً: إن الزواج الأحادي النهائي يشكل نواة العائلة المصرية التي هي مكان التكوين الإيديولوجي لكل عضو من أعضاء المجتمع التحكيمي؛ إذ فإن له مدلولاً ودوراً سياسيين.

اجتماعياً: يضمن الزواج، من جهة، تبعية المرأة والأولاد، الاقتصادية، وهي سمة رئيسية للمهد الأبوي (البطريكي) ومن جهة أخرى، حمايتهم الاقتصادية والخلقية (على أساس المصالح الأبوية والبطريكية)، وبالتالي فإن المجتمع الأبوي (البطريكي) لا بد له بالضرورة من أن يحافظ على الزواج القسري^(١).

لذلك لاحظ و. رايش أيضاً أن كل اقتراح إصلاحى يتعلق بالزواج في إطار النظام الرأسمالي - مهما كان ذلك الاقتراح تقديمياً، يتضمن عنصراً متناقضاً. هذا المنصر يوجد مجدداً على الأخص في نموذج تحطمي الزواج الذي قدمه و. رايش نفسه، أي في العلاقة الجنسية الممتدة خلال فترة محددة. ومثل هذه العلاقة يجب أن تكون، حسب رأي رايش، قادرة على التغلب منذ

(١) و. رايش: «الثورة الجنسية»، المرجع المذكور. الصفحات ٢٠٥ إلى ٢٠٦

العهد الرأسمالي على عوامل الزواج القسري الضارة جنسياً وسياسياً . وهي في الوقت ذاته نموذج لضبط العلاقات الجنسية والانفعالية والاقتصادية في مجتمع حر . وما هو طريف وقد وفي الوقت نفسه إشكالي إلى أقصى حد ، في هذا النموذج ، هو أنه لا يستنفد قواه في نصائح إصلاحية أو ثورية ، بل يقوم على « أساس الضبط الذاتي من جانب الاقتصاد الجنسي » كما يصفه رايش . وهو يقصد بذلك نوعاً من نظام أحيائي آلي (سيبرنتيكي cybernétique) للسيطرة على قضايا الواقع الاجتماعي بأسره . والعنصر « الضابط » لهذا النظام هو « جريان الليبدو » ، المحرر في القيام بصورة مكتملة بالعملية الجنسية التناسلية . إن النشاط الجنسي الذي يتطور بحرية يتخلص هو بذاته من عوائق الرغبات الجنسية الجزئية ، الماقبل التناسلية . وتفقد حينئذ تلقائياً الفرائز الجنسية المدمرة ، إمكانية أن تتخذ صيغة عدوانية أو معادية ، للنشاط الجنسي ، وهي تترك نفسها تَمْتَصّ دون إرغام في النشاطات النافعة اجتماعياً ، ويصوغ حينئذ بلا إرغام ، الطبع « القوي » ، القادر على الحب ، والملائم للنشاط الجنسي ^(١) ، يصوغ القدرة على الارتباط الأحادي لفترة زمنية محدودة ، ذلك لأن الإرغام على الزواج المتعدد العصايي ، (الدونجوانية) تماماً شأن الإرغام على زواج أحادي معين (الفيرة الامتلاكية ، والتبلورات الماقبل الأوديبية) الخ ، تفقد أساسها .

إن « العلاقة الجنسية الطويلة الأمد » لا تكون عرضة إلا لتناقص القوة الطبيعي مع مرور الزمن (Abstumpfung) ^(٢) وستنتهي أخيراً في التالي مع حد أدنى من عمليات القسر وحالات الحرمان والقلق . إن ثنوية الغريزة الجنسية / غريزة التدمير ، تلك التي شغلت تفكير فرويد إلى حد كبير حتى نهاية حياته ، وإثر ذلك شغلت أفكار باركوز أيضاً ، هي في نظر و. رايش

(١) المرجع ذاته ص ٦١ .

(٢) المرجع ذاته ص ١٩٥ .

قضية مثالية مزيفة . ذلك لأن القدرة الشهوانية الجنسية العارمة أو الزخم الجنسي (الليبدو) الذي يتطور بحرية ، يضم في ذاته آلية ثبات الشخص ، وتحقيق استقراره ، هذه الآلية التي تتيح له السيطرة على الواقع (Realitätstücht gkcit) . إن غريزة التدمير لا يمكن أن تتطور إلاّ ضد غريزة جنسية قلقلة ألمّ بها الوهن . وعلى هذا الأساس ، فإن أخلاقيّة جنسية - رأسمالية كانت أم اشتراكية - من شأنها أن تعارض النشاط الجنسي ستصبح غير ذات جدوى : « فمن الواضح إذن أن مبدأ الضبط الخلقى يتعارض مع مبدأ الضبط الذاتى التلقائى بواسطة الاقتصاد الجنسي » (١) .

لقد حاولت أن أثبت انطلافاً من مظاهر متعددة ومختلفة جداً أن تحرير الحياة الجنسية التناسلية لا يمكن اعتباره بمثابة الفترة الثورية الحاسمة ، سواء اجتماعياً أم جنسياً ، على نحو ما كان يرى رايش في هذا التحرر . أكيد أن ويلهم رايش قد استطاع أن يأمل من تحرير النشاط الجنسي التناسلي ، وعلى أساس حق تاريخي أكبر ، تحريراً اجتماعياً أوسع ، وذلك ووجهات النظر تلك ما زالت قائمة حالياً في الأوساط التقدمية . كانت الحياة الجنسية التناسلية في عهد و. رايش ، تعاني اضطهاداً مباشراً ، إلاّ أن سمات واضحة وحق رجمية تدخل في بنيان رايش الطوباوي « العلاقة الجنسية الطويلة الأمد » . ونقطة انطلاق هذا البنيان أن الرجل والمرأة مستقلان اقتصادياً ، لذلك فليس ثمة أي سبب اقتصادي يتعارض وانفصالهما المحتمل . طبعاً إن هذا المطلب شرط ضروري لكل علاقة إنسانية حرة . لكن رايش ينطلق أيضاً من الافتراض بأن تبادل الجاذبية الجنسية والمتعة الناشئة عن علاقة جنسية ما ، تزايد باديء بدء ، مع ديمومتها ، لكي تتناقص إثر ذلك . . وكما يبدو فإن رايش يعتبر هذا الخط المنحني المعبر عن الجاذبية الجنسية بمثابة قانون من قوانين الطبيعة . وقد

(١) المرجع ذاته ص ٥٢

أتاح له ذلك أن يكتب : « لن يفكر أحد في أن يأخذ على شخص ما ، رفضه ارتداء نفس الملابس طوال سنين ، أو سأمه من تناول نفس الوجبة باستمرار . وفي الميدان الجنسي وحده اتخذ الفرد في الامتلاك مدلولاً عاطفياً انفصالياً كبيراً ، » (١)

ويوصي رايش بسلوكين ، مكنين لأجل تلطيف « وهن الرغبة الجنسية هذا » : الانفصال النهائي عن الشريك ، وإما خيانتته بصورة مؤقتة ، بغية زيادة التوتر . ويتلاقى رايش هنا تمام التلاقي مع الموجهين التقدميين في فترة ما ، قبل فرويد ، في مسائل الزواج ، والموجهين شبه التقدميين وذوي الصراحة الوقحة ، في هذه المسائل الزوجية بعد كنسي . فعبارة و . رايش حيث يقول : « إن شفاء زواج ناعس كثيراً ما يتم الحصول عليه بواسطة الحيانة الزوجية ، وذلك رغماً عن القانون والأخلاق التحكيين ، » (٢) يمكن أن نجدها أيضاً في كتاب مدرسي من تأليف أ . إبليس . إن فرويد هو ، في هذه الناحية ، وبالضبط بفضل تبلوره البورجوازي الراسخ الصارم ، أكثر جدية وإنصافاً من رايش . ففرويد يرى أن عدم الاخلاص الزوجي ليس سوى « دواء ضد تهيج الأعصاب الناجم عن الزواج ، » (٣) . إن تهيج الأعصاب هو نفسه التعبير العصابي عن الأنا الذي أصابته بالضعف الجنسي متطلبات الحضارة ، المفرطة ، فاقدة التوازن . إن تطرق هذا الوهن هو أحد قوانين الحضارة ، لا أحد قوانين الطبيعة . ويحتس فرويد كثيراً من التأكيد بأن ثمة هبوطاً شبه طبيعي للتوتر الجنسي . وويلهم رايش ينسى هنا أن ما يستثيره عدم الإخلاص من غيرة ، يعيد لدى الشريك الآخر ،

(١) و . رايش « الثورة الجنسية » ص ١٩٨ .

(٢) و . رايش المرجع ذاته . ص ٢٢٢ .

(٣) Freud, Die « Kulturelle » sexuelmoral. (٣)

op. cit. p. 132.

أفضل الحالات ، الوضع السابق ، الذي يتضمن في ذاته آليات هبوط التوتر . صحيح ان ويلهلم رايش قد كتب يقول إن "علاقة جنسية حرة طويلة الأمد تقوم في موقع يتجاوز الإخلاص وعدم الإخلاص البورجوازيين ، نظراً لأن تلك العلاقة قد تغلبت بواسطة الاقتصاد الجنسي على علاقة الإخلاص المؤسسة فقط على الأخلاقية . ويمكن الرد على هذا بأنه لا يمكن وصف علاقة جنسية بأنها حرة ، مهما كانت طبيعتها ، إلا إذا برّنت تماماً من جميع أعراض الضعف والوهن ، التي تنشأ اليوم بانتظام .

إن وهن العلاقة الجنسية هو ، بمعنى ما ، الملازم التسابع للغيرة العصابية . لكن الغيرة ، بعكس ضعف العلاقة الجنسية لديها حتى في كل تربية ممنوحة عقلياً ، أساس مشروع في تاريخ الفرد . الغيرة هي ، شأن الخوف تماماً الذي تستمد منه منشأها ، رد فعل ضد فقدان للحب متوقع أو حقيقي . و فقط عن طريق الاستثمار الانتاجي ، لتوتر الخوف هذا سيفقد الولد قادراً على ممارسة علاقات عاطفية أكبر قيمة ، علاقات واعية موجبة . وفي هذا النطاق فإن آلية الغيرة الطفولية هي شرط لتكوّن الأنا . لكن الأنا الذي أصبح قوياً يتغلب في الوقت نفسه على عناصر الغيرة الطفولية . إن شخص المصاب بالمصاب بالعضاب أو بالذهان هو وحده الذي يبقى عند بنية طفولية لرغبة الحب الفيور ، أو يتقهقر نحو هذه البنية . لذلك يشير التحليل النفسي إلى فرق بين الغيرة القائمة على التنافس أو الغيرة الطبيعية من جهة ، وبين الغيرة القائمة على الإسقاط التحويري * أو الغيرة الوهمية من جهة أخرى . فالأولى هي تكون لرد فعل مطابق لدى الانسان السليم ، إزاء فقدان للحب متوقع أو حقيقي ، أما شكلا الغيرة الآخران فيمرضان تكونات ارتكاسات عصابية أو مشابهة

* الإسقاط التحويري (en psycho) la projection هو عملية يعزوها الفرد إلى سواه عواطفه ودوافعه الخاصة . (عن قاموس « المنهل » - ملاحظة من المترجم) .

لداء الذهان^(١) . إن رايش يؤكد على الوجه الاجتماعي لهذه التكوّنات الارتكاسية ، ويميز بالتالي بين الغيرة الطبيعية والغيرة الامتلاكية .

وقياساً على ذلك يميز رايش بين ما يطرأ على العلاقة الجنسية من ضعف طبيعي وبين ومن العلاقة الجنسية المشروط عصابياً (الدونجوانية) . وهذا التمييز هو إشكالي (problématique) . وحق في الحالة حيث لا تصعب علاقة حب مقبولة ومُتَحَمَّلة جنسياً إلا بعد سنين طويلة ، حيث إذن يتصرف أحد الشريكين ضد الآخر بتدنٍ في القدرة بل حتى بانعدام تام للقدرة ، فنلاحظ بكل تأكيد في التحليل الفردي أن علاقة الحب قد نشأت في الأصل من وضع كان يتضمن على الأقل عناصر لافتتان (أو لغيرة) وأنه كان على الأقل مشرباً بقليل من الغيرة الطفولية . ولهذا السبب وحسب نجد أن لضعف العلاقة الجنسية في مجتمعاتنا الراهنة شرعية كبيرة ، شأنها في ذلك شأن الغيرة . ينبغي تكيف الأولاد على قواعد المنافسة الاجتماعية أثناء التربية وإذا كان يُراد فيما بعد أن يتصرفوا طبقاً لهذه المعايير فإنه ينبغي من باب أولى إبقاء هؤلاء الأولاد على مستوى من الأنا يتصف بالغيرة الطفولية ، بحيث أن المعايير الاجتماعية للمنافسة هي حقاً متعذرة التبرير . ولذلك يضطر هؤلاء الأشخاص لأن ينتقموا من كل غرض جنسي يكون « لهم » في مكان أبويهم .

إن مسألة الاخلاص في المجتمع القائم على التبادل هي حقاً أشبه بمسألة « الثوب الجديد » ، إن قيمة الثوب التبادلية تنقص كلما توالى عليه الأيام ، ولا أهمية لما إذا كان ارتقدي أم لا ، وحيثما يقاوم بعض الأشخاص هذا الإرغام ويرتدون ثوباً ، وإن كان لم يعد شائع الزي فإنهم يفعلون هذا ، وذلك لأنهم

Voir Freud, Uber eintge neurotische Mechanismen, (١)
op. cit, p: 132.

لفرط ما ارتدوه فقد نشأ ثمة تعاطف بينهم وبينه ، لقد أصبح قطعة من ذواتهم . ولا يمكن مقارنة هذا الشكل من الحب المصفى بين الزوجين ، اللذين لا تنشأ بينهما علاقات جنسية معاً إلا باسم الذكرى المشتركة ، ولكن ليست لهذا الشكل علاقة كذلك بالشهوانية الفتيشية للشوب الجديد الذي يُرى في الواجهات أو في الشارع . إن الحب الدائم هو في وقت معاً بمنجى من عملية وهن القديم وما يثيره الجديد من شهوانية . إنه يتمسك بـ « فرق الحد الأدنى » الفردي ويقاوم عملية التمايز القائمة على التكيف التضليلي المزيف ، دون تمييز هذه العملية التي يفرضها التبادل على الزبي الشائع . إن غرضاً جنسياً لا يمكنه ، في مجتمع حر ، أن يكون شيئاً مثل ثوب يحصل عليه ويستهلك^(١) لأسباب المنفعة . (اثواب العمل / الزوجة) أو لأسباب تولتهية جنسية (causes fétichistes) (ملابس شائمة باستمرار / شركاء جنسيون مجدودون) .

إن هذا الانتقاد نفسه يختص أيضاً بتوصية رايش الأخرى وهي أنه لأجل إخفاء « وهن العلاقة الجنسية » وهذه التوصية هي الانفصال النهائي . ومؤكد ، أن الانفصال سيكون هو الأفضل بالنسبة لكثير من الشركاء والشريكات وعلاقات الحب . ولكن حين يطرح سؤال ماذا سيحدث الآن للشريك الذي بقي شعوره الحبسي سليماً لم يُمس ؟^(٢) إن رايش لا يعطى بالنسبة لنموذجه القائم على أساس العلاقة الجنسية الطويلة الأمد ، سوى أجوبة غامضة تلمح إلى الحل تليحاً . إن رايش في ردوده على هذا السؤال يتورط وسط الدغلة الشائكة للاعتبارات

(١) إن الشبية المعارضة تحب بصورة ذات دلالة ، جميع الملابس التي تلغي الفارق بين ملابس العمل والملابس التي على الموضة ، وهي تمنح جميع الملابس الأولى أي المزالة منها الفوارق ، تمنحها قيمة جنسية قبل كل شيء ، وهذه الملابس ترمز في الوقت نفسه إلى حركة رفضهم بنطالات زرقاء ، سترات جلدية ومعاطف عسكرية .

(٢) رايش : « الثورة الجنسية » ، المرجع المذكور ، ص ١٦٣

الواقعية على أساس الضرر الأقل . انه يتضح جيداً ، بالضبط في ضوء نموذج « العلاقة الطويلة الأمد » كم أن جميع الطوباويات والأفكار الخيالية تصبح قسرية ورجعية في النهاية حين يراد تجسيدها حسيماً منذ الآن . إن هذه الأفكار الخيالية لا تجد تحت تصرفها لأجل وصف حالة التحرر سوى مقولات التشويه والاضطهاد ولذلك فإن عناصر من هذا الاضطهاد تتسرب إلزامياً إلى بناء الحرية^(١). صحيح أن رايش يؤكد أنه « لا النوايا الطيبة ولا التقنيات الغرامية »^(٢) باستطاعتها اجتناب ضعف العلاقة . وهذا صحيح ، لكن رايش وهو سجين نموذجي ، يضطر للاستعانة بفكرة « عدم الاخلاص » بمثابة تقنية لاستقرار علاقة جنسية طويلة الأمد . وقد كتب يقول : « هناك أمثلة عديدة تبين بوضوح أن علاقة عابرة مع شريك آخر خدمت فعلاً الرابطة المديدة التي كانت في طريقها لأن تتخذ شكل زواج »^(٣) . صحيح أن أمثلة كهذه وافرة العدد ولكن أي نوع من الرابطة يمكن أن يستفيد من مثل هذه « العلاقة العابرة » ؟ وفي هذه الأثناء فإن الكتب الجامعة التوجيهية بصدد الاستقرار الزوجي قد استولت على غايات الضبط الذاتي من قبيل الاقتصاد الجنسي وقد شوهت هذه المقاصد وأفرغتها من جوهرها الانساني جاعلة منها مبدأ للتكليف الجنسي التضييقي الشامل^(٤) . ويصف و. أدورنو في كلمته الجامعة ، كونستانس

(١) إن رايش هو أيضاً من هذه الناحية أحد الذين أصيبوا قليلاً جداً بهذا الخطر . وهناك طوباويات اشتراكية حول التريبة الجنسية ، مثلاً الفكرة الخيالية لأوتو رومل ، تليد أطر (Nues Kinderland, Bâle 1920) تعطينا الانطباع لدى قراءتها بأنها قواعد داخلية لأشخاص يتلون فعل الندامة .

(٢) رايش « الثورة الجنسية » المرجع المذكور ، ص ١٩٧

(٣) المرجع ذاته ، ص ١٩٨

(٤) انظر بصورة خاصة : أ. إيليس Hancbuch der intelligenten

Frau Flensburg 1967.

و الثبات ، ^(١) يصف دافع الاخلاص لدى المجتمع البورجوازي بصفته إحدى وسائله القسرية ويصف الاخلاص نفسه على أنه عنصر لا غنى عنه لمقاومة هذا المجتمع .

و إذا كان على الحب في المجتمع أن يحسّد مقدماً مجتمعا أفضل فإنّه لا يستطيع أن يحقق ذلك بحدوثه داخل أرض مغلقة ، هادئة وإنما فقط بمجاهة المجتمع القائم ، بمقاومة واعية . والحال فإن هذه المقاومة تتطلب بالضبط هذا المقدار من الكيفية الذي يرفض البورجوازيون الاعتراف به وهم الذين بالنسبة لهم ليس الحب أبداً شيئاً طبيعياً كفاية . أن يحب المرء معناه أن يكون قادراً على أن لا يتبيح ذبول الفورية التلقائية المباشرة تحت ضغط الوساطة الموجودة في كل مكان ، والاقتصاد وفي مثل هذا الاخلاص يصبح متوسطاً في ذاته ، وضغطاً مضاداً عنيداً . وحده يجب ذلك الذي لديه القوة على اتخاذ موقف حازم في الحب . إذا كانت الفوائد الاجتماعية تقود عملية التسامي وإذا كانت تشكل مسبقاً حتى الرغبات الجنسية ، وإذا كانت تلك الفوائد الاجتماعية ، عن طريق مئات الفروقات والتنوعات الخفيفة بكل ما يوطده النظام فإنها تظهر تارة هذا الشخص وطوراً ذاك جذاباً بصورة عفوية في حين أن الشخص الذي قرر القلب والوجدان الميل إليه يصمد لكل هذا مع الثبات على الحب حيث يتعارض ذلك مع قانون جاذبية المجتمع وهو قبل أية دسيسة يستخدمها المجتمع إثر ذلك . ومعنى هذا هو امتحان العاطفة لرؤية ما إذا كان الزمن يتخطى هذه العاطفة ، حق ولو لم يكن ذلك إلا في شكل وسواس . لكن هذا الحب الآخر المستغل من قبل عفوية طائشة ، وهو - أي الحب - معتر لإخلاصه المزعوم . يستسلم كلياً لما يمتبره صوت القلب ويسارع الى مكان آخر فور أن يظن بأنه

Th. Adorno, Minlina Morolia - Reflexionen aus (١)
deur beschâbigten Leben, Francfort 1962, pp,226 ss.

لم يعد يحس بذلك الصوت ، إن هذا الحب ، في كل استقلاله السيد ليس سوى أداة المجتمع ، إنه يسجل بصورة سلبية ودون أن يدري ذلك ، الأرقام التي تقع عليها كرة روليت مصالح المجتمع وان صاحب هذا الحب بخيائته محبوبه إنما يخون نفسه . إن واقع الأمانة الذي يفرضه المجتمع هو وسيلة قمع لكن الحرية لا تستطيع أن تحقق عدم التبعية لحكم المجتمع إلا بالاخلاص وحده .

إن هذا الاخلاص بصفته برنامجاً عملياً وداغماً فردياً لرجل يحاول بالنسبة لنفسه أن يدافع عن ذاته ضد النزعة الجماعية للإزالة القمعية للتسامي ، يمكن أن يرتبط بعملية قسر هائلة إذا كان موضوعاً بمثابة متطلب إخلاص . والمهم في كل حالة فردية هو أن نعرف ما إذا كانت عملية القسر هذه تواجه الفرد على نحو عنيف وقمعي - وما إذا كان حينئذ الثمن الواجب دفعه من أجل الخلاص من التقهقر النفسي على هذا النحو ليس مرتفعاً جداً وليس له تأثير مدمر ذاتياً - أو إذا كانت عملية القسر هذه تواجه الفرد لمتطلبات انضباط قابلة للتبرير . ولن يمكن الخلاص من عمليات « العفوية » القسرية ، التي كشف أدورنو عن طابعها الوهمي (عدم الاخلاص ، تقيير الشريك) مع الخضوع لجهود إرغامية تخفيها فقط كلمة « الصمود » وتغير صورتها بتعبيري « الوسواس » و « عدم التبعية » . إن شخصاً ما لن يتمكن من الخلاص من عمليات القسر لإزالة التسامي قمعياً إذا كانت قد أصابت هذا الشخص ، إلا عن طريق جهد الإرادة وحدها وبمجرد الفهم الذاتي لآليات هذه العملية . إن باستطاعته تحقيق ذلك على أفضل وجه في بضع حالات منفصلة وذلك بفضل تقنيات التحليل النفسي ومعالجته .

إن هدف هذا الكتاب لا يمكن أن يكون إذن الدعوة في النشاط العملي لأخلاقية جنسية جديدة لليسار ، ولا حتى التعمين النظري لخصائص مثل هذه الأخلاقية . فهذا ليس فقط عديم الجدوى ، بل إنه يفضي بنا إلزامياً إلى

نتائج خاطئة وإلى أن نصوص واجبات خاطئة أيضاً . وذلك بتساؤلنا اليوم ما إذا كان من واجب الأشخاص في مجتمع حر أن يرتبطوا بعلاقات بين شخصين ، أو في كومونات لفترة معينة من الزمن أو لمدى الحياة . إن ما هو اليوم ليس فقط غير نافع بل إنه بالعكس ضروري هو استبعاد الطابع القسري لجميع هذه العلاقات ، قدر الأمكان . إن الأمر لا يتعلق بإلغاء الزواج ، بل بإلغاء مؤسسة الزواج ، ليس بإلغاء الحب والغيرة ، بل بإلغاء شروط القتل النفسي والجسدي المرتكبين بدافع الغيرة ، واستبعاد الانتحار النفسي والجسدي المرتكب بسبب فقدان الحب أو بسبب الحب الجريح . والشئ نفسه يطبق على المعايير الحقوقية . وليس المهم توسيع الحق في الطلاق أو بث النزعة الإنسانية في الحق العائلي ، بل بالأحرى إلغاء القواعد الجامدة للحق الزوجي والأبوي . إن حق الأطفال والأولاد هو وحده يمكنه وينبغي له أن يحمل محل علاقات الحق هذه . ليس الزواج في مجتمع حر هو الذي ينبغي أن يُحمى ولن نكون ثمة بحاجة إلى أية قاعدة قاطعة تعين من له الحق في أن يعيش مع من وبكم ، وابتداء من أي وقت وخلال كم من الزمن . إن الاستقلال الذاتي في تنظيم الدائرة الخاصة سيجد حدوده وذلك في تربية الأطفال أي حينما يبدأ في المجتمع البورجوازي التصرف الكيفي الخاص . فإذا ترعرع هؤلاء الأطفال في كومونات أو في عائلات تقليدية فإنه تبدأ مع اكتساب الطفولة الصغيرة الطابع الاجتماعي عملية تطور ذات أهمية رئيسية جداً بالنسبة للمجتمع بحيث لا يمكن إن يبقى متاحاً دون رقابة للحب ، وللميول والحالات ضعف أفراد المجتمع الراشدين سواء أ كان الأمر يتعلق بأشخاص منفردين أو بمجماعات .

إن المفاهيم والتمييزات التي هي وحدها اليوم تحت تصرفنا والتي هي مفهومة كالتمييز بين الراشدين والمراهقين مثلاً يمكنها نزوعياً أو واقعياً أن تصبح قديمة بالية في مجتمع حر . ولكن لا يوجد تحت تصرفنا اليوم سوى

مفاهيم وأفكار استدلالية تتعلق بالمجتمعات القائمة، ونحن مرغون تماماً على أن نستخدمها إذا كنا نريد ولو على أساس كل قطاع على حدة واستباق عمليات التطور التي هي في أساسها كثرية غير قمعية مثلاً تكون نتيجتها أشخاصاً ذوي ألق قوي وقادرين على أن يكونوا سعداء. ذلك ما يجعل صعبة جداً كل محاولة لتقديم رسم أولي لناذج حرة غير قمعية، وتكون مرضية للاتصال البشري، وللثبية ولجابهة الطبيعة، الخ. ولا تكون هذه النماذج لا غامضة وبجودة بصورة لا تحتل كما أنها لا تنضب ولا تستنفد قواها في نفي عمليات التطور والآليات الاجتماعية القائمة (النزعة المضادة للسلطة وللحكم، وعدم القمع والعمل غير المستلب، الخ). وبصدد تفسير أحدث الانتفاضات الطلابية في ألمانيا الاتحادية وفي برلين الغربية، تحدث هربرت مركزوز عن « نهاية الطوباوية » وكان يقصد بذلك أن الإمكانيات الجديدة لمجتمع بشري ووسطه لم يعد يمكن تصورهما بصفتهما امتداداً للمجتمعات القديمة وبصفتهما نتيجتها داخل الديمومة التاريخية: إن هذه الامكانيات الجديدة تفترض بالمعكس انقساماً للديمومة التاريخية،^(١) في هذا السياق تابع مركزوز بقوله إن جميع القوى المادية والذهنية التي تستطيع أن تسهم في تحقيق مجتمع حر هي حاضرة في الواقع،^(٢)

أما بصدد الإناسة (الأنثروبولوجيا) الثورية الجديدة التي من واجبناسا تطويرها، فهذا يعني أن البلدان المصنعة تصنيماً عالياً قد أصبحت فاضحة كفاية من أجل ثورة لم تعد تقتصر على تحويل تنظيم القوى المنتجة. والأصح القول إنه

(١) هربرت مركزوز « نهاية الطوباوية »، منشورات ديلاشونشلتلي. مجموعة معارك
سوي باريس ١٩٦٨ ص ٧ .

(٢) المرجع ذاته ص ١٠ .

تطابق المستوى الذي تم بلوغه من السيطرة على الطبيعة ، حالات تقدم ونجاحات وتمايزات في البنية النفسية التي ينبغي انطلاقاً منها ضمان السيطرة على الطبيعة ، وكذلك عمليات تطوير للمستوى البيولوجي ، التي يجب أن تستخدم من أجلها هذه السيطرة . وعمليات التطوير هذه تتطلب تغييرات في الشكل التنظيمي وتغييرات لمحتوى الوجود البشري بأسره ، تتميز نوعياً عن أشكال التنظيم الراهنة وعن أنماط الوجود البشري في البلدان العالية التصنيع ، الرأسمالية و الاشتراكية .

حين يتعلق الأمر بقضايا تطبيقية عملية في مسائل التنظيم الثوري للوجود البشري ، مثلاً تربية الأولاد ، وتحقيق التسامي لدى المراهقين وتَقْنِيَةِ canaliser رغباتهم وغرائزهم الجنسية ، وكذلك أشكال ومحتويات الحياة المشتركة ، والحياة الجنسية الخ (وبأي شيء آخر يمكن أن يتعلق الأمر ؟) - يجب أن يحتل بصورة دائمة توتر يعمل ، الانفصام ، الضروري صعباً جداً . ولدينا الوسائل المادية والذهنية لأجل بناء مجتمع حر ، لكن قدرتنا الذهنية بأسرها - وبالضبط ، حيثما تستخدم بصورة انتقادية - تتند إلى المجتمعات القائمة . إذن فإذا كان صحيحاً أن الفرق الكيفي qualitatif بين المجتمعات القائمة ومجتمع حر ، لا يمكن أن يتحدد إلا بانفصام للديمومة التاريخية ، حينئذ يكون صحيحاً تماماً أيضاً (١) أن هذا الانفصام لا يمكن استباقه نظرياً إلا في مقولات ومجموعة أفكار استدلالية متسلسلة وأحلام ، هي مشوبة في المجتمع القائم بالاضطهاد ، ولقمع والاستثمار ، التي يمارسها هذا المجتمع . (٢) أن هذا الانفصام لا يمكن تحقيقه عملياً إلا من قبل أشخاص لا يعانون فقط هذا الاضطهاد ، وهذا القمع وهذا الاستثمار ، ويتعرفون إليها ، ويريدون إلغائها ، بل أيضاً أشخاص مشوبين وشوهين من قبل تلك النقائص في أبسط أحاسيسهم وتصرفاتهم . (٣) أن المجتمع الحر لا يمكن أن يُشِيد

إلا على القدرات - المعاقة والمشوهة - للمجتمعات غير الحرة . وإلا فيكون من العبث تماماً القول إننا نملك منذ الآن القوى العقلية والذهنية الضرورية لتحقيق مجتمع حر .

لقد قدمنا على هذا رسماً أولياً لبرنامج الإناسة (الانثروبولوجيا) الجديدة^(١) هذا البرنامج الذي يبقى علينا تحقيقه .

(١) هيرت ماركوز « نهاية الطوباوية » ص ٣٠ .

تذييلات بمثابة خاتمة

يجب أن يُقرأ اليوم كتاب « النشاط الجنمي وصراع الطبقات » بمثابة وثيقة عن المرحلة الأولى لحركة الرفض لدى التلامذة والطلبة الالمان . وكتب هذا المؤلف في شتاء ١٩٦٧ - ١٩٦٨ ، في إبان التظاهرات الكبرى من أجل فيلنام والاضرابات الأولى التي قام بها التلامذة ، وبالضبط قبل موجة احتلال الجامعات ، أي بين أول حادثة قتل طالب بيد شرطي (٢ حزيران ١٩٦٧) ومحاولة القتل التي جرت ضد دوتشكه (فصح عام ١٩٦٨) . إن المرحلة الزمنية الكبرى لاه تنظيم المستقل ذاتياً ، - عمليات احتلال الجامعات ، القربية المضادة للسلطة وللتحكم في جماعات الأولاد ، تنظيم للدروس مستقل ذاتياً ، وكافة عمليات نقل العلم والمعرفة ، والتدريب على التمرد والانتفاضات في المهن التابعة للبناء الفوقي للمجتمع *La superstructure* ، والأعمال التي تكشف القناع عن الارهاب الممارس بواسطة الإرغام على الاستهلاك - كل هذا لم يكن بعد قد تبلور بصورة حسيّة ، لا في تصوراتنا ولا في حياة للممارسة العملية . وحالياً فقط أصبح في الإمكان أن نفسر واقمياً تلك الفترة وما رافقها من آلام الوضع بصفها الخطوة الأولى نحو تجديد بناء الحركة الثورية في المانيا الغربية . ولم تكن ، في تلك الفترة ، سوى حركة رفض واعتراض ، حتى بالنسبة لقاداتها ونظريتها حينئذ ، كائنة ما كانت درجة وعيهم الاشتراكي أو

مئاة تكوينهم الماركسي . لقد عرفنا ، نحن أنفسنا ، هذه الحركة ، بصفتها مضادة للسلطة وللتحكم antiautoritaire . أما الصحافة البورجوازية فقد أطلقت عليها - ولا سيما على الظواهر التي كانت تقوم على تخوم تلك الحركة - اسم المعارضة خارج البرلمان ؛ هذه التسمية لا تغطي (لا تعبر بصورة شاملة عن) نظرياتنا حينئذ ، ولا عن شكل تنظيمنا ، ولا عن أهدافنا السياسية ، تلك الحركة كانت بادية بدء موجهة ، بدرجة عالية ، نحو الممارسة ، وكانت في الوقت نفسه ذات طابع معنوي وأخلاقي عميق ؛ نقول : متجهة نحو الممارسة العملية ، لأن تلك الحركة كانت ، من جهة ، تضع حداً للأفكار التأملية النظرية البحت لدى الحلقات الماركسية الجامعية ، ومدرسة فرانكفورت « ونظريتها الانتقادية للمجتمع » ، كما كانت ، من جهة أخرى ، تضع حداً للزعنة التحريفية المستترة والتحالفات على الورق التي كان يعقدها الحزب الشيوعي ؛ كما كانت تلك الحركة خلقية معنوية لأنها كانت تستمد قوتها السياسية والانفعالية ، بادية بدء ، من وعي وعود التحرير البورجوازية المكبوتة . لكن تلك الحركة ، مع اتجاهها نحو العمل والنشاط والممارسة العملية ، كانت مجردة بنفس مقدار ما هي ضرورة تاريخياً . كانت ضرورية ، لكي يكون باستطاعة المناضلين ، في المجتمعات الطبقيّة التي بلغت مستوى عالياً من التطور التكنولوجي ، أن يعوا مجدداً البعد المفقود لعمل تاريخي واع وجماعي . والواقع أن تقاليد الحركة الثورية العمالية لم تدمر طوال زمن مديد في أي مكان آخر على نحو ما حدث في ألمانيا بسبب الفاشية وتأثيرها اللاحق أثناء فترة ترميم الديمقراطية الرأسمالية . لكننا قلنا إن تلك الحركة كانت مجردة لأننا لم نتجح في أن نقيم ، في حياة الممارسة العملية ، الوساطة بين بديهية العنف الامبريالي ومختلف أشكال العنف الملازمة للعلاقات الاجتماعية داخل البلدان الرأسمالية ذاتها ؛ ذلك لأن أخلاقية المجتمع الرأسمالي القائم ، ومستوى المعيشة المرتفع ، كانا يخفيان أشكال العنف هذه إلى درجة كنا معها عاجزين عن إماطة اللثام عنها ، إن الوعود البورجوازية

بالتحرير وتحقيق الانعقاد ، والارادة الثورية البروليتارية ، قد تقاربت ، بعضها من بعض ، في وقت معاً ، في الحركة المضادة للسلطة وللتحكم ، وذلك في النظرية السياسية ، وابتعد أحدهما عن الآخر ، في الممارسة العملية ، إلى درجة أعلى بكثير مما كان في فترة الصراع الطبقي المكشوف ، التي سبقت الفاشية .

إن التحليلات المؤسسة ، بدقيق العبارة ، على النظرية الجنسية ، أو في معنى أضيق ، على التحليل النفسي *la psychanalyse* ، قد وضعت ، في المرتبة الثانية بالنسبة للقضايا النظرية المعينة في هذه الاستعادة التاريخية ، هذه القضايا التي صيغ بعضها في كتابنا هذا « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » ، فيما يتعلق بهذا المظهر أو ذاك ، من وجوه تلك القضايا . وهذا الكتاب ، من جهة ، لم يُتصوّر أبداً ، ليكون إسهاماً في (أو إضافة إلى) إلى النظرية الجنسية أو الى نظرية التحليل النفسي . إلا أن ما يبدو أنه كذلك ، في هذا الكتاب ، هو في كثير من الأحيان ، نتيجة لمفاهيمي الشخصية - مع جميع التشوهات الناتجة عن تلوين بسبب أحداث سيرة ما *coloration biographique* هذه التشوهات تسرب على نحو أسهل في المنتجات الثقافية والفكرية ، حين يكون غرضها المدروس هو عمليات تطور نفسية . لكن ما يمنح هذا الكتاب طابع وثيقة سياسية ليس عملي الشخصي . أكيد أنني كتبتة وحدي ، لكنني كتبتة تحت التأثير الشديد لوضع سياسي كان يحتم علينا ما نفعل ونكتب ، رفاقي وأنا . فهذا الكتاب هو النتيجة المباشرة لتجربة سياسية ولتأملات فكرية نظرية لم تقتصر على تجربتين فقط ، وأقل من ذلك أيضاً ، على تأملاتي الفكرية .

بيد أنني أعتقد أن الكتاب ليس وثيقة عن « النظرية المضادة للسلطة وللتحكم ، بمعنى الكلمة الدقيق . وأنا شخصياً من عداد الرفاق في حركتنا الذين

جرى تكوينهم نظرياً واكتسبوا الطابع الاجتماعي سياسياً قبل زمن طويل من بدء حركة الرفض والاعتراض *mouvement de contestation* ، لكن الذين اشتركوا إثر ذلك بنشاط في إطلاقها ، وغدوا الناطقين بلسانها ، وابتداء من مرحلة معينة ، أصبحوا كذلك التعبير الحي عنها ، بدلاً من أن يظلوا المراقبين الواعين لوضع تاريخي معين . ونحن ، في هذا مختلف ، من جهة ، عن رفاق من جيلنا ذاته ، ظلوا دائماً « ماركسيين جامعيين » ، أو « أتباعاً للنظرية الانتقادية » . ومن جهة أخرى عن الرفاق الذين لعبت في حياتهم وفي سيرتهم السياسية ، الحركة المناهضة للسلطة وللتحكم دوراً مباشراً وحاسماً أكثر . ويتجدد ذلك أيضاً في الكتاب في عدة مواضع (بصورة أكثر تخصيصاً) في المناقشة المتعلقة بالكومونة رقم واحد ، والأصح أن أقول الآن بصدده هذه المناقشة أنها قد اوحى بها فهم أبوي (بطريكي - قائم ، في ما نحن بصدده على حب الرعاية وتوجيه « الكبير » ، لا « صغير ») أكثر منه على موقف ملتزم .

إن الحركة المضادة للسلطة وللتحكم *mouvement antitautoritaire* تُعْتَبَر اليوم أنها انتهت تاريخياً وتم تخطيطها سياسياً إن التسمية ، التي أصبحت منذ الآن نَمَطِيَّة ، والتي تذكر في كل لقاءات جماعاتنا وفي جميع كتاباتهم هي « الفترة المضادة للسلطة وللتحكم » من تاريخ الحركة . وقد انتهت تاريخياً على الأقل بمقدار ما لم تعد موجودة مطلقاً ، أو هي ذات وجود مشئت ، متناثر ، وحيث تتأجج فترة قصيرة ، في المناطق المتخلفة من ألمانيا الغربية ، حملات ومعارك وحركات عصيان يقوم بها الطلبة ، والتلامذة ، أو الرجال المعادون للحرب رافضو أداء الخدمة العسكرية ، - حاملة - أي تلك الحملات والمعارك وحركات العصيان - سمة عمل الحركة المضادة للسلطة وللتحكم ، وتنظيمها . أما مسألة كون هذه الحركة قد تم تخطيطها ، فعلياً وحقاً في عملية التطوير المستقل للنظرية والتنظيم والممارسة العملية ، فهذا أمر قابل للجدال والاعتراض .

كانت حركة الرفض والاعتراض في ذروتها في مطلع صيف ١٩٦٨. ولأول مرة ، في صيف ١٩٦٩ ، أطلقت جماعات هامة شعار « هيا إلى العمل لإبادة البؤرة (المضادة للسلطة وللتحكم) » . في تلك الحقبة توجد الفترة التي تطورت فيها الحركة المضادة للسلطة والتحكم بصورة دائبة في البدء ، لكي تصطدم إثر ذلك أكثر فأكثر بمحدودها هي ذاتها - إلى أن أصبحت في النهاية مهزلة تهريجية ، ومأساة أيضاً بالنسبة للكثيرين . لقد كانت التصورات النظرية لهذا التحول ، وتجسدها التنظيمية ، هي على التوالي : حل مجمل الحركة وتجديد تنظيمها في كومونات ؛ تنظيم مستقل للدروس مع إنشاء الجامعة - المضادة ؛ تجديد تنظيم مجمل حياة الرفاق الخاصة في « جماعات للتدرج والتدريب » وذلك بإنشاء الوسط - المضاد ، الخ . التدمير العنيف للجامعة القديمة ومؤسسات أخرى قومية بصورة نموذجية (الاحتكارات الصحفية ، ومكاتب الجنود ، ومركز الأبحاث الخاصة بالحرب) ، إعادة تنظيم الحركة على أساس فرق مفاوير (كوماندوس) إرهابيين سريعين ؛ نزول إلى عالم المخدرات ؛ الانبعاث بمثابة بروليتاريين « ماركسين - لينينيين » واعين ، لخدمة الشعب . وكل مرحلة من مراحل حركة التعاقب هذه ، لم يتبعها كل الجماعات ولا جميع الأشخاص . إلا أن هذه الجماعات - وهي أقلييات - التي اتبعت هذا التطور ، في كل مرحلة في مراحلها تكشف عن الطابع التلقائي المندفِع (« حركة الدوران الوحشية » ، التي ، ابتداء من لحظة معينة من تطورها ، أعطت الحركة المناهضة للسلطة وللتحكم ، استقلالها الذاتي ، ثم قامت مجلها إثر ذلك .

وإذا كان كتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » قد ظل يُنتَقَد حتى ربيع ١٩٦٩ بصفته ذا موقف متأثر بالحركة « المضادة للسلطة والتحكم » ، موقف قليلاً جداً ما هو دائب ثابت المنطق ، فقد جرى تصنيف الكتاب بعد ذلك بسنة أشهر بأنه يمثل تماماً « تشوش الحركة المضادة للسلطة وللتحكم » .

هذان الانتقادات ، المُميزان لمرحلتين متعاقبتين ، فيها شيء صحيح ، وشيء خاطيء . صحيح أنني ، بالنسبة لبعض النقاط (كترية الأولاد ، والزواج الأحادي) اتخذت موقفاً غامضاً ، بل تهريباً ، بل وانتهازياً في شطر منه . وصحيح كذلك - بصدد المرحلة الثانية من الانتقاد - أن الكتاب لا يرتكز على تحليل طبقي واضح ، وأنه لم يجب إلا بصورة ارادية (ذاتية) بحث على السؤال بصدد الثورة (انظر المقدمة) أو أنه ، مثلاً ، لم يجر سوى تحليل انعكاسات وتأثيرات المجتمع الاستهلاكي على تكييف شروط الرغبات والغرائز الجنسية ، دون أن تكون قد أُقيمت صلة كافية مع عملية التطور الرأسمالية لانتاج القيمة الزائدة .

لكنه قد نشأ مع « تخطي » الحدود المضادة للسلطة وللتحكم ، هذه الحدود المتعلقة بحركتنا ، قد نشأ في الوقت نفسه الخطر الإضافي لتخلل متصلب عن جميع أهدافنا الثورية ، وخطر انهيار قاعدة شرعيتنا الثورية . إن كثيراً من الرفاق والجماعات تحاول في الوقت الحاضر أن تُنكِر بصورة مجردة تاريخ حركتها وعلى هذا الأساس تاريخها هي ذاتها . ويحري هذا بثلاث طرق : في التقسيم المشوه إلى نظرية بلا ممارسة عملية (بمثابة « تكوين ») وإلى ممارسة عملية بدون نظرية (عمل في القاعدة) ؛ وفي نزعة ذرائعية لسياسة واقعية قريبة صورة خطيرة من النزعة الإصلاحية ؛ وفي عودة دغمائية إلى النموذج اللينيني للتنظيم الذي لدى استعماله بصورة لا تاريخية كما يحدث هذا عندنا ، يصبح لعبة استراتيجية سلطوية تحكّية وبيروقراطية « لحزب يضم طلبة دون عمال » . ومؤكد أن النضالات السياسية القادمة والهدف الذي هو هدفنا في تطوير الصراع الطبقي في الجمهورية الاتحادية تتطلب درجة عليا من الانضباط في التنظيم . لقد حققنا في مرحلة حركتنا ، المضادة للسلطة والتحكم ، حل مسألة التنظيم عن طريق النزعة الإرادية العفوية التي كانت حركتنا تتصف بها ،

مع وضعنا بكل بساطة مبدأ الوحدة والعمل والتنظيم لذلك فإن علينا أن نتلافى الآن الوقوع في الخطأ المقابل القائم في « حل » مسألة التنظيم بروح نزعة إرادية دغمائية ، متصلة بأخذنا المبدأ التنظيمي للحزب البولشفي كنموذج ❁ . ونحن لا يكون قد وُجِد بعد ، كما هي الحال عندنا وضع لصراع طبقي مكشوف ، ندرك على أوضح نحو وأكثره إيلاماً ، العواقب المدمرة التي تنشأ عن هذا المفهوم للحزب وذلك بأخذنا بمثابة علامة (حساسة الى حد كبير) هي درجة التضامن العملي السائدة في حركة ما . لقد أُجْرِيَ خلال عهد الحركة المضادة للسلطة والتحكيم « نقاش دائم حول التحرر » . وكان ذلك هو التعبير المنظم ولكن بصورة عفوية النزعة عن برنامجنا للشورة الثقافية . كان ذلك يتطلب من كل رفِيق درجة عالية من القدرة على التأمل الفكري والوصول الى نتائج واضحة تملن على الملأ ، وتطوير كل رفِيق لشخصيته هو نفسه ؛ وكانت درجة التأمل الفكري هذه المطلوبة عالية إلى حد أن كثيراً من الرفاق قد انهأروا أمام هذه المتطلبات النفسية . ومع نهاية المرحلة المضادة للسلطة وللتحكيم ، من مراحل حركتنا ، فإن هذا النقاش حول التحرر قد توقف وهو توقف تمّ على أساس الملاحظة - الصحيحة في ذاتها - بأن هذا النقاش على نحو ما أجريناه ، كان التعبير عن حدودنا الطبقيّة البورجوازية الصغيرة وعن جعل المسائل السياسية والمسائل الطبقيّة تنحصر في حدود المفهوم البيكولوجي الضيق .

* يتناسى المؤلف هنا رغم معرفته بل اعتناقه مبادئ الماركسية أن أسس تنظيم الحزب البولشفي اللينيني هي الأسس المبدئية الماركسية التي أدت فعلاً إلى التفاف جماهير شعب بكامله هو الشعب الرومي (١٥٠ مليون نسمة) حول الحزب البولشفي الذي حقق الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وكان اللهم خارج هذا البلد لقيام دول اشتراكية متطورة اندرجت نظرياً وعملياً في مسيرة التاريخ . وواضح أن رايش يخلط وزبما عن غير قصد بين مبادئ اللينينية وسليبات المرحلة الستالينية .

(ملاحظه من المترجم . م . ع)

لكن وقف هذا النقاش أدى بالضرورة إلى تدهور شرعيتنا ، ذلك لأننا لا نستطيع أن نكتسب هوية طبقية وهوية سياسية بمجرد أن نعلن أنفسنا بفترة ماركسين - لينينيين .

وهكذا فإن التقلب التنظيمي الذي ينبعث اليوم والانضباط المتسلط بالنسبة إلى مبادئ بعض الماركسين - اللينينيين ليسا سوى جانب - هو الأقل خطراً على كل حال - من عملية تطور يسمى بواسطتها بعض الرفاق إلى إثبات هوية طبقية وهوية سياسية وذلك لأجل التعويض . والجانب الآخر - وهو أكثر خطراً بكثير على نمو التضامن وتطور الصراع الطبقي - هو تدهور التضامن العملي وبعبارة أخرى فهو هبوط جماعي إلى مستوى بورجوازي صغير من العلاقات البشرية . هذا الهبوط هو النتيجة الحتمية للتطبيق الآلي للمبدأ اللينيني عن الحزب بصفته « نموذجاً » للتنظيم (أنا لا أقول مطلقاً أن المبدأ اللينيني في الحزب هو في ذاته « قمعي » . بل بالعكس فقد عبر الحزب البولشفي في زمنه عن مهمات وحاجات الطليعة الثورية . على هذا النحو فقط استطاع أن يكون « حزب البروليتاريا » . إن هذا الهبوط يجد تعبيره في الانقسامات المتعددة التي لا تعود بسببها إلى أي كفاح سياسي حقيقي وبذلك ليس لها عملياً تأثير إيضاحي ، وهي لا تتيح التقدم ؛ وفي المناورات التكتيكية les magouilles داخل الحركة ، هذه الأمور التي أبغضناها أشد البغض والتي ما كنا بأية حاجة إليها ؛ وفي عمليات الثلب والتحقير ، وبمثابة أمثلة فاجعة جداً في هذا الصدد نذكر عملية عزل رفاق والتسبب في اضمحلالهم ، وهم رفاق قد وجدوا قبلاً في الحركة ، هويتهم السياسية والوجدانية .

إن عمليات التطور التي وصفناها هنا ليست سوى نزعات داخل سياق تطور ضرورية لتوضيح حركتنا ، وإني لا أفسر مطلقاً على أنها عمليات انحطاط لحركة ما . لكن كتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » ما تزال تسري

فيه نفحة تفاؤل ساذج في الوقت نفسه مع عدم تحديد تكويني يميز كل القوة والحدود المقدرة لحركتنا الراضة .

مقتطفات من التعقيب الختامي على الطبعة الانكليزية
(نيسان ١٩٧٠)

لا أريد هنا أن أخفي نواصي النظرية ولا أبررها بهذا الاخفاء ، كما لا أريد أن أخفي أو أبرر ضيق أفق الكتاب وشكله غير المكتمل . وأود فقط أن يفهم القارئ أنه يستحيل عليّ أن أقصر على تصحيح الكتاب في المواضع التي يستند فيها إلى استنتاجات نظرية خاطئة أو غير كافية ، أو في المواضع التي يصل فيها إلى استنتاجات سياسية تبين في هذه الأثناء أنها خاطئة . إن شطب المهدات النظرية غير الكافية الواردة في بداية الكتاب ، واقتطاع ما ورد في خاتمته من استنتاجات سياسية غير دقيقة ، لإبدالها بعناصر نظرية أصح واستنتاجات سياسية أفضل ركائز ؛ إن ذلك لو حدث لما اقتصر الأمر على أن الكتاب لن يكون في مجمله لا أفضل ولا أصح بل أنه سيفقد بذلك أكثر تفايراً في خواصه وعناصره وأشد انعدام تجانس وأوفر تشوشاً .

إن كتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » هو ، في طريقة برهنته مدين بمقدار كبير لـ « النظرية الانتقادية » لمدرسة فرانكفورت . وتتميز هذه المدرسة بانحراف خاص في تطبيق المادية التاريخية ؛ هذه المدرسة لدى شرحها مفهومها عن الوعي الخاطئ - بما في ذلك المظهر النفسي لهذا المفهوم - هي قليلة الاستناد إلى تحليل لعلاقات الانتاج المعينة ؛ وهي أقل استناداً على الأشكال المطابقة لاستعباد رأس المال للعمل ، منها على تفكير ينطلق من تفسير العلاقات بين الوجود والوعي تفسيراً ينحصر فقط تقريباً في تاريخ النظريات . وإذا كان هذا التأمل الفكري لا يعالج مباشرة قضايا التاريخ الحقيقي بل يعالج انعكاسها في تاريخ النظريات ، فإن « النظرية الانتقادية » تبعد بالضرورة لدى مضجها في

البحث ، عن موضوعها وهو الواقع وحقيقته ، وتصبح انتقاداً لانتقادٍ لانتقاد ، وينتهي بها الأمر إلى أن لا تكون هي ذاتها سوى ايدولوجية . هذا ، وفظراً لأن طرائق النظرية الانتقادية قد جرى تطبيقها في كتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » ، بصورة ساذجة دون أن يظهر في الكتاب أدنى تشكك من حيث كيفية استخدامها المادية التاريخية ، فإن أقسام هذا الكتاب المتعاقبة تظل على شيء كثير من عدم الدقة . وأقتصر على إعطاء مثالين اثنين لها دلالتها في هذا الصدد : اقتصار التحليل على ظاهرة الاستهلاك ، واستخدام مفهوم إعادة الاعتبار إلى التسامي .

وتقريباً فإن جميع مظاهر الأشكال الراهنة لتكثيف الرغبات الجنسية ، هي مستخلصة ، في هذا الكتاب ، من تجسّدات ما يسمى دائرة الاستهلاك . إن هذا ليس خطأ بصورة حتمية ، إذالم نخلط بين المظهر وانمكاساته على الوعي وتنظيم الرغبات الجنسية وبين الواقع الذي ينتج هذا المظهر . وهذا الكتاب يعطي الانطباع بأن أفضنة طباع ، نفسية - جنسية ، مثل « الإشباع الوهمي للرغبة الجنسية » ، وقناع « مرحلة البلوغ الدائمة » ، وتجنّز كل من هذين القناعين الطباعيين النفسيين الجنسيين في التكوينات الجماعية للرغبة الجنسية وما ينتج عن ذلك من حاجات وطباع ، أقول إن هذا الكتاب يعطي الانطباع بأن هذه الأفضنة ليس فقط تستمد حيويتها المتجددة كل مرة من التجسّدات الحالية لتداول السلع ، بل أيضاً أن هذه الأفضنة « تولد » فعلياً من حركة تداول السلع . هذا الانطباع خاطيء . وقد أستتبع نتائج نظرية وسياسية مشؤومة . وفي هذه الحال فإن الأشكال الجماعية لتنظيم الرغبات الجنسية ، وتنمية الوعي والحاجات ؛ لم تعد لها سوى علاقة بعيدة مع عملية تطور الانتاج الرأسمالي تحت المظهر المزدوج لانتاج القيم الاستعمالية وإنتاج القيمة الزائدة . وتزول أكثر فأكثر إعادة الصلة بين « مصائر الرغبات الجنسية » الجماعية والوضع الطبقي ، أي أنماط

تجدد إنتاج الوجود المادي لـ « جماعة » معينة . وتاريخياً ، في ما يخص الحركة المناهضة للسلطة وللتحكم ، فإن نتيجة سياسية لهذه العجالة النظرية قد أرتسمت منذ الآن : باستطاعتنا أن نسجل في المرحلة الأخيرة من الحركة المناهضة للسلطة وللتحكم تبلوراً يرسى على ركائز نظرية خاطئة وأعمالاً في الدائرة الاستهلاكية . ليس ذلك لأن هذه الأعمال ذاتها خاطئة ؛ لكنها تظل عقيمة إذالم ترتبط ببيئة الإنتاج المادي ، وهي البيئة التي سيتقرر فيها بالنهاية مصير الوعي الخاطيء الذي لدى المنتجين عندما يرون أنفسهم بمثابة مستهلكين .

إن مفهوم الإزالة القمعية للتسامي قد أستخدم في الكتاب بصورة لا تسهم في جعل الأمور أكثر وضوحاً . وهي لا قيمة لها إلا بالنسبة لتحليل آلية ما خاصة بطبقة معينة : إن هذا المفهوم يبقى منحصرأ في البناء الفوقي الثقافي وفي الشكل التاريخي للتكليف الجماعي للفرايز الجنسية لدى الطبقة البورجوازية . وهذا المفهوم عن الإزالة القمعية للتسامي يأتي مباشرة من ماركوز ؛ وهو يستند إلى أفكار هورخيمر حول « انحلال الفرد » و« سقوط الأنا » « إن الأنا يذوي » ذلك ما كتبه هورخيمر في محاولته الدراسية « العقل وحفظ الذات » ؛ وهو يعتقد بذلك أنه يكتشف نزعة اجتماعية عامة للرأسمالية المعاصرة . ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن يعينه سوى على الجانب النفسي من الانحلال الواقعي للبورجوازية . ويكفي إلقاء نظرة سريعة على التاريخ الاجتماعي لنمط المعيشة البروليتاري والبورجوازي الصغير لدحض هذا المفهوم .

وإذا أردنا البقاء في هذا السياق من الأفكار فينبغي أن نصف مثل هذا التطور في بنية الرغبة الجنسية بصفته بأنه بالأحرى تسام قمعي . إن منشأ مفهوم الإزالة القمعية للتسامي هو في الفهم المتولد من خراب الطبع المثالي البورجوازي . هذا المفهوم بكامله لا محتوى له إلا لأن الأشكال البورجوازية السابقة لتكليف الفريزة الجنسية (أو بعبارة أصح : تنسيقها الأدبي) تجري

مقارنتها مع الأشكال البورليتارية الراهنة لتكييف الرغبة الجنسية .

ومن جهة أخرى فإن الخطأ الأكثر شيوعاً في « النظرية الانتقادية » إزاء علم التحليل النفسي يوجد مجدداً في هذا الكتاب « النشاط الجنسي وصراع الطبقات » . إن تطبيق اكتشافات التحليل النفسي على دراسة التاريخ يتطلب إلزامياً مفهوماً واضحاً عن تغيير وظيفة مقولات التحليل النفسي ما بعد البسيكولوجية ، هذا التغير الذي لا بد أن يحدث بالضرورة حين ينتقل المرء من العلم العيادي إلى تطبيق هذه المقولات في إطار المادية التاريخية . وكما أن مقولات التحليل النفسي ما بعد البسيكولوجية ذات بعد تاريخي ، كذلك فإن لمقولات المادية التاريخية بعداً نفسياً . ولو كان الآخر بخلاف ذلك ، فإن تحليلاً للوعي الخاطيء ، من وجهة نظر تاريخية لتجميد تطور الحاجات ، كان مستحيلاً . ومع ذلك « فإن النظرية الانتقادية » لا تربط إلا بتداعيات غامضة من الأفكار مقولات التحليل النفسي ما بعد البسيكولوجية مع مقولات المادية التاريخية ، هذه المقولات التي أصبحت عناصر تزيينية تقيمها وتزيلها وفق مشيئتها .

وهذا واضح بصورة خاصة في المقاطع المستمدة من ماركوز والتي استشهدت بها في كتابي ، بإلحاح ، وسيظل الأمر على هذا النحو ما دام الباحث لن يستند بالنسبة للمقولاتين إلى أصغر قدر مشترك متعدد بينها . أي إلى تحليل السلعة والطرائق التي استخدمها ماركس برسم الخطوط الكبرى للتطور التاريخي لمتلف أنماط تكيف وعي المنتجين بواسطة الخداع الذي يقوم بالرأس مال ، وخرافة النقود وفتيشية السلعة . عندئذ فقط يمكننا أن ندرج في المادية التاريخية مفاهيم أمثال : التسامي ، تطوير الرغبة الجنسية ، الطبع ، الآنى إلى آخره . وحينئذ فقط ستمكن هذه المقولات من أن تخدم في تحليل الظواهر المسماة الإجتماعية - البسيكولوجية ، تلك التي يجري تمويلها بالأحرى من تسميتها بصورة

صحيحة بتسميات أمثال التكيف الإندماج ، الاستمرار ، التكيف التضليلي
المفتعل ، والإرغام على الإستهلاك .

وأنا أدرك واقع أن عنصري تحليل لهذين العنصرين ، وهما من العناصر الحاسمة
بالنسبة للكتاب ، يستتبعان مجموعة كبيرة من الاستنتاجات الحاطنة وسأذكر
أهمها: إسقاط السلوك الجنسي والآلام النفسية لفتيان الفئات المتوسطة على جميع
فئات وطبقات الرأسمالية الألمانية الغربية المعاصرة؛ الدفاع غير الانتقادي عن
أرلوية العلاقة الجنسية في صياغة فرويد لها، الذي يضع هذه الأولوية بمثابة مثل
أعلى للنمط الطبيعي المدروس علمياً والنمط النفسي الجنسي ، تشويه إيدولوجي في
امتداح الحب والإخلاص لأن هذين يستخدمان كوسيلتين تكتيكيتين لأجل
الدفاع ضد « الإزالة القمعية للتسامي » ؛ تشوش وارتيباك بصدد تحليل « مصائر
الرغبات الجنسية » الخاصة بمختلف الطبقات الاجتماعية - أي بصدد الصلات
النفسية بين عملية بناء الحاجات والوضع الطبقي ؛ المعجز النظري عن تحديد
مجموعة مصطلحات بالنسبة للنقطة الرئيسية النفسية للعلاقات بين الوضع الطبقي
(أو تجسدها التجريبية وحالات ضعفها). ولعل أسباب عدم استطاعة تصحيح
هذا الاستخلاص أو تلك النتيجة قد أصبحت الآن مفهومة أكثر . ويبدو لي
أن ذلك سيكون انتهازياً على الصعيدين النظري والسياسي في وقت مما . وما
كان ذلك ليفيّر المنطق الداخلي لبحثه ولا صياغته ؛ لم يكن ذلك ليؤدي إلا
إلى المزيد من انعدام التجانس . والحال فإنه لا يوجد محاولة واحدة لعرض
متلاحم للعلاقات بين شروط إنتاج السلعة الرأسمالية والأشكال الراهنة لتكثيف
الرغبات الجنسية ، وشفافيتها في الوعي الطبقي الناشئ * . وحق المناقشة

* لعل المؤلف لم يطلع على العديد من الأبحاث الفرنسية في هذا المجال . وهي ليست عبارة
عن مجرد محاولات بل هناك صياغات نظرية شبه متكاملة . مثلاً كتاب لوسيان سيف =

حول « الماركسية والتحليل النفسي » لا تعالج أبداً بصورة واقعية هذه العلاقات .
فإن القضية لا تثار عملياً . لهذه الأسباب أرى مبرراً لتقديمي للمجموع
طبعة كتابي هذا دون أي تغيير .

في مخطوطات عام ١٨٤٤ (الاقتصاد السياسي والفلسفة) يقدم ماركس ،
عرضاً ، أو تصميماً أولياً لبرنامج لعلم نفس مؤسس على المادية التاريخية : « ونحن
نرى كيف أن تاريخ الصناعة والوجود الموضوعي المتكون من الصناعة هما
الكتاب المفتوح للقوى البشرية الجوهرية وعلم نفس الإنسان ، هذا العلم الحاضر
حياً ، ... علم نفس يظل مقفلاً بالنسبة له هذا الكتاب أي بالضبط القسم
الأكثر حضوراً حياً ، والأسهل منالاً لتاريخ ، لا يمكن أن يصبح علماً حقيقياً
وغنياً حقاً بالهتوى^(١) . إن الكتاب الذي يتحدث عنه ماركس لم يُفتح حتى
الآن سوى نصف فتحة .

مقتطفات من التذييل الختامي لطبعة « الجيب » الألمانية
(تشرين الثاني ١٩٧٠)



= « الماركسية ونظرية الشخص الانساني » . وقد فعل الفيلسوف الفرنسي أكثر مما يطلبه
دارموت رايش ، لقد صاغ نظرية انتقادية لمجمل العلوم النفسية والتحليل النفسي السابقة لكتابه ،
ثم قدم مجموعاً نظرياً ماركسياً متكاملًا لحل قضية العلاقة بين الفرد والمجتمع في سياقها التطوري .
(ملاحظة من المترجم م . ع .) -

(١) كارل ماركس « مخطوطات عام ١٨٤٤ » ترجمه بوتيجيلي ، باريس .

لا بد في الختام من تقديم آيات الشكر :

إلى رفاق إحلقة الدراسة « النشاط الجنسي والسيطرة » ونادي المجادلة ،
وهيئة S. D. S. و A. U. S. S. كما أشكر السيدة هايدي بيرندت والسيد
مارتان دامنكر ؛ كما أن المترجمين الفرنسيين نيقول جيرهارتس ، وكلود
مانفروي يُشكران على المساعدة التي قدمها في تحقيق هذه الترجمة .



فهرس

صفحة

٥	المقدمة
	الفصل الاول :
١٣	ماذا يعنى مجئنا في صراع الطبقات
	الفصل الثاني :
٢٢	تغير وظيفة القمع الجنسي في النظام الرأسمالي
	الفصل الثالث :
	تكييف الحياة الجنسية والتربية الجنسية
٧٣	انمكاس للانقسام الاجتماعي
	الفصل الرابع :
	الأخلاقية الجنسية للحضارة المصرية والتخطي القمعي
١١٢	للمصاية الحديثة
	الفصل الخامس :
١٥٢	بعض تجسّدات الممارسة الجنسية في الرأسمالية المتأخرة زمنياً

الفصل السادس :

١٩٤ ما المقصود به إعادة الاعتبار إلى التامى .

الفصل السابع

٢٢١ قضايا الدفاع الراحنة

٢٦٩ تذييلات بمثابة خاتمة



مؤسسة جواد للطباعة والتصوير



محافظة - مسقط - ٨٢٧٧٠٢ - ٨٢٨١٥٧ - ب.قوت - لبنان

هذا الكتاب

« هذا الكتاب العلمي يقدم خدمة جليلة الى القراء العرب الذين يبحثون عن اسهام في حلول صحيحة لمشاكلهم على اساس منهجية سليمة ، وبصرف النظر عن المحرمات الغيبية التي لم يعد لها من مكان في هذا العصر .. فهو يدرس ، على اساس علمي وإحصائي ، نظري وتجريبي ، مسائل الحياة الجنسية ومشاكلها في مجتمعين اساسيين من المجتمعات الرأسمالية المتطورة : جمهورية المانيا الاتحادية والولايات المتحدة الاميركية حيث يحدث التطور - ليس نحو الأفضل - لاطوار الحياة والعلاقات الجنسية تحت نير الاستثمار الرأسمالي الاحتكاري ، والشروط الاقتصادية والنفسية ، الضروري توفرها مسبقا ، للنضال ضد القمع الحقيقي الذي تعانيه الطبقات الشعبية في اوضاعها الاقتصادية والمعاشية ، وبالتالي ، الجنسية .

ويضع المؤلف يده على العنق الرئيسية التي تطبع مشاكل هذه المجتمعات الرأسمالية في ميدان الجنس والصراع الطبقي ، وهي ادماج كل الحياة الجنسية بجميع فئات الأمة داخل النظام الاحتكاري القائم ، ومسخ الحياة الجنسية وجعلها مجرد سلعة ، واعطاؤها وظيفة غرض استهلاكي ، وحرمان الجسد البشري - معجزة الطبيعة الرائعة - من مزاياه الجنسية والوجدانية ، وحرف الفرائز الجنسية نحو نزعة عدوانية موجهة .. وليس هذا كله سوى الشكل الراهن للاستثمار الرأسمالي .. ولذلك فان مسألة « الاستراتيجية الجنسية » لن تجد مكانها الا في المحمل المتلاحم من النضال السياسي المضاد للرأسمالية ، دفاعيا وهجوميا ..

وقد اعتمد المؤلف على منهجين قد يبدوان متناقضين : هما المنهج الماركسي والطريقة فرويدية (علم التحليل النفسي) ليؤكد قانونا اساسيا له صفة الشمولية ، ويمكن ان نعيد من تطبيقه في سائر المجتمعات النامية ، بما فيها مجتمعنا العربي ، وهو « قانون التكييف الرأسمالي التضليلي لمظاهر وممارسات العلاقات والحياة الجنسية لخدمة المجتمع الرأسمالي ، مجتمع الاستثمار والاضطهاد لمجاهير المنتجين »